دكتور محمود أدهم

مصر والصحافة

(الطبعة الأولى)
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

الغلاف من تصميم الفنان

حسن أحمـــد خليل

الإهــــــــداء

الى أســاتذتى الاجــلاء

وزملائى الأعـــــزاء

من العـــــــاملين

فى بلاط صاحبة الجلالة

د ٠ محمود ادهم

تقديم

جذبتنى اليها بشدة ، تلك العلاقة بين رجال القمة السياسية ، وسيداتها أيضا من ملوك وملكات وأباطرة ورؤساء جمهوريات وحكام .. وبين رجال القمة الصحفية .. أو بين هؤلاء من جانب ، وبين صحافة بلادهم من جانب آخر .. ذلك لأنها تتصل عن قرب بالتاريخ العام لدولهم ، وبحياة هؤلاء ، وأفكارهم ، ومواقفهم .. كما تتصل عن قرب أيضا بتاريخ الصحافة العالمية والعربية ، وبقوانين الاعلام فى بلد وآخر ، وبالفنون الصحفية نفسها فى نهاية الأمر .. وجميعها ذات أهمية بالغة تنطلق من تلك الأهمية المعقودة على الصحافة نفسها .. تلك التى تكون مرآة للشعوب ، تماما كما يصح أن تصبح مقياسا لتقدمها ، ووعيها ، ذلك لأن من الثابت أيضا أن لكل شعب صحافته التى يستحقها .

ومن هنا ، فقد رأيت أن أكتب عن بعض من صور هذه العلاقة نفسها ، وبكل أبعادها ، وتفصيلاتها ، وبوجهيها أيضا ، وحتى تلك الصور التى غلبت عليها الطرافة بما يؤكد أنها لم تكن علاقة صدام ومعارك ، أو سلطة وتقييد فقط ، بل كانت كذلك وفى أحوال عديدة علاقة حب.

وود ، وتفاهم مشترك ، ودور تؤديه الصحافة ويؤديه الصحفيون خدمة لأوطانهم ، ومجتمعاتهم ، تأييدا ، وتعضيدا للدور السياسى أو العسكرى الذى تقوم به القيادة السياسية .. وبصرف النظر عن النزعات المتطرفة ، سياسية كانت ، أم صحفية .

على أنه قد يثور بشأن مادة هذا الكتاب وسبب اختيار هؤلاء الأشخاص دون غيرهم ، وتلك اللقطات أو الصور نفسها أكثر من سؤال .. أقول بشأنها أننى لم أهدف الى أكثر من بيان بعض صور هذه العلاقة ، وطبيعتها ، وأما عن هؤلاء فقد وجدت أنه قد تجمع لدى عنهم وعن صحافة عهودهم ومواقفهم منها الشىء الذى يمكن أن أستند اليه فى كتابة هذه المجموعة المتنوعة من المقالات التى ترتكز الى الحقائق العلمية وحقائق التاريخ وحدها ، وما أمكننى الحصول عليه منهما .. دون أن يغيب عن بالى الكتابة عن آخرين أجمع الآن شتات المعلومات والحقائق عنهم وعن صحافتهم .. ومن بينهم :

« أوليفر كرومويل — لويس السادس عشر — فيكتوريا — جورج واشنطن — محمد على — رودلف الثانى — بسمارك — فرانكو — ماكينللى — هارى ترومان — ماوتسى تونج — نهرو — نلسون روكفلر — خروشوف — جمال عبد الناصر — أحمد سوكارنو — محمد الخامس » ... وغيرهم ..

كذلك فاننى لم أقصد أن أحيط بتاريخ جميع هؤلاء الرجال ، ولا كان باستطاعتى ذلك .. وانما قصدت الى وجهات نظرهم بشأن مرآة شعوبهم ، ودورها ، ومواقفهم منها . دون أن يمنع ذلك — بالطبع — من ذكر شىء عن حياتهم كمدخل الى الحديث عن مواقع الصحافة من اهتمامهم ..

وأما عن بعض الأسماء الأخرى من الأحياء الذين كانت لهم مواقف

مشهودة من الصحـافة ، أو هؤلاء الذين تأثر حكمهم بالفضائح التى أثارتها صحف بلادهم .. وحتى السقوط أو الاستقالة .. أقول ان الكتاب لا يقدم رجال الحكم الأحياء ، كما أنه لم يكتب بهدف تسقط الأخطاء أو متـابعة الفضـائح أو الكشف عن المثالب فى عهـد زعيم أو رئيس أو ملك ، ومن ثم فان مقياس الفضـائح المثارة ، أو التى أثيرت ، ليس هو المقياس المتبع بالنسبة لهـذا الكتاب ، ولا بالنسـبة للكتاب الذى سوف يليه باذن الله .. دون أن يمنع ذلك كله من الاشـارة الى بعض المثالب ، أو الطـرائف ، أو الغـرائب .. لأن الشىء بالشىء يذكـر ، والحكام بشر ..

والله أسأل أن تتحقق به الفائدة المرجوة .

محمود أدهم
القاهرة ـ أغسطس ١٩٨٠

مصر والصحافة

يوليوس قيصر

صحيفة كاملة

من ٢٠٠٠ سنة !

يوليوس قيصر :

صحيفة كاملة
من
٢٠٠٠ سنة

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : هل تحدثنى هذه المرة عن احدى الصحف القديمة قدم الدهر ؟ وعن الرجل الذى أصدرها ، والغاية من اصدارها ؟

أجاب الشيخ : أما الصحف القديمة قدم الدهر فهى كثيرة ، وتجل عن الحصر ، وكل أمة من الأمم تعتقد أن لها فضل السبق فى هذا المجال ، خاصة مصر والصين والعراق والشام وفارس وجزيرة العرب فلندع هؤلاء جميعا ، ولنول وجهنا شطر الغرب ، لنعبر البحر أيضا ، ولنقرأ قصة هذه الصحيفة ، وحكاية هذا الرجل ..

الزمان : المائة سنة الأخيرة قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام .

والمكان : روما ... سيدة العالم فى ذلك الوقت ، وعدد من مدن الدولة الرومانية الشامخة .

والحدث : صور عديدة من صور صراع قادة الامبراطورية ، بعد أن قفز هذا الصراع نفسه من ميدان السياسة ، الى ساحات المعارك الدموية ، أما أطرافه فهم أمراء جيوش طالما انتصرت .. لوكولوس وبومبى الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر وسبارتاكوس .. أما الأخير ــ قائد ثورة العبيد الكبرى فقد هزم على يد الأول الذى واصل تقدمه ليقضم

ما يستطيع أن يقضمه من التفاحة الرومانيــة المتنازع عليهــا .. فكان له ما أراد وأكثر ، حيث فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ثم تقــاعد مكتفيا بما حققه من ثراء عريض .. وأما ثالثهم ــ كراسوس ــ فقد رأى أن يغزو بلاد فارس .. ثم هزمه البارثيون وقتلوه شر قتله .

قال الطالب الفتى لأســتاذه الشــيخ : وماذا عن الآخــرين بومبى ويوليوس قيصر ؟

أجاب الشيخ : فرغت الســاحة من غيرهما .. وبدأت المناوشــات فورا .. واستمرت وقتا طويلا ، بل وانتقلت الى أكثر من مكان من أرجاء الامبراطورية الشاسعة .. وأخــيرا هزم قيصر بومبى ، الذى قتــل بمصر التابعة لدولتهما .. فأصبح الرجل بذلك ــ يوليــوس قيصر ــ البطــل الوحيد فى الساحة ، بعد أن اختفى الجميع .. أو بتعبير آخر أصبح وحده سيدا على العالم الرومانى ..

ذلك أنه بعد أن قضى على منافسه الوحيد ، نودى به « ديكتاتورا » لمدة عشر سنوات .. ثم مدى الحياة .. وهى الفترة التى قصدنا اليها من حديثنا هذا كله .

قال الشيخ المؤرخ : ذلك أن الرجل ما كاد يستتب له الأمر ، بعــد أن أكلت الحرب أصحابه ، حتى بدأ يلفت الأنظار اليــه ، ليس بالسيف وحده ، وانما بالعقل والمنطق .. وقد دفعانه الى أن يكون رجل اعلام من الطراز الأول .. بالاضافة الى أنه كان بطلا حربيا مرموقا ، وقائدا خبيرا.. وسياسيا داهية ..

أما اعلامه فظهر على أكثر من صورة ، كانت بعضها تمثل مقــدمات عديدة لمكونات شخصيته الاعلامية عامة ، الصحفية خاصة ، حتى وان لم تظهر الموهبة الثانية الا متأخرا ، ولكنها على كل حال جاءت فى مرحلة من النضج السياسى والاعلامى .. معا ..

وقد تمثلت هذه المقدمات الاعلامية ، أو تلك التى تقف لتدل على جانب الاعلام فى شخصه فى أكثر من صورة ، وبأكثر من أسلوب ، كان من بينها على سبيل المثال لا الحصر أنه كان يركز الاعلام عن أفكاره ومبادئه فى المواقع الحساسة ، كالمعابد والأسواق وحلبات السباق والمصـارعة ، وأثناء عروض المسرح الرومانى .. منتهزا فرصة هذه الجماهير المحتشـدة التى نجح فى تجنيدها ــ الى حين ــ لصالحه ، وغرس بين عقولها أفكاره ، كما نجح كذلك فى أن يدخل بهذا الجانب الدعائى الضخم الى قاعة مجلس الشيوخ الرومانى نفسه ــ السيناتو ــ منتهزا فرصة الانتصارات العديدة التى أحرزها .. مستغلا لها كل الاستغلال ، بل انه نجح كذلك فى ادخال الرهبة الى قلوب هؤلاء وهؤلاء .. فى ساحات المصارعة والتحدى ، وجنوده يتقاذفون جثث أعدائه بأيديهم وبأرجلهم أيضا ، مما يصح اعتباره أساسا للعبة كرة القدم ، وان كان أساسا دمويا .. ومصـارعوه ينتصرون على غيرهم بعد أن نجح فى استمالة عدد من العبيد المصارعين اليه .. وكذا فى ساحة مجلس الشيوخ عن طريق الترغيب والتهديد معا ..

كذلك يعزى الى هذا الرجل ، أنه ابتكر نوعا جـديدا من الخطب التى لم تكن معروفة من قبله ، ذلك أن الخطباء كانوا يتجهون بخطابتهم الى الموعظة والحكمة ، واعطاء المثل ، والقصص الهادفة التى يأخذ منهـا المستمع بعض العبر .. وهكذا كانت الخطابة اليونانية .. ولكن الرجـل أدخل عنصر رواية أخبار المعارك التى يخوضها جنوده ، ضـمن خطبه ، فجاءت بذلك خطابة « اعـلامية » أو خطـابة « اخبـارية » لأنها كانت تروى بطولات هؤلاء ، ومواقع انتصاراتهم ..

وأما عن نهضة الخطابات الاخبارية التى كان يتبادلها كبار القـادة وأثرياء روما ، فقد بلغت فى عهده مالم تبلغه فى عهد غيره من القادة ، أو الأباطرة .. وكتبت فى كل شىء وكان لكتابها من سعة الموضوعات وشمولها وتنوع الأغراض ما جعلها تتفوق عددا ونوعا ...

وجميع هذه الصور والمشاهد تقف فى جانب الرجــل ، والقــائد ، والسياسى والاعــلامى ولكنها ــ جميعها أيضــا ــ تعتبر مقــدمات أو ارهاصات للعمل الصحفى الكبير الذى تم فى عهده .. والذى جعل منه ، وبشهادة أكثر المراجع التى تناولت تاريخ الصحافة العالمية .. من أوائــل هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على ذلك الدور الكبير الذى يمكن أن تؤديه الصحافة ..

وصحيح أن معرفة روما بالخطابات الاخبارية كانت تعود الى ما قبل عهده بمئات السنين .. وأن دولتها الكبرى ، أو امبراطوريتها قد عرفت وكما يقول د . ابراهيم امام ، الصورة الأولى لاذاعة الأنباء منسوخة باليد فى أوربا ، ممثلة فى تلك النشرات الحكومية التى يكتبها النســاخون وتوضع فى الميادين الهامة(١) .. كل ذلك صحيح ولكن ما أحدثه الرجل يجعل له مكانا بارزا ، استحقه عن جدارة ، فى تاريخ الاعلام .. وذلــك عندما رأى بحصافته أن يقوم بتحويل مثل هذه النشرات الى صــحيفة كاملة صدرت منذ ٢٠٠٠ سنة ، وعلى وجه التحديد خلال شهر يناير عام ٥٩ • ق•م • وأطلق عليها اسم « الوقائع أو الأحــداث اليومية »(١) وهو الاسم الذى أصبح يحفظه عن ظهر قلب جميع طلاب الصحافة وهواتها فى العــالم كله .. ويتحدثون عنها وعن صاحبها حديثا محببا الى قلوبهم حيث تمثل هذه « الجــذور » الصحفية ، الضــاربة فى أعمــاق التربة البشرية .. كذلك ولعنايتها باعلام الشعب الرومانى واخبــاره فقد أطلق عليها المؤرخون اسم « أحداث الشعب أو الأحداث الشعبية »(٢) .

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : انها لقصة عجيبة حقا .. فهــل تحدثنى بالمزيد عن هذه الصحيفة « الجدة » ..

قال الشيخ : فى بداية صدورها لم تكن تختلف كثيرا عن هذه الأوراق الاخبارية الأولى التى كانت روما مركزا لصناعتها وتجارتها وتبــادلها . وباستثناء الانتظام فى الصدور وتناولها للاحداث يوما بيوم ــ كما يؤخذ

ذلك من اسمها ــ فانها لم تكن تختلف كثيرا عن النشرات الحكومية التي كانت سائدة فى هذا العهد ، بمعرفة الناسخين والتجار ، أو بمعنى أكثر دقة كانت الأحداث اليومية أو الشعبية تطويرا لهذين الوسيلتين .. ولكن ذلك لم يكن يشفى غليل الرجل ــ يوليوس قيصر ــ أو يتناسب مع حجم طموحاته ، وما يريد لنفسه ولأبرز أدوات الدعاية له ولعهده ، ولصورة مجتمع روما بمن فيه ، وما فيه .. كما أراد لها .. ومن هنا ، فقد بدأ يدخل اصلاحاته « التحريرية » و « الادارية » عليها .. فزاد من عدد ناسخيها واختار لها بنفسه المواقع الهامة كالميادين ومفترق الطرق والأسواق والشوارع المؤدية الى الملاعب الرومانية القديمة ، وجدران المسارح وبيوت القادة والأثرياء وكبار التجار .. حيث كانوا يلصقونها على جدرانها ، كما كانت تقدم الى من يطلبها من الرجال والنساء على حد سواء .. حيث يحكى بعض مؤرخى هذه الفترة ، أن البيوت الرومانية كانت تزدان بها .. وأن سيدات المجتمع الرومانى كن يقدمنها الى ضيوفهن كدليل على حب المعرفة والمعاصرة فى آن واحد ..

ذلك كله من حيث الطفرة التى حدثت فى توزيع الصحيفة ، والتى استندت الى قاعدة تحريرية كبيرة ، تمثل ثورة فى مضمونها الاخبارى ، تحققت من ورائها الفائدة التى كان يريدها مصدرها ، وربما أكثر منها .. وعلى وجه الخصوص من نشرها لوقائع جلسات مجلس الشيوخ الرومانى، الذى كان يقرر مصائر القضايا الشعبية والسياسية والعسكرية الهامة .. فساهمت بذلك فى إطلاع الشعب عليها .. ودخلت محاورات ومناقشات وجدل الأعضاء الى البيوت ثم بدت هذه الثورة التحريرية كذلك فى التنويع الكبير الذى أدخل على مادتها الاخبارية ، حيث مارست مهمتها الجديدة فى نشر الأخبار والأحكام القضائية والقوانين الجديدة ، وأخبار حملات الرجل العسكرية شرقا وغربا .. واذا بها تنتقل من ذلك الى نشر أخبار المجتمع العادية من مواليد ووفيات وزيجات جديدة ، وحتى ما يقول

به علماء الفلك والمنجمون الأوائل ، مما يعتبر أساسا للنشرة الجوية ، كما أبدت اهتماما بالأخبار المثيرة كتلك التى تتناول الجرائم وفضائح العائلات وقصص الغرائب والظواهر الشاذة ...

ويقال أن يوليوس قيصر قد حول من بعض أعمدتها مادة توجيهية كبرى لتحقيق أكثر من هدف من بينها ـ بل فى مقدمتها مواجهة أتباع القادة الآخرين الذين سقطوا فى الطريق ، بينما تابع هو مهمته الى الحكم ولتهدئة بعض مشاعر الثورة التى كانت تتجدد من حين لآخر بين العبيد من جانب، والقوى المعارضة له فى مجلس الشيوخ نفسه .. تلك التى كانت ترى أنه ما وصل الى الحكم الا فوق مئات وألوف الجثث الرومانية ، وفى مقدمتها جثة غريمه « بومبى » الذى كان بعض أتباعه من ذوى الأصوات المرتفعة فى مجلس الشيوخ ..

ويقال أيضا ــ وكدليل قوى على اهتمام الرجل بها ــ أنه كان لهذه الصحيفة بعض المراسلين فى المـدن الرومانية ، من هـؤلاء الذين كانوا يوافونها بالأنباء أولا بأول ..

قال الشيخ المؤرخ : وكم كانت تلك تجربة فريدة ، وتدل على عقلية اعلامية وتنظيمية كبيرة لا شك أن الرجل قد اكتسبها خـلال معـاركه العديدة ، وفى ساحات القتال نفسها ..

على أن الرجل بعد أن واصل زحفه الى مصر ، حيث وقع فى غرام « كليوباترة » ملكتها وآخر البطالمة عاد الى روما حاملا معه تلك الأفكار العديدة التى ركبت رأسه على ضفاف النيل ، وعلى شاطىء الاسكندرية، خاصة وهو يتنزه مع الملكة فى المكان الذى ما يزال يعرف باسـمه حتى اليوم ــ كامب سيزار ــ أو معسكر قيصر .. كما حمل معه أيضـا وكما يقول هـ . ج ديلز فى كتابه « موجز تاريخ العالم » فكرة الملك المؤله

وهى فكرة مصرية أصلا(٤) .. وفى روما .. أثار عبثه ومجونه بوادى النيل ، وأثارت هذه الفكرة نفسها ، ونسيانه لبلده ، ثائرة الثائرين عليه ، خاصة هذه البقايا المعارضة من أتباع بومبى الذين نجحوا فى استمالة عدد آخر من أعضاء مجلس الشيوخ اليهم .. كان من بينهم صديقه الحميم وتلميذه وابن زوجته « بروتس » وانتهى الأمر بأن اجتمع هؤلاء عليه ، وطعنوه فى ساحة المجلس بالخناجر ، فوقع صريعا تحت أقدام تمثال منافسه المصروع « بومبى » ..

وبينما كان الرجل يلفظ آخر أنفاسه ، ويحاول أن يتمالك نفسه ، لينظر بعينيه الى قاتليه .. فيجد وسطهم صديقه ، وخليله ، فتكون آخر كلماته تلك الكلمات المعاتبة المريرة ، التى جرت مجرى الأمثال : « حتى أنت يا بروتس » .

كان الناسخون يستعدون لاصدار عدد جديد من الصحيفة التى أنشأها ، ومئات الأعداد من الخطابات والنشرات الاخبارية ، التى تحمل الى أرجاء الامبراطورية خبر نهاية الرجل .. القائد .. الصحفى العاشق أيضا .. يوليوس قيصر .. لتبحث روما عن سيد جديد لها ..

نجح هو الآخر فى استغلال هذه الصحيفة الى أقصى حد ..

ولكن تلك كانت قصة أخرى .

---

(١) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٥

(٢) Acta Diurna

(٣) Acta Populi

(٤) هـ . E . ويلز – ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد : « موجز تاريخ العالم » ص : ١٥٢ – ١٥٣

هنرى الثامن

اضرموا النار فورا .. فى هذه الأوراق الخطرة .. !

هنرى الثامن :

اضرموا النـــار فــورا
فى هــذه الأوراق الخطرة

كان الأصدقاء من أثرياء الانجليــز وتجارهم قد وقعــوا فى غرام « فابى » أو هكذا كانوا يسمون الرجل ..

ولم يعدم « ا . ب . فابيان » وجود عدد من المعجبين به ، وبعمله ، وبضاعته حتى بين صفوف رجال البلاط الملكى والأمراء وكبار القادة ..

أما الذين كانوا يعملون تحت امرته من « مراكبية » وجامعى أخبار وعبيد فقد كان هؤلاء من أشد الناس اعجابا به .. ولم لا ؟ ، وهو يعاملهم جميعهم ـــ على قدم المساواة ولم يحدث أن ألقى على أحــدهم بكلمــة جارحة .. ممن يعمل عنده من العبيد من هم أقل عددا ..

ولذلك فعندما عاد الرجل من جولته اليومية مبكرا .. ولاحظ رجاله تجهم وجهه .. وأن حمرة غير عادية تعلو هذا الوجه الهادىء .. أسقط فى أيديهم جميعا ، ونظر كل واحد منهم الى صاحبه وقد ارتسمت فوق وجهه علامة استفهام كبيرة .. بينما ألقى الرجل بقبعته على كرسى عتيق ، ومال برأسه على طرف مكتبته وذهب بعيدا ..

أسرع رئيس العبيد « أماندو » يستدعى الشاب « جاكى » فقــد كان هو الوحيد الذى يستطيع أن يأتى بالخبر اليقين ، وأن يسرى عن فابى ويهون عليه أيضا ..

وجاء « جاكى » ونظر اليه « فابى » كمن كان يتوقع مقدمه أو يريد ذلك ، ثم قال له : اغلق باب المكتب واجلس هنا الى جوارى .. فلبى جاكى

أمر صديقه الكبير ووالده الروحي فورا ثم انطلق فابى محدثا تلميـذه وصديقه .

ــ اسمع ياجاك .. لقد فعلها الرجل

ــ من هو ؟ .. وماذا فعل ؟

ــ ومن الذى يستطيع أن يفعلها غيره ؟ .. لقد نفذ تهديده السابق، الذى سبق أن هدد به خلال الشهر الماضى ، ومر الشهر على خير ، ولكننى أبلغت شخصيا وأبلغ غيرى كذلك ، بأن علينا جميعا أن نجمـع أوراقنا ونذهب بها الى ضابط الشرطة .. والا فان الحرس الملكى بنفسه سيقوم بجمعها واحراقها .. ثم يكون السجن مصيرنا .

نظر جاكى الى الرجل .. وقال له .. ألم أقل لك ذلك ؟ ألم أحاول لفت نظرك الى أن الملك « هنرى » ينفذ تهديداته دائما .. ؟ ولكنك كنت تقول لى أن أصدقاءك من رجال البلاط سوف يقفون الى جوارك ، وأن الأمراء سوف ينتصرون لك ..

ويرد فابيان : حدث ذلك فعلا .. لقد وعدونى بالوقوف الى جوارى أكثر من مرة .. بل ان أحدهم طمأننى ، وقال لى أنه لا داعى للحصول على أذن من الملك شخصيا مادامت هذه الأوراق التى تبيعهـا لا تكتب الا ما يريده الملك ، وما يريده الأمراء ، والأميرات وكبار القـادة .. فلماذا سكتوا جميعا ؟!

ــ جاك : اسمع يا عزيزى .. انه لا يستطيع أن يبقى عليك وحدك .. واذا فعل ذلك ، فماذا يقول الآخرون عنه ؟ ..

ــ فابيان : ألا يذكر لى وقفاتى الطويلة معه ، فى معارضة العديد من أعدائه ؟ .. ألا يذكر لى أن رسائلى كانت تأتى من ميادين المعارك ، حاملة أخبار انتصاراته العظيمة فى اسكتلندا حتى أننى كنت أجهد عبيدى أكثر من مرة فى نسخ المئات منها ؟ .. ألا يذكر لى أنه هو شخصيا قد استدعانى

وطلب منى اعادة نسخ بعض هذه الأوراق ؟ .. لقد ربت هنرى يومها على كتفي .. وقال لى : أيها الصديق .. لقد دعانى بصديقه .. وقدم لى بيده الكأس الملكية ..

ــ جاك : ذلك شيء .. ورغبته فى امتلاك هذه الأوراق شيء آخر .

ــ فابيان : آه .. اننى أعلم من هو وراء هذه الثورة فى رأس مليكى ؟ .. أعرف تماما من هو صاحب هذه الأفكار السوداء ؟ .. انه لن يخرج عن واحد من ثلاثة .. اما أنه ذلك اليهودى المخادع الذى يعمل مستشاره الخاص ، ويريد منى أن أدفع له ، واما أنه البرنس أوف شيفيلد الذى تجاهلت دوره فى المعارك الأخيرة .. لأنه كان دورا حقيرا مثله ولكنه .. بعد كل معركة صغيرة ، يأتى الى منزلى ويطلبنى ليملى على ما يؤكد بطولته الأسطورية .. لقد مللت ذلك الرجل الذى يريد أن ينتزع وحده دور البطولة .. حتى عبيدى ضاقوا ذرعا بثقل دمه .. وبنكاته الحقيرة التى يطلقها عليهم ، وهو يمر بينهم مختالا كما الطاووس .

ــ جاك : والثالث ؟

ــ فابيان ــ انك تعرفه حتما .. انه قسيس الكنيسة المجاورة لقصر الملك ، والذى بدأت زياراته لهنرى تتوالى حتى كاد أن يصبح نديمه ، وناصحه الأمين ، وان هذا القس الأرعن لا ينسى لى ملاحظة أبديتها عندما جاء ــ فى حضرة المليك ــ وعلى مشهد من عدد من الأمراء ليبدى رأيا عجيبا ، ينم عن قصر نظر غريب ، وعن فكر عجيب يمكن أن تعاقبه عليه الكنيسة ذاتها .. وكان لابد أن أتدخل .. ومن يومها والرجل يحقد على جميع تجار الأخبار .

.. وانتهت المحاورة بأن طلب فابى ، تاجر الأخبار الشهير فى لندن ، من تلميذه وصديقه الذى قام بتربيته ، منذ توفى والده .. طلب منه أن يحمل كل النسخ الموجودة فى منزله ، وفى الكوخ الخشبى الكبير الذى يوجد به الناسخين ، وكذا النسخ الموجودة فى مكتبه ، والتى يمكن أن

تكون عند جاكى نفسه .. يحملها جميعا الى مقر الشرطة ، ويسلمها لهم ، ويتسلم منهم ما يفيد تسليمها .. كما أوصاه بأن يفعل ذلك على وجه السرعة ، حتى لا يدهم المكان الحرس الملكى ويقوم أفراده بحمل النساخ عنوة ، الى حيث ينفذ الملك تهديده باحراقها وسجن أصحابها .. ذلك التهديد الذى يسرى مع الخيوط الأولى لصباح اليوم التالى ..

حدث ذلك كله ، عندما كانت تجارة الأخبار قد بدأت تروج فى انجلترا ، وبشكل منقطع النظير .. جعل العديد من الأذكياء يقبلون عليها ، اما برغبة كامنة فى أنفسهم واما يعملون كممثلين لعدد من كبار الأثرياء ، أو التجار ، أو رجال البلاط أنفسهم ..

وكان قوام هذا العمل الاخبارى ، الذى كان يدر على صاحبه ربحا كبيرا ، قاربا يقوده أحد مندوبى التاجر الكبير ، يذهب به الى السفن القادمة ، قبل أن تدخل الى الموانىء الانجليزية حيث يقوم بجمع الأخبار الهامة ، التى يرسلها مع آخر يركب جوادا سريعا ، ليقوم هذا بدوره بتسليم الرسالة الاخبارية ، الى آخر .. وهكذا حتى يصل الجواد وراكبه ، وفى جعبته ما حصل عليه الأول من أخبار .. كما كان يبعث بها أحيانا تحت أجنحة الحمام الزاجل ، من الموانى ، أو السفن نفسها ، أو ميادين المعارك ، حيث كان « المخبر » يحمل معه حمامة يخفيها فى سترته حتى اذا وصلت الى مقر العمل ، قام أحد العبيد المتخصصين ، والذى كان يجلس فى انتظار حمائمه التى يبعث بها المندوبون تحمل رسائلهم — قام بامساك الحمامة وتقديم الحب والماء المعطر لها .. أما الرسالة نفسها فتمضى الى حيث يجلس عدد من العبيد وأمامهم أوراق « الصحيفة » — مع التجاوز — والأحبار ، وأقلام البوص ، أو ريش الطيور ، حيث يقومون بنسخ العشرات من هذه الرسائل الاخبارية المتجمعة لديهم .. ليبدأ بعد ذلك عبيد آخرون فى توزيعها على المشتركين ومن يدفع .. وأحيانا من يدفع أكثر ..

أما فابيان نفسه ، فكان « متخصصا » فى نشر أخبار الملك ، والقصر الملكى والأمراء ، وأحيانا الأميرات ، وكبار الجند ، والاثرياء ، ولذلك فقد أصاب شهرة عريضة خاصة عندما أقبل على مساعدته عدد من أفراد عائلته الذين كانوا يملكون الجياد ، وعندما نجح فى نقل أخبار انتصارات الملك هنرى الثامن ، ووقف الى جانبه كثيرا ..

ولكن .. عندما بدأت الفتن تعمل عملها فى المجتمع الانجليزى ، على أثر الانتصارات العديدة التى أحرزها الانجليز على غيرهم ، خاصـــة الفرنسيين ، وعندما بدأ الملك نفسه يتحلل من قيود الكنيسة الكاثوليكية التى أراد رجالها تكبيله بها .. وقرر هو ــ وهـــو القائد المنتصر ــ أن يواجه رجال الدين الكاثوليكى الذين نجحوا فى اثارة الناس ضـــده ، وكذا عندما بدأت بعض الصحف المنسوخة أو « الرســـائل الاخبارية » كما كان يطلق عليها ــ تهاجمه وتهاجم أفراد عائلته وحاشيته ، كان لابد من اجراء ما .. وصدر هذا الاجراء فى صورة مرســـوم ملكى يطلب من أصحاب هذه الرسائل الحصول على اذن منه شخصيا قبل اصدارها ..

ولكن المرسوم لم يفعل شيئا كثيرا .. فقد كانت الرسائل تصـــدر أحيانا بدون اذنه ، وعندما أحكم الحرس الملكى ســـيطرته على بعضها صارت هذه الرسائل تصدر خفية ، مما زاد فى اقبـــال القراء عليها وقفز بأسعارها الى أرقام خيالية فى هذا العهد .. وهذا بدوره ضاعف من عدد « تجار الأخبار » الذين كانوا يعملون فى ميـــدانها ، حيث بدأ هـــؤلاء يستأجرون الفنانين لاضفاء بعض اللمسات الفنية عليها ، كما اشتروا العبيد وقام بتعليمهم على نفقتهم الخاصة ، ثم استخدموهم كناســـخين .. تماما كما كان يفعل فابيان ، وكما سبق وأن فعل ذلك والده نفسه .. ومع مرور كل يوم ، كان الملك ومن خلفه عدد كبير من المؤيدين الذين بدأت هذه الصحف المنسوخة تثير ثائرتهم لسبب ما .. حتى وان كان هذا السبب هو تجاهل أخبارهم .. كان هؤلاء جميعا يزدادون اقتناعا بأن من الأهميـــة

السيطرة الكاملة على هذه الأوراق الخطيرة ، التى ترفع من تشاء ، وتخسف بمن تشاء ... فماذا لو انها التفتت الى ما ينويه الملك من الخروج الكامل على الكنيسة الكاثوليكية .. أو اذا وقعت أخبارها فى أيدى الأعداء ، أو اذا استطاع محركو الفتن فى عهده استمالة عدد من العاملين فى ميدانها ..

أضف الى ذلك كله أن « هنرى الثامن » كان قد بدأ يقتنع بالرأى الذى نادى به عدد من أسلافه ، كبحا لجماح هذه الرسائل وامعانا فى السيطرة عليها .. وحتى لا يصبح الجميع سواسية بالنسبة لها ، أو تكون هى بكل ما أتيح لهـا من قوة ، فى خدمة الأفراد العـاديين ، أو يكون باستطاعة « الرعاع » قراءة أخبار الطبقات العليا ، وأصحاب الدم الملكى وكبار القادة .. على صفحاتها .. ان الحل هو فى احتكار الحكومة ، أو القصر لها ، وجعلها تحت سيطرة التاج ، أو بتعبير آخر .. رسائل ملكية تحتكرها الحكومة ، تماما كما كانت تحتكر فى هذه الأوقات تجارة الصوف وفرض الضرائب ، وكما تحتكر الحكومات الآن تجارة البتـرول ، أو المحصول الزراعى الأول كالقطن أو القمح ويحرم على العاديين من الناس التجارة فيه ..

أضف الى ذلك أيضا ، أن سيطرة هنرى عليها ، تعنى أن تكون فى يده سلطة نشر أو عـدم نشر أية مادة من موادها ، فيتحكم بذلك فيمـا يعرفه الناس ، ومالا ينبغى أن يعرفوه ..

ومادام الاجراء السابق ــ الحصول على اذن من الملك شخصيا ــ لم يعد مجديا ، أمام هذا السيل المتدفق من الرسائل والكتب الاخبارية ، وأمام هذا السيل المتدفق أيضا من الأخبار المتنوعة التى تجد فيها هـذه وتلك مادة مقروءة تماما .. ويقبل عليها الجميع .. وأمام هذه المكاسب العديدة التى يحققها تجار الأخبار .. مادام ذلك كله قد أصبح واقعا تعيشه البلاد فلابد من المفاجأة .. والقضاء على جميع الرسـائل الخارجة على سيطرة الملك .. وبعدها يسهل عليه أن يفعـل بها ما يشاء ، وأن يجعلها

تكتب ما يريده هو .. وليس أحدا غيره ومن هنا فقد عاد « فابيان » الى عماله متجهما على غير عادته .. تعلو وجهه حمرة محيرة ، وغريبة فقد كان أول من علم من التجار بالنبأ الغريب ، بالقرار الخطير الذى أصدره هنرى الثامن أو بالأمر الملكى الشهير بجمع جميع الرسائل الاخبارية التى صدرت بدون اذن منه ، واحراقها فى ظرف ٢٤ ساعة فقط .. أو أن يتعرض أصحابها للسجن .. لقد صاح الملك فى رجال الشرطة وحرسه .. عليكم أن تجمعوا هذه الأوراق الخطرة التى باتت تؤرق الملك ، والحاشية والأمراء ، والأميرات .. وأن تضرموا فيها النار فورا .. والويل لاصحابها الذين يحاولون المراوغة ، كما راوغوا فى الشهر الماضى .. ان السجن الطويل فى انتظارهم ..

ولم ينس الملك أن يهدد رجاله أيضا فأردف قائلا .. والويل لكم اذا تهاونتم فى تنفيذ ذلك ..

جمع جاكى النسخ الموجودة من رسائل فابيان الاخبارية .. بينما كان صاحبها يجلس منهارا على كرسيه الذى طالما جلس عليه وهو يكتب المدائح الملكية ، ويدبج المقالات ويحرر الأخبار التى تؤكد عظمة مليكه .

وبينما انطلق جاكى بكل النسخ الموجودة .. كان نحيب العبيد يعلو .. فقد كانت مصيبتهم أعظم .. عبر عنها أحدهم بقوله والدموع تملأ عينيه .. من أين لنا اذن أن نعيش ؟ .. وهذا هو الملك يأمر باحراق بضاعتنا ؟ .. لقد كان أجدر به أن يحرقنا نحن أيضا .. أليس كذلك يا صديقى أماندو ؟ ..

ولكن أماندو لم يجب .. فقد كان مشغولا بعمل آخر .. لقد كلفه فابيان بأن يخرج الى السوق مع عدد من أعوانه التصرف بالبيع فى جميع الجياد الموجودة فى الأسطبل ، وجميع الحمام الزاجل الموجود طرفه .. فلم تصبح هناك حاجة لها .. أو له .

اليصابات

اقطعوا يده
حتى لا يكتب
مقالة أخرى ..

اليصـــابات :

اقطعـوا يده حتى لا يكتب مقالة أخرى

يقولون أنها « من العظيمات فى التاريخ » .

ويقولون أيضا أنها قادت انجلترا بشجاعة عشرة ملوك من الرجال .

ويقولون كذلك .. أن عصرها يعتبر من أفضـــل عصـــور التاريخ الانجليزى ..

وكلمات .. وقصائد ، وروايات وكتب .. آلاف مؤلفة .. جميعهـا تكيل لها وللباقتها وشجاعتها وحكمتها وحسن تصرفها عبارات المديح ، وسطور الثناء ، كما لم يحدث بالنسبة لامرأة قبلها تلك هى ملكة الانجليز الشهيرة اسما ، وعصرا ، وسلطانا « اليزابث الأولى » أو « اليصابات ».. ابنة « هنرى الثامن » — مضرم النار فى الأوراق الخطرة — من زوجتـه « آن بولين » .. واخت الملك « ادوارد السادس » والملكة « مارى » .. أى أنها ملكة ابنة ملك .. وأخت ملك .. وأخت ملكة .. وبقية العائلة من ملوك أسرة « تيودور » .

وماذا أيضا ؟

لقد ولدت الملكة فى ٧ سبتمبر ١٥٣٣ فى قصر جرينتش .. وعنـــدما كانت آختها « مارى » تتولى عرش انجلترا .. اشتركت اليصـــابات فى ثورة قامت ضد شقيقتها .. فما كان من هذه الأخيرة ، وقد اتضح لها

الدور القيادى الذى لعبته أختها فى هذه الثورة .. الا أن تأمر بسجنها فى برج لندن ..

أى أنها منذ ريعان شبابها كانت فتـاة « متمردة » و « ثورية » .. فما الذى تنتظره البلاد منها ؟ وما الذى يحدث على يديها ؟

.. ها هى تتولى العرش الانجليزى فى الخامسة والعشرين من عمرها ـ عام ١٥٥٨ م ـ فما الذى فعلته هذه المرأة .. الثائرة .. الملكة ؟

لقد كان لها فى البـداية أكثر من اجـراء ثائر متمرد اتخذته فور جلوسها على العـرش .. لعل أبرزها أنها أمرت ـ لأول مرة ـ باقامة الشعائر والصلوات فى كنائس انجلترا باللغـة الانجليزية .. كما اتبعت ذلك باجـراء ثائر متمرد آخر عندما أعلنت أن المذهب البروتستنتى .. هو مذهب بلادها الرسمى .. ويالهما من قرارين أثارا عليها كثيرا من الهجوم ، وفجرا عـددا من الأحقـاد الكامنة ، ووصلا الى حد اعلان الحرب ، ولكنها كانت مثلا أعلى للثقة ، ورباطة الجأش .. فى الأوقات العصيبة .. رغم اندفاعهـا وثوريتها .. ومن هنا فقـد اجتازت ببلادها أزمات عديدة .. بل وحققت بلادها فى عهدها ما لم تحققه فى عهـد قبل عهدها .. اللهم الا نادرا ..

ومن ذلك مثلا .. بل فى مقـدمة هذه الانجازات نفسها مد النفوذ الانجليزى الى أماكن لم يصل اليها من قبل ، وتوسيع التجارة فى القارة الأوربية والشرق .. وانشاء الشركات العمـلاقة وفى مقدمتها الشركة الاستعمارية العتيدة المسماه بشركة « الهند الشرقية » .. كما أن ذلك العهد نفسه هو الذى شهد الانتصار البحرى الكبير للأسطول الانجليزى على الأسطول الأسبانى الأشهر المسـمى « الأرمادا » وذلك فى يوليو ١٥٨٨ .. كما أن من مفاخر هذا الحكم نفسه استعمار أمريكا ..

وقد ساعد ذلك كله على توفير المناخ الملائم الذى ساعد ليس على ظهور العبقريات العلميــة والأدبيــة فقط .. كعبقرية بيكون وشكسبير وغيرهما .. ولكنه ــ وكمــا كان من المنتظر ــ ســاهم أيضا ومساهمة فعالة فى مزيد من الانتشار للرسائل والكتب الاخبــارية المنسوخة بعد أن وجد أصحابها فى أحداث هذا العهد كلها معينا لا ينضب من المــادة الاخبــارية التى تمــلأ هذه الأوراق .. وجميعهــا كانت تعكس هذه التطورات كلها .. فى ميادين المعــارك مع الأعداء ، أو الميادين العلمية أو الأدبية أو الدينية الأخرى ..

بل ان بعض الأثرياء نجــدهم فى هذا العصر وقــد بدأ توظيفهــم لجامعى الأخبار من هذه الأماكن كلها ، فكانوا يختارونهم من بين الرجال الأقوياء الذين يستطيعون متابعة المعارك فى ميادينها الحقيقية ، كما لم يبخــل عــدد من العــاملين بالجنــدية أو البحــرية بأخبــارهما على هؤلاء .. أضف الى ذلك أنهم كانوا يتسللون الى الكنائس والمقــاهى والصالونات .. ويفتحون آذانهم جيــدا لكل كلمــة تقال .. حتى نمت المادة الاخبارية نموا هائلا على صفحات هذه الرسائل والكتب .. وبدأ عدد من الناس يترك تجارته الحقيقية للاشتغال بها ..

كذلك .. فان عددا من أعوان الملكة ــ اليصابات ــ نفسها ، كان يعمل فى هذه التجارة المربحة .. تجارة الأخبار .. ضاربا أكثر من عصفور بحجر واحد .. فهو من ناحية يعمل على كسب ود مليكته بالدعاية لها ، وتسجيل ازدهار فترة حكمها الطويلة ، وانتصاراتها ، وهو من جهة ثانية يدخل تجارة لا بأس بها ، وتدر عائدا مناسبا ، وأصبحت لها تقاليدها ، ومجالات أنشطتها المعروفة .. وذلك بالاضافة الى تمكنه من اشباع بعض هواياته ، والكتابة عن نفسه ، وعن أفكاره ..

وكان فى مقــدمة هؤلاء الأعــوان وصيف الملكة نفســه المســمى « الايرل أوف اسكس » (١) ذلك الذى كان من أكبر الدعــاة لهــا ..

ولانتصاراتها الحـربية ، وجهـوده هو أيضا ، حتى قيل أنه كان يشرف بنفسه على اصدار عدد من هذه الرسائل والكتب الاخبارية المنسوخة ، كما كان يوظف عددا كبيرا من جامعى الأخبـار ومحرريها الذين كانوا يتولون جمع مادتها وكتابتها .. ويقال أن هذه الرسائل بالذات كان لها الفضل الكبير فى تسجيل كثير مما عرفه المؤرخون والدارسون والقراء عن عهد هذه الملكة ، بعد أن عثروا على عدد كبير منها فى أماكن متفرقة .. ذلك كله على الرغم من أنهـا كانت رسـائل وكتب ونشرات منسوخة أو مخطوطة ـ بخط اليد ـ وليست مطبوعة ..

على أن هذا الانتشـار الكبير نفسـه والذى تحقق لهذه الوسيلة الاعلامية الناجحة نجاحا منقطع النظير .. كان يغرى الأعداد الكبيرة من المغامرين بالدخول فى حلبتها .. أو التسلل للعمـل بها ومن هنا ، ولأن الكسب السريع عن طريقها كان هو هدفهـم الأول ، وانتهازا لفترات انشغال الملكة بألوان الصراع العديدة التى كانت تخوضها ، فان بعض هؤلاء عندما كانت تعوزهم الأخبار الجادة من عسكرية وسياسية وعلمية وأدبيـة ، على الرغم من كثرتها ، فان من يتبعولهم من جامعى الأخبـار كانوا يولون وجوههم شطر أحاديث المقاهى ، والصالونات ، وما تلوكه الألسنة فيهما وفى غيرهما من المجتمعـات من أحاديث يقطع بها السمار أوقاتهم .. وما يتردد خلال هذه كلها ، من حقائق ، وشائعات ، وأكاذيب ونحوها .. كانوا ينقلونها الى صفحاتهم ، بعضهم ينقلهـا كمـا هى .. والبعض الآخر يضيف اليها كثيرا من عندياته ، ويلبسها الاطار الصحفى المثير .. ولا بأس أيضا من قليل من المشهيات « المصنوعة » أو تلك التى تقوم بنات أفكار جامع الأخبـار ، وربما تاجرها أيضا ، بالدور الأكبر فى « فبركتها » فكانت تتحـدث فى أحـوال كثيرة عن بعض الجـرائم المثيرة ، وعن قصص الحب والزواج والطـلاق وفضـائح العـائلات

الانجليزية ، مما ساهم فى اقبـال جمهرة كبيرة من القراء عليها .. كأية صحافة مثيرة أخرى ..

ولأن الانتشـار يدفع الى مزيد من الانتشـار ، والكسب ، ولأن النجاح عند هؤلاء كان لا يخرج عن هذه الحدود .. فقد تجرأ أصحاب هذه الرسائل وبدأ عـدد منهم يقتحم بأذنه وأنفه عـددا من الأسوار العالية .. أسوار بيوت العائلات الانجليزية الكبرى .. ليتسمع ويتشمم أخبارها ومضى يقدمها على صفحاته .. حتى اذا أصاب مزيدا من الذيوع دفعته جرأته الى أن يقتحم هذه المرة معاقل قصص الحب ، والطـلاق ، وحكايات العـلاقات العديدة التى تنشأ بين الأميرات والأمراء من أسرة تيودور نفسها ، وفى بلاط اليصابات أيضا ..

وعندما وصل هؤلاء حتى العائلة المالكة ، والبلاط والحاشية .. كان من السهل أن تلتقط آذانهم بعض الأخبار المتطايرة من هنا ومن هناك .. عن الملكة نفسها ..

ويبدو — بل هو الواقع فعلا — أن الملكة الحاكمة القوية .. وعلى الرغم من كل ما تحقق لها من سـطوة ونفـوذ ، وما تحقق لبلدها على عهدها .. يبـدو أنه كانت لها — كبشر — علاقاتها الخاصة جـدا .. بل ونزواتها المتمـردة أيضا .. تلك الى نسجت حولها العـديد من قصص الغموض والتشويق التى يختلط فيها الحب ، بالمغامرة ، وبالقتل أيضا .. حتى أنه يقـال كثيرا عن قتلها لابنـة عمها « مارى » ملكة أيقوسيا .. ثم تدبيرها لمقتل وصيفها تاجر الأخبـار الشهير ، الصحفى ، العسكرى « الايرل اوف اسكس » بعد كل ما قدمه لها ..

وأما عن « عاطفياتها » فقد كانت حديث المجتمعات نفسها ، وزاد من جدة فضول الناس حول هذه المسألة ، ورجال الأخبار فى مقدمتهم .. أنها بكل ما تحقق لها ، لم تتزوج خـلال فترة حكمها التى امتدت الى

خمس وأربعين سنة .. قرابة نصف قرن كامل .. بل ان عددا من المؤرخين يؤكدون أنه كان فى مقدمة أسباب الجفوة الانجليزية الأسبانية التى حدثت فى عهدها وانتهت بالحرب بين الطرفين وتدمير الأرمادا .. ذلك الدلال الذي أبدته فى علاقتها بفيليب الأسبانى ، ومراوغته أكثر من مرة ، واستمرار هذه المراوغات له طويلا .. ثم رفضها له فى النهاية كزوج لها .. مما عجل بالحرب بينهما .. كما يشير عدد من « الخبثاء » الى أكثر من علاقة كانت قائمة بينها وبين عدد من رجال حاشيتها .. ويربطون بين مقتل « ايرل اوف اسكس » .. وبين هذه النزوات نفسها بشكل أو بآخر .. حتى وان لم يكن ذلك هو السبب المعلن على الملأ لقتل وصيفها ..

كان ذلك هو بعض ما يدور حول هذه الملكة الثائرة ، المتمردة ، القوية ، التى كانت تبدى فى أحيان كثيرة نفس ما تبديه من صور الضعف ، أية امرأة أخرى تقبع فى ركن قصى من كوخها الحقير .. فى الريف الانجليزى .. أو أية خادمة من خادمات قصرها ، أو قصر احدى الأميرات من التابعات لها .. أو أحد أفراد حاشيتها ..

وقصص مثل هذه ، لا يمكن أن تفوت على رجال الصحافة ، بحال من الأحوال ، حتى وان كان هؤلاء ، من صحفيى القرن السادس فقط ، وليس النصف الثانى من القرن السادس عشر وبكل هذا الحجم من الرسائل والكتب الاخبارية ، وبكل هذه المادة المثيرة .. ان هؤلاء كانوا يجوبون المقاهى والصالونات والحدائق والكنائس والبيوت أيضا ، حتى يمكنهم العثور على قصة من هذا النوع لانجليزى عادى ، أو انجليزية مهملة .. فكيف اذا كانت هذه القصة تختص بأحد الأمراء ، أو احدى الأميرات ؟ .. ثم كيف اذا كانت هذه القصة تتصل بأكبر رأس فى البلاد ؟.

ودون أن ينتظم هؤلاء فى مقاعد معاهد الصحافة وكلياتها ، بل وقبل

أن تنشأ مثل هذه المعاهد بأكثر من ثلاثة قرون ، وكذلك دون أن يقرأ هؤلاء كتابا من كتب التحرير الصحفى .. فقد كان الرواد يعرفون بحواسهم الصحفية ، أى قدر من النجاح ذلك الذى يمكن أن يتوافر لتلك القصص الغرامية التى تكون بطلتها الملكة نفسها .. وبالتالى ، يتوافر للصحيفة — مع الاحتراز — التى تقدمها على صفحاتها .. ان جميع أركان وعناصر الاثارة والأهمية تتوافر لأخبار الملكة الشخصية ، أو على حد تعبير الصحفى الضحية « ستيباس » .. تتوافر لهذه « النزوات الملوكية » أو الملكية ..

كان ا . ستيباس مخبرا لامعا خلال عهد هذه الملكة ، مما دفع بالكثيرين من الذين كانوا يصدرون الرسائل والكتب الاخبارية الى محاولة جذبه ، والتعاقد معه ليعمل لهم وحدهم ، ولكنه كان يفضل أن يعمل مخبرا حرا ، يجوس خلال مواقع الأخبار الهامة ، يجمع منها بعض ما يستطيع جمعه ، ثم يقدمه لمن يدفع أكثر ، لتخرج الرسالة الاخبارية ، أو الكتاب بعد ذلك وهى تحمل — كأغلبها — خبرا واحدا فقط ، يكون عنوانه هو عنوانها أيضا .

على أنه أبدى فى بعض الأوقات معرفة كاملة بأدق ما كان يحدث داخل عدد من بيوت الأمراء ورجال الحاشية .. ثم داخل جدران القصر الملكى نفسه ..

البعض يقول أن السبب فى ذلك هو موهبته الصحفية الفذة ، البعض الآخر يقول أن عددا من رجال الحاشية كانوا فى حربهم من أجل المزيد من النفوذ والتقرب من الملكة أو بعض الأميرات كان يقوم « بتسريب » هذه الأخبار اليه حتى يضع منافسيه فى مركز محرج ، أو يساهم فى افساد العلاقة بينه وبين الملكة .. البعض الثالث يقول أن صداقته وعلاقته القوية بهؤلاء كانت هى السبب ، كما لم يعدم الصحفى القديم من يشير الى وجود علاقة حب متينة بينه وبين احدى أميرات القصر الملكى ممن

كن يخالطن الملكة ويصحبنها فى جولاتها ، ويجلسن معها ، بل وتتحدث الملكة اليهن بأدق أسرار حياتها ليحتفظن بها فى قرار مكين .. فقد كان لابد لها من أن تتحدث الى واحدة منهن .. لأنها امرأة أولا .. وقبل أن تكون ملكة ..

المهم أنه ذات صباح ، خرج على الناس فى لندن العاصمة ، كتاب اخبارى يحمل الى القراء ويؤكد أن المرأة الملكة .. أن سيدة العرش الانجليزى .. سليلة المجد والكرم من أسرة تيودور .. قد بدأت قصة غرام جديدة .. وأن بطل القصة هذه المرة ليس انجليزيا ولا هو من رجال البلاط ، ولا من الأسرة الحاكمة كلها ..

وجن جنون الملكة ..

وفكرت كثيرا فى الطريقة التى تواجه بها مثل هذه العين التى ترقبها ، وكيف لها بهذه القصة الوليدة ؟ ولم تمض غير أيام فقط على هذا الحب الجديد .. هل تصدر مرسوما ملكيا يمنع تداول هذه النشرات مرة واحدة ؟.. هل تأمر مثلما أمر غيرها بعدم الكتابة عن أية موضوعات تتصل بالقصر أو الحاشية ؟.. أم هى تفعل مثلما فعل والدها نفسه ، عندما أمر بأن تجمع جميع هذه الأوراق ، ويصب فوقها الزيت وتضرم فيها النيران فورا ؟

وصحيح أنها لم تكن المشكلة العاطفية الأولى التى تواجهها ، ولكنها جاءت فى وقت غير ملائم بالمرة ، كما أن السرعة التى انتشر بها الخبر جعلها تفرر أن تطلب آراء عدد من الأمراء أنفسهم .. وكان هؤلاء قد بلغ الضيق بهم مبلغه ، وأحس كل منهم أن ما كان يبنيه من أحلام ، قد ذهب أدراج الرياح ، لا سيما والكتاب الاخبارى يؤكد أن البطل هذه المرة ليس هو أحدهم ..

وبينما الملكة والأمراء فى شغلهم الشاغل ، وبينما عدد منهم يقرر البحث بنفسه عن جامع الأخبار الذى تجرأ بالتطفل حتى على هوى الملكة ، بينما وضع جميع الأمراء فى موقف لا يحسدون عليه .. مما دفع

التى أن يتحد هؤلاء فى مواجهـة هـذا الغريم الذى يتهددهم جميعا .. بينما يحدث ذلك كله .. اذ بنشرة أخرى « ملحق » تخـرج لتعلن على الناس ، أن هذا الغـريم الجديد للأمراء الانجليز هو أمير فرنسى شاب وأن الملكة قـد التقت به أكثر من مرة .. وأنها خلال اللقـاء الأخير به عرضت عليه صراحة وبدون موارية رغبتها فى الزواج منه .

لم يكن هذا المنشور الجـديد كافيـا لاثارة جميع الأمراء فقط ، ولنسيانهم خصوماتهم السياسية والعاطفية ، بل انه أثار الشعب الانجليزى نفسـه فكثرت المنشـورات التى خـرجت تعارض هذه النزوة الملكية الجـديدة ، وتحدث الجميع بمعارضتها فى كل مكان ، وأصـبحت المعارضة لها هى حديث الساعة .. وكل ساعة .. وخشى الجميع من أن يؤدى هذا الزواج الى كارثة سياسية تحل بالبلاد .. وخـلال أيام قليلة من صدور هذا المنشور ، وتتيجة لكل جهود البحث عن كاتبه ، فقد عرف من هو ، وتحـددت هويته تمـاما .. وأسرع بعض الأمراء الفرنسـان بالقبض عليه .. وانتظر الجميع أن تأمر الملكة بقتله جزاء ما اقترف من جريمة نكراء فى حق هواها ، وقلبهـا ، وفى حق أمراء البيت المـالك ، وكل من كان يمنى نفسـه بالزواج منهـا .. بل وفى حـق الشـعب الانجليزى نفسه ..

ولكن الملكة ــ وكعادتها فى الأوقات العصيبـة ــ تعـود فتتذرع ببعض الحكمة .. وتقـرر أن يكون الحـكم هو قطـع يد هذا المخبر الصحفى فقـط .. حتى لا يعـود هـو أو يعـود غـيره الى فعلتهـا مرة أخرى ..

ترى .. هل كان السبب خشيتها من ثورة شعبية ، بعد أن أصبحت حكايتها مفتضحة وبعد أن وجدت الضحية بعض العطف عليها ، من جانب عدد من أفـراد الشعب الانجليزى ، وبعض النشرات الأخرى !! أم أن الأميرة العاشقة صديقة ونديمة وسميرة الملكة .. هى السبب ؟

(١) Earl of Essex

شارل الأول :

اليومية الكاملة
تروى أبرز أحداث
القرن السابع عشر

شــارل الأول :

اليومية الكاملة تروى

أبرز أحداث القرن ١٧

.. كم كان الصراع عنيفا حقا .. وكم كان متشابكا ومعقدا ..ويضرب فى أكثر من ميدان ، ويتخذ له أكثر من صورة .. ذلك الذى نشب بين ملك انجلترا شارل الأول ، وبين الشعب البريطانى ممثلا فى برلمانه ، وقادته ، وخطبائه .. وصحافته أيضا .

وصحيح أن الصراع يعود الى أكثر من جيل ، قبل ذلك الذى كان شاهدا عليه .. ولكن لم يحدث أن احتدم الصراع فى عهد من العهود .. حتى عهود أسرة « ستيوارت » نفسها بملوكها الذين وصفهم الشــــعب بالاستبداد وأطلق عليهم فى أحوال كثيرة عدة أقوال من مثل الطغــاة ، القساة ، وحتى وصفهم بأعدائه أيضا .. لم يحدث ان احتدم الصراع كما احتدم فى عهد هذا الرجل ..

ويبدو أن الكيل كان قد طفح .. وأن الغليان الشعبى كان قد بلغ أشده ومن سوء حظه أن يحدث ذلك فى عهده هو .. وليس فى عهد ملك آخر غيره ، وأن يبلغ الضيق والتبرم بالأسرة كلها مبلغه على أيامه أيضا .

ولكننا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا أرجعنا ما حدث الى سوء طالع الرجل وحده ، والى أن أيامه كانت أيام نحس على انجلترا كلها .. فمن المؤكد أن هذا السوء قد لازمه أيضا قصر ــ بكسر القاف ــ فى النظر ، وسوء فى التقدير والتدبير والتصرف ، لازمه فى أوقات كثيرة .. ومن هنا،

فانه اذا كان من حقه أن يلعن الظروف « العائلية » ، لبعض الوقت ، وأن يردد مرة قول الشاعر « هذا جناه أبى على » .. فان عليه ــ أقصد كان عليه ــ أن يلعن أيضا سوء تدبيره وتقديره لكل الوقت ، وألا يحاول أن يكمل الشطر الثانى من بيت الشاعر « وما جنيت على أحد » .. فلقد جنى على الكثيرين وكان هو أول من جنى على نفسه ..

ويقولون أن الأسرة كلها ــ أسرة ستيوارت ــ كان قد أورثها أصلها الاسكتلندى حدة وشراهة ، كانت درجتهما تزيد ارتفاعا من ملك الى ملك كما أنهم كانوا من المتعصبين لمذهبهم البروتستنتى حتى أنهم كانوا يقدمون أتباعه على غيرهم ويقلدونهم الوظائف الكبرى فى الدولة .. تماما كما كانت تفعل بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمان أسرة « محمد على » فى مصر .. من تقديمهم للشراكسة على غيرهم خاصة فى وظائف الحربية أو الجندية .. وما اليهما ..

وزاد من حدة الصراع ، وحساسية المواقف المتأزمة أصلا أن الرجل بالغ فى تقديم هؤلاء كما زاد من مخصصات الأسرة المالكة المالية ، ويقال أنه انتزع عددا من القصور الريفية ، وأعطاها لهؤلاء .. ثم أوقع نفسه فى سلسلة من المنازعات مع البرلمان نفسه حول عدد من المسائل المالية والسياسية .. حتى زاد الطين بلة عندما أقدم على ما عبر عنه أحد أعضاء البرلمان الانجليزى نفسه قائلا : « لقد طعن الانجليزيات فى الصميم عندما أدار لهن ظهره .. واتجه الى الفرنسيات » يقصد بذلك عندما أقدم على الزواج من « هنريتا » أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ولو ان هذا الزواج كان فى جانب منه « زواجا سياسيا » .. ولم يكن ذلك بمستغرب فى هذه الأوقات .. الا أنه أعطى لملك فرنسا بعض الحق فى التدخل فى شئون دولته ..

وهكذا احتدم الصراع كما لم يحتدم من قبل ، بعد أن دخل البرلمان نفسه حلبته . وتبعته الصحافة .. تلك التى كانت أشد منه قسوة ، وأقوى

هجوما على الملك .. حتى أنها راحت تفجر القضايا الملكية قضية فى اثر أخرى .. بل الحق يقال ، أن الصحافة قد شجعت البرلمان نفسه على مناقشة عدد من الأمور التى طرحتها على صفحاتها فى مواجهة الملك ، وأسرته وتاريخها ، أو على حد قول الصحفى « نيدهام » .. فى مواجهة ذلك الثعلب الضال الذى لا يريد من الشعب أن يحاسبه ..

بل ان هذه القضية نفسها ــ محاسبة الملك على أفعاله ــ تفجرت كما لم تنفجر من قبل .. وطرحت على الملأ تلك الفكرة التى كانت تدين بها أسرة ستيوارت كلها والتى تتمثل ــ فى رأيها ــ أن صاحب العرش يستمد حقه وسلطانه من قوة الهية .. أو من قداسة سماوية لا ينبغى أن تعترض أو تقاوم .. وأن حق الملك من حق الله ، وأنه يمثله على الأرض .. وأنه لا حق للامة ، أو لأفراد الشعب العاديين فى محاسبته ، أو حتى مراجعته ..

ثارت هذه الأمور كلها على صفحات الجرائد الانجليزية ، وتناولتها أقلام عدد كبير من الكتاب .. وصحيح أن شارل تمكن من كبح جماح بعضها ، ولكن الأمر كان قد سبقه الى البرلمان نفسه ، حيث بدأ عدد من أعضائه يعزفون نفس الأنغام الثائرة .. لتتضاعف الاصوات المعارضة ، وليعلو الضجيج هنا وهناك .. فلا يجد الملك أمامه بدا من تعطيل البرلمان .. الذى كان أعضاؤه يجمعون صفوفهم لاعلان الحرب على الملك .. مما سيتناوله مقال آخر باذن الله ..

عطل شارل البرلمان ، فما الذى يفعله مع الصحافة ؟..

لقد قام باحصاء عدد الصحف التى تهاجمه ، فوجد أنها تزيد على أربعين صحيفة .. بينما لا تقف فى صفه صحيفة واحدة ..

جرب أولا فكرة شراء بعض الصحف لحسابه الخاص .. فرفض أصحابها .

وجرب ثانية فكرة شراء بعض الصحفيين فرفض مجموعهم ..

وأخيرا.... وبعد مجهود عنيف من الملكيين عامة ، ومنه خاصة ، نجح فى العثور على صحفى واحد بذل له مالا كبيرا حتى يقوم باصدار صحيفة تدافع عن الملك والملكية والقصر والحاشية والأمراء .. وتاريخ الأسرة كلها .. وفعلا صدرت صحيفة « ميركوريوس أوليكوس »[1] .. التى كانت تمثل منشورا اخباريا ملكيا جاء فى افتتاحية العدد الأول منه قول محرره :

« لقد امتلأت الدنيا بالأكاذيب ، وفى كل أسبوع تصدر أكذوبه جديدة لخداع الناس الذين يدفعون من مالهم ثمن هذا الخداع .. ولكن القصر لا ينقصه الذكاء أو الفطنة ولا تعوزه العبقرية ، كما أن الحالة ليست على هذه الدرجة من السوء الذى تتحدث عنه هذه الصحف المخادعة .. لذلك فقد وجدنا أنه من الضرورى اطلاع الناس على حقيقة الأمور حتى لا تخدعهم الأباطيل .. وسوف نبدأ بنشر الحقائق فى هذا الكتاب الاخبارى »[2] .

ولكن .. على الرغم من الأموال الكثيرة التى جعلها الملك فى خدمة هذه النشرة ، وعلى الرغم من أنه اختار لها عددا من كبار كتاب ومحررى هذه الفترة على رأسهم الصحفى الانجليزى الشهير « جون بيركنهيد »[3] الا أن حجة الشعب والبرلمانيين كانت أقوى .. وصحفهم كانت أكثر سيطرة ومن هنا فقد فكر شارل الأول فى اجراء آخر .. أو على حد تعبير محمود سمهان : « أحس شارل خطورة ما فعل ــ تعطيل البرلمان ــ فرأى أن الأفواه يجب أن تكم .. ولكن هناك قوما يحترفون التطفل على كل شىء ويضعون أنوفهم فى كل شىء .. أولئك هم الصحفيون الذين استعاضوا عن الألسنة فى الأفواه بالاقلام فى الايدى ، اذن فمادامت الافواه يجب أن تكم .. كذلك الاقلام يجب أن تحطم »[4] .

.. وجلس شارل يتحين الفرص للانقضاض على غريمته .. خاصة بعد أن تحول عدد من أعضاء البرلمان نفسه الى صحفيين وكتاب ، يكتبون على الورق ، ما تسبب تعطيل البرلمان فى ايقاف التحدث به من على منبره.. وفى قاعاته .. وبينما كان البرلمانيون يدربون جيوشهم لحرب الملك وأعوانه .. اذ جاء سفير أسبانيا يشكو اليه أحد الصحفيين الذين تعرضوا لبلده وله شخصيا بما ينال من كرامتهما..أحس شارل أن الفرصة قدجاءته حتى قدميه ، أو هى قد هبطت عليه من السماء .. فأسرع هو بالقبض عليها .. وأصدر قرارا ملكيا بتحريم صدور شيء اسمه الصحف .. وهكذا ظن شارل ، أنه استراح من شر غريمته اللدود .

وبعد مناوشات عديدة بين الملكيين والبرلمانيين أحرز فيها الأخيرون بعض الانتصارات الصغيرة بدأ شارل يغير من أسلوبه ، فأعاد البرلمان وسمح لعدد من الصحفيين بالعودة الى نشاطهم بعد تنفيذ عدة شروط كان فى مقدمتها عدم نشر شيء من أنباء البلاد الداخلية ، أو أنباء الأسرة المالكة أو الأمراء أو الاميرات .. كما اشترط على الصحف التى تريد أن تصدر دفع ضريبة سنوية قدرها عشرة جنيهات انجليزية ..

ولكن على الرغم من ذلك كله فان أكثرية الصحفيين الانجليز رفضت العودة الى اصدار صحفها أو كتبها الاخبارية ، ونشراتها الأسبوعية ، حيث أحسوا أن فى تلك الشروط اجحافا بهم ، والحاقا للضرر بالمهنة ذاتها .. وذلك باستثناء صحفيين هما « نيقولا بورن وناتانيل بيتر » حيث شجعهما الملك نفسه على اعادة اصدار صحيفتيهما ..

وحتى البرلمان نفسه ، عادت المناوشات بينه وبين الملك ، وسرعان ما بدأ الهجوم يشتد عندما أدرك هؤلاء أن الملك يريد فقط أن يحنى رأسه للعاصفة ، وأنه يتحين الفرص لضرب جميع معارضيه ، ضربة لا قيام لهم بعدها .. فالتف هؤلاء حول « كرومويل » مرة أخرى .. حيث عاد الفريقان

الى الاحتكام الى السيف ، ونشبت الحرب الأهليــة تلك التى انتهزت الصحف فرصتها فعادت الى الصدور مرة أخرى .. وهى أصلب عودا ، وأشد ضجيجا ، وأكثر جرأة .

.. وبينما كانت رحى الحــرب تدور ، وتلقى بأثقالها عــلى رؤوس الملكيين .. وبينمــا كان البــرلمانيون ينتقلون من نصر الى نصر .. كانت الصحف تصف معارك هؤلاء ، وتشد أزرهم ، حتى اذا انتهت الحــرب وألحق « كروموبل » بالملكيين هزيمة نهائية .. وقبض على الملك نفســه ـ رأس الأفعى ـ .. ورأى المعارضون أن يحاكموه .. وحكموا بادانته واعدامه .. فى ٣٠ يناير عام ١٦٤٩ .. خرجت على الناس صحيفة « اليومية الكاملة » لتروى قصة اعدام الملك .. تلك التى كانت من أبرز أحــداث القرن .. ان لم تكن أبرزها على الاطلاق تقول الصحيفة :

« فى هذا اليوم أعدم الملك شنقا فى مكان مواجه لقصر الاحتفالات عند هوايتهول .. وفيما يلى وصف لتنفيذ الاعدام وما سبق التنفيذ :

أحضر الملك من سنت جيمس حوالى العاشرة صباحا ، فجاء سائرا على قدميه خــلال حديقة القصر ، تحف به فرقة من الحرس المشــاة ، وقد شهرت أعلامها وأخذت تدق طبولها أما الحرس الخاص للملك فقد كان يسير أمامه بينما خلفه جمع من أصدقائه حاسرى الرؤوس وكان فى معيه الملك أيضا الدكتور جاكسون أسقف لندن والكولونيل توملنسن حارسه وهكذا مضى الموكب حتى وصل الى القاعة الكبرى فى هوايتهول ومنها الى حجرة الملك الخاصة التى كان يتعبد فيها .. وهناك أدى فريضة الصلاة ورفض تناول أى طعام . خاصة وأنه قد أخذ المناولة المقدسة .

ومضى الموكب بعد ذلك الى المكان الفسيح الذى نصبت فيه المشنقة ، وكانت متشحة بالسواد وتتوسطها بلطة وصخرة ، وهنا تجمع رجال المشاة والفرسان حول المشنقة ومن حولهم جمع غفير من المشاهدين الذين أتوا لرؤية تنفيذ الاعدام ..

واتجه الملك الى المشنقة .. وسأل الكولونيل هاكر عما اذا كانت هناك صخرة أكثر ارتفاعا .. ثم تحدث الى رجال المشنقة وخلع معطفه ورداءه ، وانحنى ليضع رقبته فوق الصخرة ، وبعد برهة مد كفيه وأهوى الجلاد بالبلطة فوق رقبته ففصلها عن جسده ..

ثم وضع جثمان الملك فى صندوق مغلف بالقطيفة السوداء .. ونقل الى حجرته فى هوايتهول » (٥) .

ترى هل كانت الصحافة هى السبب ؟

أم كان من حوله

أم كان هو نفسه الذى جنى على نفسه ..

بتصرفاته وتسرعه وقلة حكمته ..

فقضى على نفسه .. بسلاح الصحافة ؟!

---

(١) Mercurius Aulicus

(٢) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٣٩ .

(٣) Sir John Birkenhead

(٤) محمود سمهان : « الصحافة » ص : ٤٣ .

(٥) ابراهيم امام : « تطور الصحافة الانجليزية » ص : ٣٧ .

جون أدامز :

هل يعود الرئيس
الى قصره عاريا .. ؟

جون آدامز :

هل يعـود الرئيس الى قصره عاريا ؟

لا أعتقد أن أحـدا من الرؤساء الأمريكيين قـد قاسى من صحف بلاده ، ومن صحفييها ، قـدر ما قاساه ذلك الرجل الذى كان الرئيس الثانى للولايات المتحدة بعد جورج واشنطن .

ولو كان الرجل ديكتاتورا..أو حاكما قويا متسلطا..أو حتى رئيس قبيلة بدائية وفعـل به الصحفيون ما فعلوه .. لأمر بالقـائهم جميعا فى معتقلاته .. أو أمر بجلدهم عن بكرة أبيهم أو ــ على الأقـل ــ حكم بنفيهم وابعـادهم عن ديار القبيـلة ومنازلهـا الى تيه الصحـراء ، أو وحوش الغابة ..

ولكن الرجل ــ الرئيس الأمريكى جون آدامز ــ لم يفعل شيئا من ذلك كله .. وانما كان يكتفى باستخدام القدر الذى يتاح له من السلطات المعقـولة ، بل كان يحـاول التخفيف منها دائمـا .. وذلك باستثناء « قانون الخيانة » الذى صدر فى عهده ، كرد رسمى على شطط الصحافة والصحفيين وهو القانون الذى يقضى بسجن أى صحفى أمريكى يعرض كذبا بالحكومة الاتحـادية أو أحـد أعضائها أو بالكونجرس .. يقضى بسـجن هذا الصحفـى مدة لا تزيد على سـنتين ، وبغـرامة لا تزيد على ألفى دولار ..

وعلى الرغم من أن هذا القانون كان أقل بكثير من عـــدد من تلك القوانين الجائرة التى صدرت بعد ذلك فى عدد من دول العالم .. وعلى الرغم من أن « قانون الخيـــانة » لم يطبق ـ بحذافيره ـ ولم يحدث أن طبق الا على عدد قليل من الصحفيين ، وحتى الصحفيين الذين قبض عليهم على أثر صدوره ـ ٢٥ صحفيا ـ سرعان ما أفرج عن أكثرهم ، وبموافقته هو شخصيا .. على الرغم من ذلك كله ، فان « لعنة » هذا القانون ظلت تطارده منـذ أيام حكمه ١٧٩٧ ـ ١٨٠١ وبعد وفاته .. وحتى اليوم .. بل ان عـــددا كبيرا من المؤرخين يربط بين سقوط هذا الرئيس الأمريكى نفســه وسقوط حكم الاتحـــاديين كله .. وبين هذا القانون أيضا .. بينما يقول المعتدلون أن هذا القانون كان بمثابة قبول من رئيس الولايات المتحـــدة الأمريكية للتحدى الصحفى فالصحفيون كانوا دائما يلقون بالقفاز فى وجهـــه ، بينما هو يدير لهم ظهره ، ويبدو وكأنه لا يرى ، ولا يقرأ ، ولا يسمع ما يدور من همهماتهم ، وصراخهم فوق الصفحات حتى كاد الرجل أن يضع أصابعه فى الشبق ، وكما نقول نحن ، من كثرة الاتهامات والحملات الهجومية .. حتى قيل أنه لا يوجد صحفى أمريكى لم يهاجم الرئيس جون آدامز ، وقيل أيضا ، ان الهجوم عليه كان يمثل زيا موســـميا ارتداه جميع الصحفيين بدون استثناء .. وحتى القلة التى كانت تبدو مؤيدة له ، كانت تعود الى ارتدائه بمجرد أن تحين الفرصة ..

والواقع أن قانون الخيـــانة ، وفى هذه الظروف كلها ، لم يكن من المنتظر أن يخفف من غلواء الحمـــلة على الرجل ، أو يحـــد من شطط الصحافة والصحفيين ، بل ان العكس هو الصحيح ، لقد فهم الصحفيون أن الرجل قد قبل التحدى ، وأنه بدوره سيرد الصاع صاعين .

والحق ـ كذلك ـ أن الصحفيين كانوا من الذكاء بحيث تمكنوا من السيطرة على ميدان المعركة ، وأكثر من ذلك ، فقد تمكنوا من فتح

عدة جبهات جديدة ما لبثت هي الأخرى أن فتحت النار الكلامية الهجومية على الرئيس ، وكان من أبرزها جبهة المعارضة في الكونجرس ، والتي نجحت الصحافة في استمالتها الى جانبها ، حتى لم تعد تعرف أيها الصحافة ، وأيها المعارضة ، بل تحول عدد من أعضاء الكونجرس الى كتاب منتظمين يتعقبون تصرفات الرئيس وحكومته ، بالاضافة الى عدد من الصحفيين الذين كانوا من أعضاء الكونجرس نفسه وفي مقدمتهم « ماثيوليون » الذي حمل حملة شعواء على الحكومة في شكل خطابات مفتوحة تنقد أعمالها وتفضح الأساليب التي تتبعها ، حتى لم تجد الحكومة نفسها مناصا من طلب اسقاط حماية الكونجرس عنه ومحاكمته ، وسجنه .. ولكن حتى السجن لم يوقف الرجل عن الكتابة .. فاستمر يكتب خطاباته التي كانت تتسلل من خلف الجدران بطريقة أو بأخرى لتصل الى أكثر من صحيفة أمريكية .. وبلغت دراما الصراع ذروتها عندما نشر « د . توماس كوبر » مقالة ينتقد فيه قانون الخيانة .. وخلص في نهايتها الى أن الرجل الذي أصدر هذا القانون ــ الرئيس ــ قد أكد باصداره له أنه غير كفء لتولى منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ..

وبسرعة ، تحركت السلطات ، وقبض على الرجل وقدم الى المحاكمة .. حيث طلب وهو يدافع عن نفسه أن تأمر المحكمة باحضار الرئيس أمامها ، لكي يثبت لهم بالأدلة القاطعة .. عجزه كرئيس ، وعدم جدارته بأن يكون رئيسا لهذه الدولة الفتية .. مما يؤكد ــ من وجهة نظره ــ كل كلمة جاءت في مقالته التي قبض عليه بسببها ويحاكم الآن من أجلها ..

وصحيح أن المحكمة رفضت استدعاء الرئيس ليمثل أمامها ، وحكمت بالسجن على كاتب المقالة .. الا أن المعركة لم تتوقف بين الصحافة والرئيس .

على أن هذه الحرب التى دارت بين الصحافة من جانب ، والرئيس جون آدامز من جانب آخر لا ينبغى أن تنسينا أنه كانت له عدة لفتات انسانية تتصل بالصحافة والصحفيين . فقد كان يرسل أحيانا طبيبه الخاص لعلاج صحفى مريض ، كما كان يدعو الصحفيين أحيانا الى جولاته بأنحاء البلاد ، ولم يعارض فى دخولهم الكونجرس ، كما لم يعرف عنه أنه عارض فى اصدار صحف جديدة الا مرات تعد على أصابع اليد الواحدة وهى أمور — جميعها — تحسب له لا عليه ..

كذلك فقد حفل عهده بعدد من الطرائف التى كانت تحدث بينه وبين الصحفيين والصحفيات أيضا ، خاصة عندما كانت حالات الشد والارخاء ، والانتظار والترقب والكر والفر تعمل عملها ..

ولكن أكثر هذه الأحداث طرافة على الاطلاق ما حدث بينه وبين احدى الصحفيات الرائدات ، وكن قليلات جدا فى حقل الصحافة .. بل كانت تواجههن مشكلات عديدة لا يقدرون على حلها .. وكانت المشكلات تتضاعف اذا لم تكن الصحفية تملك المال اللازم الذى يعينها على مداومة الاصدار ، والاستمرار فى حلبة السباق بينها وبين غيرها ، أو بين صحيفتها ومجلتها وبين غيرها من الصحف والمجلات .. ناهيك عن متطلبات التجديد ، والمصروفات الأخرى المتصلة بعمليات البقاء ذاتها ..

المهم .. أنه ذات صباح من عام ١٨٠١ — وقبل انتهاء فترة رئاسته بأسابيع قليلة — فوجىء « الديانة » بأن الصحفية « آن رويال » تطرق أبوابهم .. وتسدد لهم جميعا ديونها .. لصاحبة الشقة الصغيرة المتواضعة التى كانت تستأجرها ، ولصاحب مصنع الحبر الذى لم تدفع له منذ ما يزيد عن نصف عام ولفابريقة الورق التى يملكها أحد الأثرياء ..

بل وأكثر من ذلك ، فوجىء الرجل بالصحفية نفسها ، صاحبة ورئيسة تحرير والمحررة الوحيدة لمجلة « بول براى » المتواضعة

المستوى ، الرديئة الورق والطباعة والتحرير أيضا .. فوجىء الرجل بها وهى تسأله أن يؤجر لها الشقة الكبيرة التى تعلو متجره ، أو أية شقة كبيرة أخـرى يملكها فى أنحاء المـدينة ، كما طالبته بأن يتوسط لها فى الحصول على مطبعة أخرى ..

ولم يصدق الرجل فى البداية كلام الصحفية التى كانت منذ لحظات مدينة له بمبلغ كبير من المـال ، بل واعتقد أنها تسخر منه ، على عادة بعض مسددي الديون .. ولكنه أراد أن يمضى معها فى الشـوط حتى النهاية .. بدافع من فضول التاجر الثرى ، وبتأثر بكلام زبونة قديمة ..

والواقع أن الصحفيـة « آن رويال » لم تكن تسـخر من أى من دائنيها .. بل كانت قد قررت فى حذق ومهارة أن تستغل الفرصـة التى أتاحها لها ذكاؤها ، ليس للخروج من ورطتها المالية فقط ، وانما لتغيير أسلوب حياتها وعملها تغييرا كاملا .. وكان عندها حق فى ذلك ، فالفرص قلما تتاح ، وقد لا تتكرر أيضا ..

كانت « آن رويال » تصـدر مجـلة « بول براى » فى واشنطن عام ١٨٠١ فى نهاية عهد رئاسة « جون آدامز » .. ولأنها كانت فقيرة فقد كانت تصدر المجلة من شقتها المتواضعة التى حولت مطبخها الى مطبعة تتمثل فى آلة قديمة من طراز عفا عليه الدهر ، ويذكر بمطبعة جوتنبرج الأولى نفسها .. بينما لم تكن ظروفها المادية تسمح لها بتشغيل أكثر من عامل طباعة واحد .. كان يقوم بجميع أعمال المطبعة بدءا بنظافة المكان والآلة وتزييت المسامير والتروس وحتى عمليـات القص والتدبيس ، وعندما بدأ الاجهـاد يتسلل الى هذا العـامل الوحيد بحثت آن عن مساعد له ولكنها فشلت فى العثور على مساعد مطبعجى يوافـق على العمل نظير اليومية ـ الأجـر ـ المتواضعة التى كانت تعرضها .. حتى جاءتها نجدة من السماء فى صـورة اقتراح من صديقة بأن تتبنى لقيطا أو أكثر من أحد الملاجىء ـ وهى كثيرة ـ ليقوم بالعمل بعد أن يشرف

عاملها على تدريبه .. وهكذا حصلت آن على لقيطين لا لقيط واحد .. واستمر العمل بتقطيع الأنفاس وتراكمت الديون عليها .. وأصبحت هي ومجلتها في حاجة الى معجزة ..

نعم .. كان لابد من معجـزة .. كان لابد من عمـل كبير ومثير .. من ضربة معلم تنقذها وتنقذ مجلتها من التوقف .. من السقوط ..

وفكرت آن .. وفكرت كثيرا في نوع هذا العمـل الذى ينبغى أن تقوم به ، وكأساس ألقت وراء ظهرها فكرة الاعلان عن بيع الصحيفة ، أو اشهار افلاسها ، أو بيع رخصـة اصـدارها ، بل لم تسمح لنفسها ــ مطلقا ــ بمجرد التفكير في مثل هذه الحلول السلبية .. وهى تبحث عن الحل ، راودتها فكرة طلب معونة بعض أعضـاء الكونجرس ، ثم خطرت لها فكرة طلب المعونة من الرئيس الأمريكى نفسه .. ولماذا لا ؟.. وبينما هى تفكر في طريقة ذلك ، بدأت أفكار أخرى تراودها .. صحفية هذه المرة .. أو تتصل بأعمال وخبطات صحفية .. فلماذا لا تبدأ بالرئيس نفسه .. باجـراء حديث هام معه يكسر حالة العقـم والجمود الصحفى الذى تعيشه مجلتها ..

وعنـدما يتحدث الرئيس .. فمن الطبيعى أن الصحف والمجـلات الأخرى سوف تنقل عنها حديثه .. وهذا وحـده يعتبر كافيـا للخروج بالمجلة ومحررتها الوحيدة وبعامل طباعتها وبلقيطيها الى دائرة الضوء .. بالاضافة الى أنها في حالة نجاحها في مقابلة الرئيس والحصول على حديث صحفى خاص منه .. فما أسهل مقابلة أى شخص آخر .. ما أسهل تكوين المصادر الكبرى التى ستمثل عندئذ رصيدا صحفيا ضخما لها ولمجلتها ..

خلال ساعات قليلة كانت فكرة مقابلة الرئيس والحصول على حديث منه قد استولت عليها تماما .. وأخذت الفكرة تلح على ذهنها وتسيطر على حركاتها وسكناتها .. حتى وجدت نفسها أسيرة لها ..

وبدأت آن تتحرك تحركا ايجابيا وفعالا من أجل الاقتراب خطوة أو خطوتين من الرئيس الأمريكى .. أصبح شغلها الشاغل أن تتابع أخباره فى الصحف الزميلة .. بل لقد ذهبت الى قرب منزله أكثر من مرة ، ودرست الطرق المؤدية اليه ، وجلست ذات مرة بالقرب من حديقته ، حتى أبعدها الحراس الذين درست مواعيد حضورهم وانصرافهم بدقة بل لقد شاهدته مرة وهو يتجه نحو الحديقة ، ويغيب فترة ثم يعود وحيدا .. بينما علمت من مصادرها الخاصة ، ومن احدى الصديقات وهى زوجة لأحد الحراس أن الرئيس كثيرا ما يتكرر تجواله بحديقة القصر وحده .. بل انه يذهب أيضا الى احدى البحيرات الصغيرة بدون حرس على الاطلاق .. وهناك يقضى أكثر أوقاته متعة فى ممارسة السباحة التى يفضلها ..

وذات صباح قررت آن أن تضرب ضربتها .. تركت شقتها ومطبعتها واسرعت الى منزل الرئيس ، انتظرت طويلا خلف جذع شجرة كبيرة ، تابعت الرئيس وهو يخرج وينطلق الى ممارسة هوايته ..

ما كاد الرئيس الأمريكى « جون آدامز » يخلع ملابسه ويلقى بنفسه فى مياه البحيرة الزرقاء .. وتبدأ ضرباته تشق صفحتها الهادئة .. حتى سمع صوتا يدعوه « ياسيادة الرئيس » .. لم يصدق الرجل لأول مرة ، ولكن النداء يتكرر « ياسيادة الرئيس » .. نظر الرئيس خلفه .. فاذا بسيدة تجلس فوق ملابسه كمن يحتجزها عنه .. وتدعوه .. أذهلته المفاجأة حتى أنه فكر فى الخروج من المياه .. وهم فعلا بالخروج منها .. ولكنه تذكر أنه عارى الجسد الا من لباسه الذى يستره فعاد .. وتذرع بالحكمة وقرر الاستماع الى شكواها .. انها حتما تريد معونة مالية أو تخفيف الضريبة المقررة عليها ، أو تخفيف حكم السجن على زوجها أو قريب لها .. ولكن المفاجأة الكبرى كانت عندما علم الرئيس أنها تريد حديثا صحفيا !!

حاول الرجل أن يناور .. أن يضرب لها موعدا بقصره أو مكتبه .. وعرض أن يذهب بنفسه حتى صحيفتها .. ولكن مع اصرار آن على الحصول على الحديث منه وهو على هذه الحالة .. ومع تهديدها بحمل الملابس والمضى بها .. ومع تفكيره فى صورته وهو يعود الى المنزل أمام حرسه وموظفيه وأفراد عائلته .. مع تفكير الرئيس فى كل ذلك .. اضطر — مرغما — أن يجيب على جميع أسئلة آن .. حتى الأسئلة الخاصة جدا ..

آسرعت آن الى شقتها ومطبعتها وجلست بنفسها تجمع حروف الحديث ، حتى يحضر عاملها ، وبعد أقل من يوم كانت المجلة تحمل تفاصيل المقابلة الى القراء .. بكل دقائقها حيث أثارت ضجة كبرى ، خاصة عندما أيد الرئيس ما جاء بها .. فاضطرت الى اعادة طبع العدد أكثر من مرة .. حتى فاق ما وزع منه ، ما وزع من جميع الأعداد السابقة .. كما حققت آن ربحا ضخما وفوريا من عشرات من الصحف الأخرى التى نقلت الحديث عنها .. وكان أغرب ما فيه قصة المقابلة نفسها ..

ترى .. هل منكم من يستطيع .. أو تستطيع أن تكررها .. فى أى مكان . أم أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولا يمكن أن يعيد نفسه هذه المرة ؟!

نعود — مرة أخرى — الى قصة الرئيس الأمريكى جون أدمز مع صحافة بلاده .

ان الحال لم يدم كذلك للصحافة الأمريكية طويلا فى عهد ذلك الرجل فقد استمرأت الثورة عليه .. ولم تعد يهمها فى شىء قوانينه الجائرة .. وعلى وجه الخصوص قانون الخيانة ، لا سيما مادته التى تطالب بحذف

ما يتعرض بالمـدح أو القـدح لقـوانين الولايات المختلفة ، أو للمحاكم الفيدرالية .. ولقوانين الصحافة نفسها كما لم يعد يهم الصحفى فى شىء ، تلك المحاكمات العديدة التى سجن بسببها العشرات من زملاء المهنة .. وما يزال الآخرون ينتظرون السجن .. أو المحاكمة ..

على أن ذلك لم يدم أيضـا الى وقت طويل ٠٠ فقد كانت هناك فترة سياسية أخـرى أكثر انتعاشا ٠٠ وطمانينة وأمنا للصحافة والصحفيين ٠٠ تتحدث عنها السطور القادمة ٠

توماس جيفرسون :

حكومة بدون صحف
أم صحف بدون حكومة ؟

توماس جيفرسون :

حكومة بدون صحف
أم صحف بدون حكومة ؟

كالجياد الجامحة .. انطلقت الصحف فى أواخر عهد الرئيس جون آدامز ..

وكان من الواضح أنه لا قانون الخيانة ، ولا المحاكمات العديدة .. يستطيعان ايقاف انطلاق هذه الجياد الصحفية .. التى كانت فى حاجة الى سائس قوى .. خبير ، أو الى أحد هؤلاء الذين يحسنون ترويضها .. تماما كما يحدث فى أفلام رعاة البقر ، أو هؤلاء الذين ينطلقون خلف الجياد البرية .. فاذا أطبقوا عليها قاموا بتوجيهها صوب مزارعهم الشاسعة .. حيث تبدأ عملية السيطرة عليها .. ويالها من عملية شاقة خاصة عندما يحس الجواد البرى .. أنه الأقوى .. وأنه المنتصر ، على الأقل ، طالما أن ترويضه لم يبدأ بعد .

ويبدو أن حاكم فرجينيا القوى ، المتعدد المواهب ، المكون من عدة رجال ، الخبير أيضا بترويض الجياد البرية ، والسيطرة على الجياد الجامحة .. يبدو أنه كان على موعد مع هذه الجياد الصحفية .. ليجرب معها ما دل على ذكاء قدير ، وحكمة خبير .

لقد رأى الرجل — توماس جيفرسون — بحصافته أن يتحسس فى البداية أسباب هذا الجموح ، غير العادى ، وما يلازمه من ضراوة

ووحشية ، تمثلت فى مهاجمة الصحافة الأمريكية لكل شيء ، حتى هو نفسه ، بل ان هذه الضراوة بلغت أشدها أثناء المعركة الانتخابية ، حيث اتهمته هذه الصحف بكل ما يعيب ، حتى تهمة الالحـاد نفسها ، أقذع الاتهامات وأقواها .. حيث كتب صحفي يقول : « اذا انتخب الكافـر جيفرسون للرئاسة فان حكم الاعـدام سيكون من نصيب ديننا المقدس وستنهب كنائسنا » (١) .

أقول .. غفر الرجل للصحـافة ذلك كله .. بل غفـر أيضا لصحيفة « المسجل » دأبها على نشر القصص التى تتناول حياته الخاصة ، والتى كان أغلبها مختلقا ، ولا يقصـد به سوى التشهير .. وبدأ وهو المهندس وعـالم الزراعـة والكاتب والمحـامى والرياضى والمخترع والموسـيقى واللغوى .. بدأ يبحث عن أسباب هذا الجمـوح ، وعن العـوامل التى تختفى وراء هذه القسوة الصحفية ..

ذلك أنه كان يؤمن فى قرارة نفسه بما يمكن أن يقدمه هذا الجواد ، اذا أحسن ترويضه ، وأحسنت سياسته .. عندما يصبح أفضل ما يملكه الأمريكى عامة والفرجينى خاصة .. ويكون اعتماده كله عليه ..

ولم يكن مؤلف وثيقـة اعـلان الاستقلال الأمريكى فى حاجة الى استخدام نصف أو ربع ذكائه لكى يعـلم أن سلفه (جون آدامز) لم يحسن التعامل مع الصحافة والصحفيين ، وبذلك نال المزيد من أحقادهم .. وحملت عليه وعلى ادارته حتى بعد وفاته .. وأن الأسباب كلها تكمن فى شيئين أولهما الغـاء « قانون الخيـانة » بمواده كلها .. وثانيهما ، التحول الى صفحة جـديدة ، بيضـاء ، نقية ، قوامها اعطاء الصـحافة كامل حريتها ..

وسبحان مغير الأحوال !

رجل تبدأ الصحافة تهاجمه ، حتى قبل انتخابه لأول مرة ، ثم تمضى فى الهجـوم عليه حتي دفعته الى أن يقول ذات مرة ، وبالحرف الواحد

وكما جاء فى أوراقه : « لم يعد أحد يستطيع أن يصدق شيئا يراه فى أية صحيفة .. ان الحقيقة ذاتها تصبح مهددة ومحل ارتياب عندما توضع فى تلك الأداة الفاسدة لنقل الأفكار » .. وبعد ذلك بعدة شهور فقط ، يقف الرجل ، وقد عرف الداء ، ليطلب من الكونجرس تقديم الدواء فورا .. ألا وهو الموافقة الكاملة على ابطال العمل بقانون الخيانة .. بل انه لم ينتظر اتمام المناقشات التى احتدمت حول هذا الموضوع ، لا سيما وأن بعض الأعضاء كانوا ممن أصابتهم الصحافة بسهامها أو من موتورى الصحف طويلة اللسان .. وانما أصدر بما تتيحه له سلطاته قرارا رئاسيا يتضمن العفو الشامل عن كل من صدرت ضده تهمة يتضمنها « قانون الخيانة » .

وأما عن حرية الصحافة ، فقد أدرك الرجل أنها والحقيقة التى يبحث الجميع عنها وجهان لعملة واحدة .. وأنه من الخير له ، وللدولة الناشئة أن تكون صحافتها حرة تماما .. ومن هنا ، فقد راح يعمل على تدعيم كل ما يتصل بهذه الحرية ، بل راح يتناولها فى مناقشاته وجلساته ويحاول قدر جهده أن يجعلها سيدة الموقف ، كما أدرك بحصافته أن هذه الحرية سيكون لها فعل السحر فى مجتمع جديد ، ينمو ، ويتكون ومن السهولة بمكان أن تتسلل اليها المشكلات وأن يندس بين صفوفه العاملة الكاذبون والأفاقون والمرتشون ، وأن يعرقل ذلك البناء الكبير الذى يعلو فى كل مكان ..

وكلما كانت الأيام تتقدم بالرجل ، وتمضى بالولايات المتحدة الأمريكية ، كان ايمانه بهذه الحرية يزداد .. حتى أنه أرجع اليها جميع الانتصارات السياسية التى تحققت فى عهده ، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك كله على موقفه من الصحافة ، وموقفها منه ، تلك التى رأى أن يقدمها حتى على حكومته أو ادارته نفسها .. بل تعددت أقواله

التى تتناول أو تشير الى هذه العــلامات المضيئة على طريق الصحافة ، وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر .. جميع هذه الأقوال :

* « الوسيلة لمنع الأوضاع المتضاربة غير المنتظمة للشعب هى أن تمده بالاعلام الكامل عن شئونه بواسطة الصحف الشعبية » (٢) .

* « لما كان أساس حكومتنا هو رأى الشعب فان أول هدف يجب أن يكون هــو جعــل هذا الرأى صحيحــا .. ولن يكون ذلك بغــير صحافة حرة » (٣) .

* « ان الضمــان الوحيد لنا جميعــا .. انما يكمن فى وجــود صحافة حرة » (٤) .

* « حيثما كانت الصحافة حرة .. وكل انسان قادرا على القراءة ، فكل شىء فى أمان » (٥) .

* « الصحافة خير أداة لتنوير عقل الانسان ولتقدمه ككائن عاقل أخلاقى واجتماعى » (٦) .

وأخيرا .. فان من أشهر أقــواله تلك التى قالهــا وهم يطلبون منه ترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية للمرة الثالثة ، ورفض ذلك وفضل اعطاء الفرصة لغيره « اذا خيرت بين أن تكون لنا حكومة بدون صحف أو صحف بدون حكومة فانى لا أتردد لحظة فى تفضيــل الحالة الأخيرة » (٧) .

ألا يستحق الرجل تمثالا صغيرا .. فى قلب كل صحفى ؟!

ألا .. ما أبعد المسافة بين عهدين .

عهد جون آدمز بقانون خيانته ومحاكماته وسجونه .

وعيات . جيفرسون بكل ما أحاط به من احترام وتقــدير للسلطة الرابعة يفسران هما جميع تصرفاته الصحفية ..

بل أكثر من ذلك .. يؤكد عهد هذا الرجل ، أو تؤكد الفترات التى تولى خلالها رئاســة الولايات المتحدة الأمريكية .. أن الحاكم القــوى المتمكن الواثق من نفســه ومن قدرته ومن حكمته .. المتأكد من سلامة قراراته .. أن هذا الحــاكم لا يمكن ــ بحال من الأحوال ــ أن يقف فى مواجهة الصحافة ، أو أن يدير ظهره لها .. أو أن يحاول كسر الأقلام وتكميم الأفواه .. بل انه يتجه اليها لتمارس مهامها فى دعم ديموقراطيته .. وأصالة حكمه وحتى عندما تنتقد ، فان ذلك يعنى عنده ذلك الخــلاف الذى لابد منه من أجل الوصول الى الحقيقة ..

والحقيقة دائما هى الهدف
وهى أيضا .. سيدة الموقف .
أليس كذلك ؟!

---

(١) ابراهيم عبده : « الصحافة فى الولايات المتحدة الامريكية » ص : ٧٦ .

(٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧) حسنين عبد القادر : « الصحافة كمصدر للتاريخ » ص : ١٩ .

بونابرت :

أيهما الأقوى ..

الجيوش .. أم

الصحـــافة .. ؟

بونابرت :

أيهمــا الأقــوى
الجيوش أم الصحافة ؟

لم يكن من المعقـول ، ولا من المقبول ، أن يدير رجل مثله ظهره للصحـافة .. أو أن يتجاهلهـا أو يتجاهل قوتهـا ، وأثرهـا ، بحال من الأحوال .

ولم يكن من المعقول أيضا ، ولا من المقبول كذلك أن تدير الصحافة لرجل مثله ظهـرها ، وأن تتجاهله ، أو تتجاهل قـوته وأثره .. وبحال من الأحوال .

كان كلاهما يعرف للآخر قدره ، ويقدره ، ويعترف له به أيضا .
وكان كلاهما يعرف أن التفاهم واللقـاء والتعـاون بينهما سيكون مفيدا للغاية ..

والا ، فمن غير الصحـافة يستطيع أن يتحدث قوته ، وأن يحمـل فكره ، ودعايته ، وينقل للناس أخبـار معاركه ، وأنبـاء انتصاراته .. وحتى هزائمه أيضا ؟

ومن كذلك غيره يستطيع أن يمـدها بالكثير من المـواد التى تملأ صفحاتها ، وجميعها من النوع الهام .. أو الأخبـار صانعة المانشيتات ، والمقـالات النـارية التى تقيم الشعوب وتقعدها .. وتبقى هى للتاريخ تتحدث عن الرجل نفسه ؟

بل لمن تكتب الأقلام ، وتدور المطابع ، وماذا يقرأ الناس .. اذا لم يكن عن القائد العسكرى الفذ ، والرجل الخارق ، الذى صارت شجاعته وطموحه مضرب الأمثال ، وانتقلت قصص انتصاراته وغزواته .. حتى لقلوب النساء ، من جيل الى جيل ..

ذلك هو النسر الفرنسى ، الامبراطور نابليون بونابرت والذى قيل بشأنه الكثير ، والكثير جدا .. وكان مما قيل عنه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

« لقد كان نابليون بلا ريب رجلا خارقا فى حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله أن يشق طريقه الى أسمى المناصب تحت أى ظروف وفى أى بلد ، فقد كان يتميز بجلده على العمل ، وقدرته الهائلة فى التنظيم ، وبصيرته الحاضرة ، وشجاعته الفائقة واستعداده الكامل لتحمل المسئولية ، ومضائه فى تنفيذ أية خطة يأخذ على عاتقه تنفيذها ، أى أن جميع صفات الجندى قد اكتملت فى أعلى صورها، وكان يملك الى هذا كله موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل »(١)..

أقول .. هذا قليل جدا مما قيل عن الرجل وفيه .. منذ آخذ نجمه فى الصعود ، بعد أن نجح فى قيادة جنوده فى حصار طولون عام ١٧٩٣ ، على الرغم من مساعدةالأسطول البريطانى لأهلها ونجاحه كذلك فىالقضاء على ثورة أهالى باريس ضد حكومة الادارة ــ الديركتوار ــ مما أدى الى اسناد قيادة جيش العاصمة الفرنسية له .. ثم ليبدى نجاحا أكبر يلفت الأنظار الى عبقريته العسكرية عندما بعثت حكومة الادارة بجيشين لحرب النمسا أحدهما ثانوى بقيادته ، ولكنه جعل هجومه يكون الرئيسى والفعال ، فعزل بين السردنيين والنمسويين وأنزل بالأولين هزيمة فى موقعه موندوفى ، ثم بالنمسويين عند لودى فى ١٠ مايو ١٧٩٦ ودخل ميلانو ، وحاصر الحصن النمسوى ، وأنزل بالنمسويين هزيمة ساحقة فى موقعة ريفولى ــ ١٤ يناير ١٧٩٧ ــ ثم استسلم الحصن .. وتوالت انتصاراته

الأوربية ، حتى عاد الى فرنسا ليعهد اليه مجلس الشيوخ مرة أخرى بقيادة قوات باريس .. وتتتابع الحوادث حتى تصل الى الحمـلة الفرنسية على مصر تلك التى كان الهـدف منهـا انجلترا ، ومستعمراتها وخطوطهـا البحرية أو على حد تعبير بعض الكتاب « لقد خيل لأعضاء حكومة الادارة أنهم قد يجدون فى مصر كعب أخيل الذى يمكن أن تهزم منه بريطـانيا المنيعة . ولم يكن لدى فرنسا فعلا أى سبب وجيه لمحاربة مصر — كانت أول نقطة فى التعليمات التى أعطيت لنابليون عند ارساله الى مصر هى : طرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التى يستطيع بلوغها »(٢) .

وتوالى الحوادث مسيرتها ويدمر ولسون الأسـطول الفرنسى فى خليج أبى قير ويفشل حصار عكا ثم يعود نابليون الىفرنسا ، حيث يسطع نجمه بشدة عندما يصوت أعضاء مجلس الشيوخ لصالح تعديل الدستور ويقوم هؤلاء باختيار ثلاثة قناصل ، أحدهم نابليون الذى يفوز بالسلطة أخيرا ، ليصير بعد ذلك امبراطورا فى ١٨ مايو ١٨٠٤ ، وبعد حياة تذكر بقصص ألف ليلة يطلق زوجته « جوزفين » لأنها لم تنجب له ولدا يكون وليا لعهده ، ويتزوج من « مارى لويز » ابنة امبراطور النمسا .. ولكن الأحداث تسرع فى اتجاه مغاير له ، فبعد عـدة انتصـارات على الأرض الأوربية تتحالف الدول ضده ، وتهزمه جيوشها وتجبره على التنازل عن عرشه فى ١١ أبريل ١٨١٤ ، ولكنه يهرب من أسره فى جزيرة البا ويواصل الحرب حتى يهزمه « بلوخر » و « ولنجتـون » فى « ووترلو » — ١٨ يونيو ١٨١٥ — وتبعث به الى منفاه فى « سنت هيلانة » حتى يموت بها وحيدا مقهورا مهموما فى ٥ مايو ١٨٢١ .

ويالها من حياة حافلة للنسر الفرنسى ، وميتة غير لائقة به ، ولكنها سنة الحيـاة ..

فاذا كانت هذه هى حياته .. فماذا عن موقف الرجل من الصحافة ،

أو مواقفه منها ؟ ، وكيف كانت علاقته بها ، وبرجالها ، ودولتها كلها ؟ .. ذلك ما تجيب عليه السطور القادمة ...

ان أول ما يدهش له القارىء ، عندما يعرف أن نابليون ومنذ كان ضابطا صغيرا ، كان يبدو عليه طابع القارىء الممتاز ، والنهم أيضا ، ويؤكد أكثر من مؤرخ أن فترة عمله الأولى بالجيش ـ ٧ سنوات ـ قد أتاحت له أكثر من فرصة ممتازة للقراءة والمتابعة ، خاصة فى كتب التاريخ والجغرافيا ولا شك أن ذلك قد أفاده كثيرا،وعندما بدأ نجمه فى الارتفاع، كان حريصا على تدوين أفكاره ومذكراته الخاصة ، كما كان يبعث من آن لآخر ، بتعليقات وشذرات وخواطر الى عدد من الصحف الفرنسية .. وقد تناول ذات مرة فى احدى هذه الكتابات موضوع الصحافة والسلطة، معلقا بذلك على هجوم الصحف الفرنسية على أعضاء مجلس الشيوخ ، وكان مما أثاره فى هذه الكتابات بعض الموضوعات التى تتعلق بتبعية الصحافة فى فرنسا ، وهل هى الأقوى أم مجلس الشيوخ ؟.. وهل الصحفى فى مثل هذه الظروف التى تجتازها البلاد يعتبر حرا فى كتاباته ؟ وما هى حدود هذه الحرية ؟ ... الى غير ذلك كله من أسئلة عديدة ، وموضوعات مختلفة كانت تتجه اليها أفكاره بما يؤكد أن موضوع الصحافة كان يشغل باله ، وهو يخطو خطواته الأولى .. على طريق المجد الكبير الذى حققه ..

بل ان عددا من المؤرخين ، والذين اهتموا بشخصيته وأفكاره وآرائه وحياته عامة لاحظوا أن الرجل كان يريد وهو فى منتصف طريق المجد ألا يبدو وكأنه القائد العسكرى الشاب الذى يمتلىء رأسه بفنون العسكرية والحرب وحدها ، والذى يعتمد على سيفه وخططه الحربية التى بهرت الناس فقط ، لا سيما خططه فى تخفيف حركة القوات ، والمخاطرة واجتياز الصعب والتقدم من القلب والالتفاف وغيرها ، مما شغل الناس زمنا ، وما يزال يشغل العسكريين حتى اليوم ، ولكن بونابرت وبالاضافة الى ذلك كله كان يريد أن يلفت الأنظار اليه كقائد عسكرى ،

ومثقف وذواقة للفن والأدب ، وأديب وناقد أيضا « بل هو كذلك الرجل الضليع فى فنون الحياة السلمية المتعطش للعلم المجل لطبقة المفكرين »(٣).. بل يقال أيضا أنه فى هذه الفترة من حياته ، وبعد ذلك أيضا ، وحتى عندما ارتفع نجمه كما لم يرتفع من قبل ، كان دائم الحرص على ارتياد الصالونات الأدبية التى كانت منتشرة فى فرنسا فى ذلك الوقت ، وكان يساهم فيها ليس كمستمع عادى ، وانما كناقد وذواقة ، كما كان حرصه بالغا على زيارة المجمع العلمى الفرنسى واللقاء برجاله ، وكذا حضور المعارض الفنية العديدة ، والاتصال بنجوم الفن والأدب فى العاصمة الفرنسية ، ويقولون أنه كان يحرص على ارتداء الزى الموسمى السائد ، وكان هذا الزى هو الظهور بمظهر المهتم بمثل هذه الأمور كلها .. كما يقولون أيضا أنه كان فى أغلب أوقات حياته يعيش « متمثلا بالمثل اللاتينى القائل ... القلم أفضل من السيف »(٤) .

وقد يفسر ذلك كله الاهتمام الكبير الذى أبداه الرجل للصحافة ، والذى أسفر عن اعتبارها سلاحا من بين أسلحته الماضية والفتاكة أيضا وذلك قبل أن يتولى الحكم ويصرح لأحد أصدقائه قائلا فى نفس يوم توليته امبراطورا ــ ١٨ مايو ١٨٠٤ « ينبغى على الحاكم القوى أن يجعل الصحافة فى خدمته » .. فبالاضافة الى كتاباته التى ظهرت على صفحات الجرائد الباريسية فى بداية حياته العسكرية ، فان من الثابت أنه أثناء حملته الايطالية الشهيرة والتى سبق التنويه بها ، عنى عناية بالغة بالاعلام الصحفى أسفرت عن اصدار صحيفتى « وجهة النظر الفرنسية »(٥) « بريد الجيش »(٦) .. كما كان يأمر بطباعة أخبار الحملة ، وأوامره العسكرية الى جنوده ، وكذا بعض المواد الدعائية ، فى منشورات يوزع بعضها على الجنود ، وبعضها على الايطاليين ، كما يقول أحد مؤرخى صحافته (٧) أن الرجل كان يبعث أحيانا ببعض المقالات التى يكتبها من مقر قيادته فى أيطاليا لتنشرها الصحف الباريسية ، وكانت أكثرها مقالات

سياسية ، تتناول أحداث العصر نفسه عامة ، وأحـداث فرنسا الداخلية خاصة ..

على أن هذه الاتجاهات الصحفية نفسها ، ورغبة الرجل فى أن تؤازر الصحافة جنوده ، كانت أقوى ظهورا ، بشأن الحملة الفرنسية على مصر، تلك التى وضح منذ بدء الاعداد لها ، ثم خلال اتجاهها نحو الشـواطىء المصرية ، وفى تعامله مع المصريين ، ومع جنوده أيضا ، هذه الرابطة القوية بينه وبين الصحافة ، وذلك الدور الكبير الذى كان يرى أن على الاعلام الصحفى أن يلعبه .

ذلك لأن من الثابت أن « بونابرت » كان شـديد الاهتمام بتزويد حملته بمطبعة أشرف بنفسه على اسـتكمال معداتها وجهازها البشرى ، ويروى د . أحمد حسين الصاوى عدة صور من جهوده فى هذا السبيل ، ومن ذلك اتخاذ حـكومة الادارة فى ١٦ مارس ١٧٩٨ قرارا بتعبئـة كل المعدات الطباعية التى يحتاج اليها الرجل ، وكذلك حروف الطباعة العربية واليونانية التى توجد بمطبعة الدولة ، ومن الطبيعى ألا يتخذ هذا القرار الا بعد مطالبة من الرجل نفسه .. العضو القـوى فى هـذه الحكومة « ولكن لما انقضت عشرة أيام على هذا القرار دون تنفيذ ضجر بونابرت فكتب يشكو فى لهجة حادة الى وزير الداخلية بطء الاجراءات ، ويقول له أن مدير المطبعة والمواطن لا نجليس أظهرا أسوأ النوايا ، ويرجوه أن يصدر أمره بشحن جميع الحروف العربية دون قوالبها ــ أمهاتها ــ التى توجد بتلك المطبعة ، ثم يطلب من الوزير كذلك اصـدار أمره بشـحن الحروف اليونانية التى كانت مطبعة الدولة وقتئذ تستخدمها فى طبع أعمال زينوفون ــ ويقول ساخرا أنه ليس هناك ضير فى أن ينتظر زينوفون ثلاثة أشهر حتى يتم سبك حروف جديدة مادامت الأمهات سـتبقى بالمطبعة ، وأخيرا يطلب منه شحن حروف فرنسـية من الأحجـام المعتـادة تكفى لاستخدامها على ثلاث طابعات »(٨) .

كما واصل نابليون كتاباته الى أعوانه يستعجل اعداد وتجميع هذه الحروف ، وكذا القوة البشرية التى ستعمل عليها ، كما أصدر قبل قيام الحملة عددا من القرارات التى تنظم العمل بهذا الجهاز الطباعى الذى جعل على رأسه المستشرق المعروف « جان جوزيف مارسيل » ..

والواقع أن هذه الاجراءات الطباعية البونابرتية لا تعكس فقط هذا الاهتمام الكبير بأن يدعم جيشه جيش آخر من هذا الجهاز الطباعى والاعلامى والعلمى الكبير..وانما تعكس أيضا ذلك الفهم الكبير والكامل لدور المطبعة،وأهمية تجميع وصب حروفها،وشحنها دون أمهاتها،بالاضافة الى عنايته بعامل الخبرة .. وهى ما تزال أساسا فى العمل الفنى الطباعى ، والى فهمه لعنصر الوقت ليس على المجال العسكرى وحده ، وانما بالنسبة للمجال الاعلامى أيضا .. كما يضاف الى ذلك شديد عنايته بأن يصحب الحملة طابع مستقل هو « مارك أوريل » ، ثم أمره بنقلها الى الباخرة لوريان ــ الشرق ــ تلك التى عقد لها لواء القيادة على جيش مكون من أربعمائة سفينة ينقلون « نحو خمسين ألف جندى وبحار »(٩) .

حتى اذا اقتربت الحملة من الشواطىء المصرية أمر بونابرت بطباعة منشور الى جنوده فى ٢٨ يونيو ١٧٩٨ ، يشجعهم فيه على بذل الجهد ، ويثير حماسهم بما ينتظرهم من مجد ونصر ، ويطلب اليهم احترام عقائد المصريين .. ثم مالبث أن قام بطباعة أول منشور باللغة العربية ، وترك أمر توزيعه الى عدد من الأسرى المسلمين الذين كانوا فى سجون مالطة المسيحية ، ليؤكد بذلك سياسته الاسلامية القائمة على تلك الدعاية التى يحاول عن طريق التصرفات الشخصية والمنشورات والصحف ، أنه أكثر ايمانا بالله من المماليك ، وأن الأمة الفرنسية هى أيضا أمة مسلمة !! ..

وعندما تم احتلال الاسكندرية ، كان حريصا على التأكد من سلامة انزال المطبعة الى البر ، فخصص ضابطا للاشراف على ذلك العمل ، ثم أمر بوضعها فى منزل قنصل البندقية ، بحيث تستطيع أن تطبع على وجه السرعة كل ما يراد لها طباعته .. وقد قام فعلا عن طريقها ــ خاصة بعد وصولها

الى القاهرة عن طريق النيل ــ بطباعة عشرات من المنشورات الدعائية والتى لعبت دورا أساسيا فى الدعاية للحملة ودورها ، واعــلام المصريين بهــذا الدور بالاضافة الى ما أدته المنشورات الفرنسية من دور للجنود أيضا ، بما فى ذلك طباعة تقارير قادة الحملة ، وبيان أهم الأحداث الأوربية ..

حتى اذا كان يوم ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ ، حيث صدرت دورية « بريد مصر »(١٠) .. تلك التى أراد بونابرت بها أن تكون همزة وصل بين الحملة والوطن الأم « والتى كانت تقوم بعملية طمأنة الحملة على الحالة الفرنسية الأوربية » كما عنيت أيضا بأخبار بونابرت الخاصة ، وكبار قادته ، ومن ذلك ما يقوله الدكتور ابراهيم عبده « تفاصيل زيارات بونابرت لعلمــاء المصريين ورجال دينهم كزيارته للسيد السادات فى مولد السيدة زينب بناء على موعد سابق ، وتناوله العشاء هو وقواده فى المنظرة وألوان الطعــام التى قدمت اليهم وأنواع الحلوى التى تشبه ما يقدم فى شهر رمضان والماء المسكر المعطر ، ثم راحت تصف الجدل الذى دار بينه وبين السادات عن القرآن ، وقد استغرق وصف هذه الزيارة صفحتين كاملتين »(١١) .. الى غير ذلك كله من مواد اخبارية دعائية كان الرجل حريصا على نشرها ..

كما صدرت كذلك صحيفة « العشرية المصرية »(١٢) ــ لصدورها كل عشرة أيام ، تلك التى أراد لها الرجل أن يكون اهتمامها بالغا بالأخبار والتقارير والدراسات المتخصصة والمجالات العــديدة التى تتجــه اليها مجهودات علماء الحملة ، فى دراساتهم للمدن والقرى والعادات والتقاليد والنيل والواحات والصحارى .. وحتى الدراسة التى لم يحالفها التوفيق لعمل قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط ..

وبذلك كله ، وكأثر لاهتمامات هــذا الرجــل ، عرفت مصر الطباعة لأول مرة ، حتى قال البعض ــ د . اجــلال خليفة ــ « لو لم يستقدم نابليون معه مطبعته لتأخر ظهور الصحافة فى مصر الى أن تأتى هذه الآلة العجيبة الى بلادنا » (١٣) .. كما عرفت مصر الصحافة لأول مرة أيضا ..

فى شكل تلك المنشورات العربية التى أمر نابليون ومن بعده « كليبر » و « منو » بطباعتها وتوزيعها ، أو فى شكل الصحيفتين المذكورتين .

على أن طيب المقام لبونابرت لم يدم فى مصر ، اذ أجهدته عكا فى حصاره عليها وتفشى الوباء بين جنوده وعاونت مراكب الانجليز أهلها حتى تحققت له الهزيمة ، كما كانت أنباء أوربا عامة وفرنسا خاصة مزعجة كل الازعاج .. ومن ثم رأى أن يعود فورا ، حيث وصل الى بلاده فى ٩ أكتوبر ١٧٩٩ بعد أن تعرض لخطر الأسر فى الطريق .. ليقوم مقامه فى مصر كليبر ثم منو ، وليستسلم أخيرا للانجليز والأتراك عشرون ألف فرنسى بالقاهرة والاسكندرية ، فى أغسطس ١٨٠١ .. وانطوت صفحة هذه الفترة الهامة جدا من تاريخ الشرق عامة ، ومصر خاصة .

أما فى أوربا فقد واجه تألب الدول على النفوذ الفرنسى والقوة الفرنسية المتعاظمة ، وثورة عدد من البلاد عليها .. كايطاليا وسويسرة وما تبعهما من جمهوريات وممالك وامارات صغيرة وتعاون قيصر روسيا بولس مع بريطانيا على اعادة بلاده الى حدودها الأصلية ، ثم دخول النمسا دائرة هذا التعاون .. وتحقيق هؤلاء لأكثر من نصر على الجيوش الفرنسية .. ثم نهضة هذه فى النهاية دون أن تستطيع تحقيق نصر حاسم قبل وصول بونابرت من مصر .. حتى اذا وصل الرجل وواجه ثورة مجلس الشيوخ ضد خطاب له باستدعاء قواته لدخول المجلس وفرار أكثرية الأعضاء ، وتصويت البقية الباقية لصالحه فى ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ .. ليصبح القنصل الأول .. وليبدأ فى صراعه العسكرى الكبير الذى انتهى بانتصاره فى أميان — مارس ١٨٠٢ — ثم بتعيينه امبراطورا فى ١٨ مايو ١٨٠٤ ..

واذا كنا قد عدنا خلال هذه السطور القليلة السابقة الى قصة الرجل نفسه ، فاننا نعود خلال السطور القادمة الى صحافته ..

ذلك أن الرجل ما كاد يتولى حكم فرنسا بوصفه قنصلا أول ، حتى بدأ يسير دفة الحكم على هواه .. « ولم يلبث أن ضرب عرض الحائط بنظم الحكم التى أنشئت على أثر ثورة بروميير ـ نوفمبر ـ فلئن كان لتلك النظم نفع بادىء الأمر كستار يخفى وراءه حكمه الفردى ، فانه لم يلبث أن ألفى نفسه فى غنى عنها بعد أن ازداد ثقة بنفسه واطمئنانا الى تأييد الرأى العـــام ، فأخذ يعصف بهـــا ، وراح يحكم دون حتى مجرد التظاهر باشراك الشعب معه .. وهو لم يتجه بحكمه أكثر فأكثر نحـــو الأوتوقراطية الصريحة فحسب ، بل طفق يتخلى كذلك رويدا رويدا عن كل أثر لمنشئه الثورى » (١٤) فاذا أضفنا لذلك كله ، أن المعارضة ضده كانت تعود فتقوى ، مع اتحـــاد الدول فى مواجهته ، وحيث يبدو أنه يجتـــاز بعض المواقف العسكرية الصعبـــة ، ثم بتجمـــع الملكيين حينا واليعاقبة فى حين آخر ، وتوافق ذلك مع الحنق الخارجى المكتوم ، أو الذى يصرح عن نفسه ، ومع ما يحسه بعض الضباط الذين كان يتقـــدم الصفوف فوق أكتافهم .. من حسد وغـــيره ، تلاقت هذه جميعها مع رغبات الرجل الكامنة أو الظاهرة فى الانفراد بالسلطة والحكم ، ودون منازع ، ثم اتجاهه الى تثبيت دعائم حكمه الفردى لتظهر بعد ذلك فى صـــورة خوف من هؤلاء جميعـــا .. يظل يستبد بالرجل ، وتتضاعف جرعته ، مع ارتفاع عـــدد من هذه الأصـــوات المعارضة فى الصالونات والجمعيات والمجالس ثم تمتد هذه الى الصحف أيضا .

.. كان بونابرت يعـــرف تماما كيف يمكنه أن يسكت هذه الألسن جميعها .. باستثناء الصحافة .. أما أحاديث الصالونات والجمعيات ، فانه كان يعتبر أصحابها من هؤلاء الذين ليس لهم عمـــل الا تنـــاول غيرهم بالنقد ، كما أنهم كانوا قلة فى المجتمع الفرنسى العريض ، خاصـــة وهو يتمتع بتأييد الجهات المحافظة ، والكنيسة ، وجماهير الشعب والفلاحين ، وهو ما عبر عنه بعد زمن طويل لأحـــد أصدقائه قائلا : « أنا لا أفعل

شيئا الا أننى أحرك خيال الأمة » .. واذن فما دامت الأصوات المهاجمة داخل الجمعيات والصالونات ، هى قطرات ماء قليلة وسط محيط الشعب الفرنسى ، الذى عرف الرجل كيف يحرك خياله ، ويلهب طموحه الى فرنسا قوية ، سيدة على أوربا ، حتى أن هذا الشعب طالب بتجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات — وهو ما يزال فى بداية فترته الأولى — ثم بتعديل ذلك الى أن يصبح قنصلا مدى الحياة .. ما دامت هذه الأصوات لا تتعدى هذه الأماكن الضيقة ولا تقفز فوق حدود أسوارها .. فهى ضعيفة ، ولن تكون محركة أو مؤثرة ..

وأما اتحاد الدول الخارجية ضده ، فان السيف والمدفع ، وميادين المعارك وحدها هى التى تقرر الفصل فيها ..

وأما المجالس التشريعية والأجهزة الدستورية الأخرى ، فقد سبق له التعامل معها ، وانه ليعرف تماما كيف يستطيع أن يلجم أفواه أصحابها ، بدعوى تهديد الأخطار الخارجية تارة ، وبدعوى منحه حرية الحركة والتصرف تارة ثانية ، وبدعوى تعديل الدستور والى حد تجميده تارة ثالثة ، كما أنه يعرف كيف يتحايل على هذه الأجهزة أيضا ، وفعلا قام بادخال بعض التعديلات التى حولت مجلس الدولة الى مجلس خاص يعين هو أعضاءه وله وحده حق التقدم بجميع الاقتراحات .. وحتى فى حالة فشل جميع هذه الطرق ، فان هناك طريقة أخرى سبق له أن قام بتجربتها ، وكان لها الفضل الأول فى هذه المكانة التى يحتلها .. عندما اقتحم جنوده مجلس الشيوخ ، وفر من الأعضاء من فر ، ووافقت البقية الباقية على الرجل ، وأفكاره ، وطموحه .. واستغلاله أيضا .

واذن فقد بقى طرف واحد .. هو الذى يستطيع أن يواجهه ، وأن يساعد على أن تقفز الأفكار الثورية من فوق أسوار الجمعيات والصالونات ، وأن تتسلل أيضا أفكار الأعداء الذين يحيطون بالبلاد ، ويتمنون للنسر فرصة اغفاءة واحدة ، كما أنهم يستطيعون الاشارة الى

ذلك النوم الطويل الذى يغط فيه الدستور ، والأجهـزة الدستورية ، والى مجلس الدولة البونابرتى الخاص الذى يحـركه الرجل كما يشاء ووفق هواه ..

كان ذلك الطرف المقلق ، هو ما تمثله الصحافة الفرنسية ، تلك التى ساهمت الى حد كبير فى نشر أفكار الثورة فى الاخاء والحرية والمساواة ، وكانت سلاحا قويا فى يد كبار الثوار ، ساهم الى حد ما فى تكوين الرأى العام الفرنسى ، كما كان لنشرها لأفكار الجيروند واليعاقبة معا ، أثره الكبير فى انتشـار الفكر الثورى .. ذلك الذى قضى على العـديد من الصحف والصحفيين الفرنسيين ، ولم يبق منها خـلال عهـد الارهاب السابق على حكومة الادارة ، الا ما يناصر لجنة الأمن العام .

تتابعت هذه الأفكار كلهـا فى رأس الرجل ، وعاد بذهنه الى الوراء ليتحسس الدور الذى قامت به الصحافة ، والذى يمكن أن تقوم به ، ثم لوى عنقه بشدة الى ما يمكن أن تحققه لأعدائه فى الداخل والخارج .. ومن هذه النظـرات والتحليلات كلهـا ، وبالمواءمة بينها وبين دراسته السـابقة لمواقف الحكام من الصحـافة ، وتعطشه المتزايد الى الحكم الفـردى ، أيقن الرجل أنه لن يستطيع أن يحقق أحـلامه ، أو يمارسه ديكتاتوريته ، أو ينتصر على أعدائه فى الداخل والخارج ما لم يقم بعملية تنظيم جادة وحاسمة لها ..

باختصار شديد لقد أراد لها أن تكون فى جانبه ، وفى جانبه وحده ، تؤيد ، وتصفق ، وتهتف شأنه فى ذلك ، شأن الديكتاتوريات العسكرية التى كان يقرأ تاريخها ، ويستخلص منه ما يقدم له الفائدة .. ومن هنا فانه أرسل بعض أعوانه يجمعون له نماذج من هذه الصحف ، ويقدمون التقارير عن العاملين بها ، ونوعياتهم ، وأفكارهم السياسية ، ومواقفهم السابقة والحالية ، كمـا قام بسحب جميع رخص الصحف الباريسية ، انتظارا لما تسفر عنه هذه التقارير ، وبعد أن أتم دراستها بنفسه أصدر

قراره الحاسم بأن « القنصل الأول » يأذن لثلاثة عشرة جريدة فقط بالصدور من مجموع ٧٢ صحيفة كانت تصدر فى باريس فى ذلك الوقت .. ولكنه أعطى أصحاب هذه الصحف حرية العودة فى الصدور اذا رغبوا ، وبعد أن يثبتوا عكس ما جاء فى هذه التقارير العلنية والسرية وقد حدث بعض أصدقائه من المقربين عن ذلك الاجراء قائلا : « لا أريد أن تصدر الصحف وحسب بل وأن تكون مؤيدة لى » .. كما كتب يقول بالحرف الواحد : « لو أرخيت العنان للصحافة لما بقيت ثلاثة أشهر فى الحكم » (١٥) ..

واذا كان عدد من المؤرخين قد أشاروا الى هذا الاجراء والى ما تلاه من اجراءات أخرى بعبارات من مثل تلك التى يقولها فيل (١٦) ــ مؤرخ الصحافة الفرنسية ــ « كان نابليون يؤمن بقوة الصحافة وكان هذا الايمان يشغله دائما »(١٧) أو قول شارل رو عنه أنه « أحب الصحافة دائما بشرط أن تكون رسمية » (١٨) .. فان مثل هذه الأقوال الكثيرة تفسر هذه الاجراءات نفسها ..

وأما عن هذه الصحف التى سمح لها بالصدور فقد اتبع معها نظام رقابة صارم ، على جميع موادها تمكن بواسطته من أن يوجهها التوجيه الذى يخدم أهدافه وغاياته ، كما أن هذه الاجراءات والقرارات نفسها والتى تضمنها ما يعرف بمرسوم ١٧ يناير ١٨٠٠ ، استثنى من بينها صحيفة واحدة هى صحيفة « لومونيتور » (١٩) بل جعل منها لسان حكومته ، وصحيفة الدولة الرسمية ، والتى تنقل آفكاره وآراءه وتعليماته وقراراته الى القراء داخل فرنسا وخارجها .. كما تجمع مراجع الصحافة على أن الرجل كان يمارس بنفسه الاشراف على كل كبيرة وصغيرة فى هذه الصحيفة الناطقة بلسانه بدءا بتحرير المقالات ، ومرورا بتوجيه المواد الأخرى ، وحتى أعمال الادارة والتوزيع .. بالاضافة الى العمل الأساسى .. عمل الرقيب نفسه مما دفع بهذه الصحيفة عدة خطوات

الى الأمام ، وأجبر الصحف الأخرى على أن تنقل عنها أخبارها ومادتها عامة .. ولكن أكثر هذه الأعمال ، كان يقوم بها من وراء ستار ، أو بصفة شبه سرية .. فى البداية .. ثم مارسها ـ جميعها ـ علنا .

ولكن ، مع ازدياد المعارضة لأعمال الرجل ، ومع قيام أكثر من محاولة لاغتياله بدأت فى ديسمبر عام ١٨٠٠ بالقاء قنبلة عليه وهو فى طريقه الى دار الأوبرا ، ثم بتكرار الاعتداء عليه من جانب اليعاقبة من المتطرفين ، بدأ الرجل يتجه الى المزيد من الاجراءات التى تجمد الدستور ، وتعطل عمل الأجهزة والمؤسسات الدستورية .. وكان من الطبيعى أن تنال الصحافة جانبا كبيرا من هذه الاجراءات العديدة التى استمرت قائمة خلال أكثر فترات حكمه ، وحتى نفيه ووفاته فى سنت هيلانه ، على النحو الذى سبقت الاشارة اليه .. وذلك باستثناء الصحف الأدبية ، تلك التى كانت تتمتع بكثير من الحرية فى عهده ، ولتقدم احدى واجهات الدعاية المشرقة للرجل نفسه ، الذى يعمل على رفعة الأدب ورقى العلوم والمعارف .. أما غيرها ، فقد واجهت العديد من صور الديكتاتورية البونابرتية والتى صنعتها قبضته الفولاذية .. وكان من بين هذه الصور نفسها ، بالاضافة الى صور الصراع الناشب بين الصحفيين وبينه والى الأقوال التى تناولها .. هذه كلها :

* فقد ذكر عنه أنه قال وكتب فى مذكراته أيضا يقول : « اننى أوجس خيفة من ثلاث جرائد أكثر مما أخاف من مائة ألف مقاتل » .. وربما يكون ذلك هو سبب ما رواه عنه مترنيخ بعد ذلك بقوله : « ان الصحف كانت تساوى بالنسبة لنابليون جيشا مؤلفا من ثلاثمائة ألف مقاتل » ..

* وعندما كتبت الأديبة الكاتبة الصحفية « مدام دى ستيل » كتابها « فى ألمانيا » والذى صورت فيه حالة الحرية والتقدم والحفاظ على الدستور السائدة هناك ، متمكنة بذلك من توجيه ضربة انتقادية

الى عهد نابليون على طريقه « ما هنالك » التى تؤدى الى الحديث عن : « ما هنا » .. أمر الرجل بوضعها تحت المراقبة الدقيقة ، وسلط عليها عيونه ، وكادت أن تتعرض للسجن ولكنها تمكنت من الهرب من هذه العيون الى انجلترا بعد أن أقض كتابها مضاجع الرجل .

* ويقول محمود سمهان : « وعناية نابليون بالصحافة وخطرها ، كان له أثره فى عصره فآمن بهذا الخطر رجالات الدولة ، بعد أن كانوا ينظرون الى الصحافة نظرة استهانة ، وبلغ هذا الايمان حدا قال معه فوش أحد رجال نابليون : كلمة واحدة يهاجم بها وزير على لسان جريدة كافية لأن ترغمه على الدفاع عن نفسه فى عشر صفحات » (٣٠) .

* وقبل أن يصادر الرجل جريدة « البابليسيتى » (٣١) كان يوجه اليها مزيدا من الانتقادات بشأن مادتها ، كما يروى أيضا أنها عندما نشرت بعددها الصادر فى ٢٠ يناير ١٨١٠ مقالا تناولت فيه بعض الشئون الأسبانية بشكل وأسلوب لم يعجباه ، فانه أنذرها بالمصادرة اذا لم تكتب مقالا آخر ، تصوب فيه ما وقع من أخطاء ، فما كان من الصحيفة الا أن كتبت مقالا يحمل ما يريده الرجل ، وكان المقال الثانى مغايرا تماما للمقال الأول ، من زاوية المضمون والتفصيلات العديدة التى وردت فيه .. ولكن عندما تكرر وقوع الصحيفة فى هذه الأخطاء فانه أمر بتوقفها عن الصدور تماما كما كان قد سبق وأن أوقف صدور « الغازيت » ، والتى كانت من كبريات الصحف فى عهده ، لأنها نشرت خبرا واحدا غير مرغوب فى نشره .. فعوقبت بالمصادرة لعدة أيام .

* ويحكى ــ محسن محمد ــ كيف ضاق الصحفيون بعسف الامبراطور ، واضطهاده لهم ومصادرته لحرياتهم وفرضه رقابة منعت نشر أى نقد للامبراطور .. ولكن الصحفى ــ راؤول ريجولت ــ استطاع أن يتغلب على الرقابة بالحيلة والدهاء .. ولنقرأ معا ما فعله :

« اختار أحد المتسولين ومنحه عشرين فرنكا مقابل توقيعه على اقرار يقدم لوزارة الداخلية ، بطلب الترخيص باصدار مجلة اسمها الطبيعة وأنزل المتسول فى أحد الفنادق الكبيرة بعد أن اشترى له ملابس جديدة تناسب المقام ..

ووجدت الوزارة أن الاجراءات مستوفاة ، فوافقت على اصدار المجلة باعتبار أن عنوانها لا يشير أية اشارة الى أنها ستعالج الأمور السياسية ..

وفى العدد الأول كتب ريجولت : قرائى الأعزاء سنقدم لكم ابتداء من هذا العدد دراسات فى التاريخ الطبيعى نستهلها بالحديث عن الصقر الفرنسى الذى يسمى خطأ ملك الطيور ..

ثم يستطرد قائلا بلا مقدمات :

الصقر طائر مفترس ، خطاف ، جبان ، متوحش ، يعيش على لحوم الحيوانات والطيور الأخرى الضعيفة ، ويذهب الى أعشاشها لسرقة بيضها ، فقد رأوه كثيرا وهو ينقض على الحملان الوديعة لينزع صوفها ليفرش به وكره .. انه لا يرجع أبدا عن أى عمل قاس ليشبع نهمه الذى لا ينتهى ! وبعد كل ذلك ، قد نعتبر المشتغلين بالعلوم الطبيعية على حق فى تسمية الصقر ملكا ، لأن أغلب الملوك الذين هم على شاكلة الصقر — يتغذون عادة من دماء رعاياهم .. » (٢٢)

ولكن المسئولين فى وزارة الداخلية كانوا قد أدركوا أن المقال يقصد الامبراطور .. فتحركت الشرطة لمصادرة المجلة ، الا أن تحركها جاء متأخرا .. بعد أن أصبحت نسخها فى أيدى القراء ..

أما الصحفى نفسه ، فقد حصل على ترخيص جديد باصدار مجلة باسم « الجغرافيا » ثم « العلم للجميع » .. وهما تتناولان نابليون

وتشبهه الأولى بالجبــل والثانية بالأوزة ، ويكال النقــد للجبل الذى لا يتحرك ، ولا يعرف العواطف أو الاحساسات ، بل هو جامد دائما .. صلد أبدا .. أو للأوزة المتخايلة ، المعجبة بنفسها ، وهى تقود صغارها ..

« وعندما ترى النيابة تقــديم رئيس التحرير الى المحاكمة ، بتهمة « اساءة استعمال التاريخ الطبيعى ، لا تعثر عليه أبدا .. لأنه يكون قد غادر الفنــدق ليعود الى التسول ، غير شاعر بأنه قد ساهم فى الحمــلة ضد نابليون » (٢٣) .

---

(١) ا.ج. جرانت ـ هارولد تمبرلى ـ ترجمة بهاء فهمى « أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرون » ص : ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ١٥٥ .

(٣ـ٤) هربرت فيشر ـ ترجمة محمد مصطفى زيادة : « نابليون » ص : ٨٢ .

(٥) La France vue de L'armee d'Italie

(٦) Le Courrier de L'armee

(٧) الدكتور أحمد حسين الصاوى .

(٨) أحمد حسين الصاوى : « فجر الصحافة فى مصر » ص : ١٩ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(١٠) Le Courrier de L'Egypte

(١١) ابراهيم عبده : « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » ص : ٦٣ .

(١٢) La decade Egyptienne

(١٣) اجلال خليفة : « الصحافة » ص : ٣٢ .

(١٤) ا.ج. جرانت ـ هارولد تمبرلى ـ ترجمة بهاء فهمى : « أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرون » ص : ١٨٠ .

(١٥) فرنان ترو ـ ترجمة محمود الفندور : « الاعلام » ص : ٢٣ .

(١٦) Weill

(١٧ـ١٨) أحمد حسين الصاوى : « فجر الصحافة فى مصر » ص : ٢٨ .

(١٩) صــحيفة Le Moniteur universal التى كان محررها الرسـمى تاليران Talleyrand الذى تولى فى وقت من الاوقات وزارة الخارجية الفرنسية قبل ان يغضب عليه بونابرت ويعزله .

(٢٠) محمود سمهان : « الصحافة » ص : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢١) Publicite

(٢٢ـ٢٣) محسن محمد : « حكايات صحفية » ص : ٣٣ ، ٣٤ .

وارين هاردنج .

هل مات الرئيس الأمريكى مقتولا ؟

وارين هاردنج :

هل مات الرئيس
الأمريكى مقتولا ٠٠ ؟

خبر واحد فقط ، مكون من ٢٠ كلمة ، تناولته وكالات الأنباء والاذاعات والصحف العالمية منذ ما يقرب من ستين عاما ، ولكنه ما يزال حتى الآن ، يضرب به المثل فى الغموض والابهام .. ويلف أسباب وقوعه عدد كبير من الستائر السوداء التى نجحت ــ على الأقل حتى الآن ــ فى أن يظل السر فى بير ، بل وفى سابع بير أيضا .. بينما لم تنجح هذه الستائر نفسها فى أن تلغى الخبر تماما من الأذهان ، أو أن تتحول هى الى ستائر النسيان ..

فما يزال الخبر نفسه ، منذ حمله البرق على أجنحة أجراسه الثرثارة ، على حد تعبير « فيل أولت » .. ما يزال عالقا بالرؤوس ، يثير الريب والشكوك ، وتقفز على ذكره الى الوجوه عشرات من علامات الاستفهام .. تلك التى ما تزال بدورها تبحث عن اجابة شافية هى : من قتل الرئيس ؟.. ولماذا قتله ؟

وصحيح أن الخبر المثير نفسه والذى يعد من أبرز الأخبار العالمية اثارة فى فترة ما بين الحربين العالميتين .. ان لم يكن أبرزها على الاطلاق .. هذا الخبر قد حمل الى المواطن الأمريكى والقارىء والمستمع العالمى ، سببا وجيها جدا ، ولكن حتى والخبر نفسه تنقله عشرات من الوكالات العالمية والمحلية ، كان الناس فى الولايات المتحدة يشكون

كثيرا فى صحة هذا السبب ومن ثم راحوا يتحولون بسرعة ، الى الأحداث القريبة ، والأخبار الشخصية ، والتكهنات والتخمينات .. ذلك لأن قلة قليلة جـدا .. كانت هى التى تقف على حافة التصـديق ، ولا تصـدق تماما .. ما جاء فى هذا الخبر الذى تم بثه وتمت اذاعته مساء ١٤ أكتوبر عام ١٩٢٣ والذى يقول :

« توفى فى الثامنة وخمس دقائق من مساء اليوم الرئيس وارين هاردنج بسبب جلطة فى المخ لم تمهله سوى دقيقة واحدة » .

ولأن « الرجل » ليس شخصا عاديا ، ولأنه لم تنشر أخبار كثيرة عن سوء حالته الصحية ولأن الشعب الأمريكى كان يتابع أخباره ومعاركه مع الصحافة ، وحتى مع زوجته أيضا ، بعد أن كشف عن هذه المعارك العائلية بعض الصحفيين ، ولأن هناك بعض الخلافات العديدة التى كانت تطفو على سطح الحيـاة السياسية ، وتمتد حتى داخـل البيت الأبيض نفسه .. لهذه الأسباب العديدة ، فقد كانت وفاة الرئيس والكشف عن سببها الحقيقى ــ وهو ما لم يعرف بعد ــ من أبرز القصص التى تنافس أكثر الروايات البوليسية اثارة ..

فهل كانت الصحـافة هى السبب ؟ أم أنها زوجتـه ؟ أم أنه رئيس مخابراته ؟ أم طبيبه الخاص ؟..

واختلفت الآراء ، وتعددت ، واختلفت التكهنات أيضا ، وأصبحت المسألة شبه أسطورة .. بل أصبحت شغل المجتمـع الأمريكى الشاغل ، بل تطوع عـدد كبير من المخبرين السريين ومن هؤلاء الذين يقـومون بالمهام الخاصة ، وحتى من يدعون العلم بما وراء العالم المعروف ولكن أحدا منهم لم يصل فى بحثه الى اجابة شافية ومعقولة على السؤال الكبير نفسه .

على أن أغلب أفراد الشعب الأمريكى ، ومن بينهم عـدد كبير من المثقفين ، ومن العـارفين بالرئيس نفســه راحوا يقولون : فتشوا عن الصحـافة .. انها السبب بشكل مباشر أو غير مباشر .. ان لهـا قصب السبق ، النصيب الأكبر فى مقتل الرئيس !!

وكان فى أيدى هؤلاء ، بعض الأسباب التى كانوا يرون من خلالها ، أن العلاقة غير العادية ، وأن الكراهية المتطرفة ، ،وأن الحب المفقود دائما بين الرئيس وبين الصحـافة الأمـــريكية هى التى دفعتــه أخـيرا الى هذا المصير ..

ولكن كيف ؟

يا لها من مسألة غامضة أخـرى .. بل ان من الغريب ــ حقا ــ أن يحدث ذلك للرئيس الذى كان صحفيا أصــلا ، بل والذى مارس عددا كبيرا من الأعمال والمهام الصحفية بدءا بأعمال التحرير والكتابة العادية ، ومرورا بأعمـال الادارة ، وحتى عندما انتخب رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية فانه كان يمتلك ثلاث صحف هامــة ، وناجحــة وهى صحف « ماريون ــ أهيو ــ ستار » وأكثر من ذلك ، فقد كان حرصه بالغا على عقد المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض ، وكان يقـدم للمندوبين بيانه بكلمة : « زملائى » .. وكثيرا ما كان يقـول لهم : « نحن أبنـاء مهنة واحدة » .. بل يقولون عنه أنه كثيرا ما كان يفشل فى حجب عـدد من الأنباء الهامة عن مندوبى البيت الأبيض ، ومن أجل ذلك فقد كان يورط نفسه ويورط حكومته أحيانا بسبب بعض الاجابات التى لم يكن يعمل بالنســبة لها بالحكمة التى كان يسير عليها الرؤساء قبـله والقائلة : « ليس كل ما يعرف يقال » .. بل يقولون أيضا أن بعض اجاباته كادت أن تفسد عليه سياسة الدولة .. وقد ظل كذلك وقتا طويلا ، حتى أشار عليه وزير خارجيته ألا يجيب على أى سؤال لصحفى أو مراسل لا يقدم اليه غير مكتوب ، ونصحه بعض أعوانه عندما شاهدوا ضعفه أمام عمله

السابق أن يطلب تقديم قوائم الأسئلة قبل انعقاد المؤتمر بعدة ساعات .. ولكنه كان يرفض ذلك باصرار .. ترى ، هل كانت تلك سياسته ، أم أنه كان يحن ، وبشكل ما ، الى مهنته القديمة ؟

كذلك فقد كان الرجل يتمتع بشخصية شعبية لا بأس بها ، ويكفى أنه انتخب بأغلبية سبعة ملايين صوت كاملة .. وهى أغلبية كبيرة جدا ، ولم تحدث فى التاريخ الأمريكى وهذا وحده يكفى لأن تصبح هذه الشخصية الأنموذج والقدوة ، وذات البريق والاثارة لعشرات السنين .. وقد ازدادت هذه الشخصية نفسها بريقا ، وشهرة ، وبالتالى شعبية عندما أحرز فى بداية حكمه نجاحا كبيرا فى مسألتين هامتين .. وهما : تخفيض نفقات تسليح جيش الولايات المتحدة الأمريكية ، وكذا تخفيض الضرائب ، ولم يلق بالا الى المعارضة الشديدة من جانب العسكريين أو رجال الاقتصاد والادارة .

ولكن ، لا زمالته القديمة ، ولا بعض التقاليد التى أرساها لمؤتمرات الرئيس الأمريكى الصحفية ، ولا شعبيته الكبيرة .. هذه كلها لم تفلح فى حمايته من الأقلام الصحفية التى تنبش دائما عن الأخطاء وتفتش عنها بعينى صقر ، وتتبع رائحتها كما الكلاب البوليسية ، وتحاول دائما أن تتحين فرصة ضعف واحدة تبدو .. لكى تهاجم ، وتكشف المستور ، وربما تضيف اليه أيضا كثيرا من بنات أفكارها فما ان ظهرت على السطح بعض قضايا الرشوة واستغلال النفوذ لعدد من رجال البيت الأبيض من غير المقربين من الرئيس .. حتى أمسكت الصحف عامة ، و « ستردای ايفننج بوست » (١) خاصة بتلك الخيوط الاخبارية .. وراحت تجمعها وتتبعها فى حديقة البيت الأبيض ، وبعض أحياء واشنطن العاصمة ، ومدارسها أيضا .. حتى اشتدت الحملة عليه تماما .

على أنه خلال هذه الأوقات كلها ، كان هناك الصحفى المخبر المحقق « ساموبل ذ . كليفت » الذى كان يتابع خيوط قصة الرئيس وارين

هاردنج ، والذى كشفت متابعته الغريبة عن عدد من الخبايا والأسرار .. التى يقولون أن كشفها كان هو السبب فى اصابة الرجل بالذبحة الصدرية .. وأخيرا فى وفاته ..

بل ويقولون أيضا ، أنه حتى اذا لم تكن الوفاة قد تمت بهذا السبب ، أو بغير السبب الذى أعلن عنه فى خبر وفاته ــ جلطة فى المخ لم تمهله دقيقة واحدة ــ فان السبب أيضا لن يخرج عن ذلك الدور المقزز ، لذلك الصحفى الذى نبش حياة الرجل وأخرج منها كل مستور قضى ــ فى النهاية ــ عليه .

ومن الغريب أن هذا الرجل نفسه ــ الصحفى ساموبل ــ رفض أن يترك فريسته حتى بعد الوفاة ، بل دخل فى السباق المحموم من أجل الاجابة على السؤال الكبير نفسه .. من قتل الرئيس ، وفاز أيضا على جميع المتسابقين ، وحقا ، لقد كان هذا الرجل يمثل دور « الضبع » ذلك الحيوان الردىء السمعة جدا ، الذى يتبع الانسان فى نهم منقطع النظير .. ويظل يتبعه فترة طويلة من الوقت دون أن يستطيع أن يهاجمه طالما يقف الانسان على قدميه ، أو يعطى له وجهه ، وطالما يحس قوته .. فاذا غفل الانسان عنه .. ولو للحظة واحدة ، وأدار له ظهره ، أو اذا جلس على الأرض أو نام ، أو حتى مال بجذعه ليلتقط شيئا ، أو استدار ليتناول جرعة ماء ، أو بدا عليه الارهاق ، فانه يهاجمه فورا .. فاذا لم يجد طعامه باستخدام هذه السبل .. فهناك القبور التى لا يجيد نبشها مثله .

ولكن هذا « الضبع البشرى » كان يبدى خلال الأيام الأخيرة لحياة رئيسه بعض العطف عليه ، حتى قيل أنه سئم من متابعته تماما .. وأكد ساموبل نفسه ذلك بمقال افتتاحى ، يبدو فيه أنه يراجع نفسه ، وأنه يندم على ما اقترفه من ذنوب كثيرة ، فى حق الرجل .. بل ان عنوان المقال نفسه كان هو « مراجعة هادئة لرجل هادىء » .. حتى أن زوجته ــ على

ما قيل ــ سألته أن يقرأ هذا المقال قبل وفاته بثوان معدودات وهو يرقد فى جناحه الخاص بفندق فى سان فرانسيسكو .. حيث دار بينهما الحوار التالى :

الزوجة : هل قرأت صحف اليوم ؟

الرئيس : ولماذا ؟ ولماذا .. وهل هناك ما يهم ؟

الزوجة : نعم ..

الرئيس : لا أعتقد .. فالدنيا على ما هى عليه ، والناس فيما هم فيه من شئون ، كما أننى ضقت تماما بهجومهم على .. انهم يهاجموننى دائما ، بسبب وبغير سبب .

الزوجة : ولكن هذه افتتاحية لا تهاجمك .

الرئيس : لا أصدق .

الزوجة : بل انه الواقع حقا .

الرئيس : ومن هو كاتبها ؟

الزوجة : انه ساموبل نفسه .

انطلق الرئيس يقبض على الصحيفة وهو يردد .. ساموبل .. ساموبل .. غير معقول ، غير معقول .. نظر الرجل الى عنوان المقال ثم ناول زوجته الصحيفة لتقرأ له .. ولكن هذه ما تكاد تبدأ قراءتها حتى كان الرجل قد مال بجسده على الوسادة .. وفارق الحياة ! ..

كل ذلك صحيح ، بل وتردد أكثر منه ، من تلك الصور التى تشير الى سأم المطارد ــ بكسر الراء ــ ولكن ساموبل نفسه ، بدأ العمل من جديد .. ومع اختلاف فى الهدف هذه المرة .. نعم ، انه ما كاد يستمع الى خبر الوفاة ، الا وقد أحس أن قصصه الاخبارية ، وأن تحقيقاته كانت هى

السبب ، بشكل أو بآخر .. ومن ثم ليبدأ بحثه يأخذ طريقا آخر ، ولتبدأ تحرياته تمسك بخيوط الحادثة ، وتقبض عليها جيدا .. وكانت بدايته الى ذلك ، بعد هذا الاحساس الجديد .. أو هذه المراجعة الانسانية الهدف النهائى الذى حدده فى سؤال يقول :

هل مات الرئيس وارين هاردنج ميتة طبيعية .. أم أن فى الأمر جريمة ؟

بعد كثير من اللف والدوران ، والانتقال الى أكثر من مكان ، ومخاطبة عشرات الأشخاص ، ومن جميع المستويات الفكرية ، والطبقات الاجتماعية ، وبعد سهر كثير وجمع لعدد لايحصى من المعلومات،ومقارنتها ببعضها وبأقوال الأطباء والقادة والمعارف والأصدقاء والممرضين والممرضات والخدم والخادمات أيضا ، بعد كل ذلك ، كانت قد طفت على السطح عدة مشاهد غريبة ، أمكن بربطها ببعضها ، وبالعمل على اتصالها ببعض الأحداث الماضية وكذا بعض المثالب والفضائح ، والقصص والشائعات .. أمكن للصحفى أن يثير عدة تساؤلات هامة أخرى .. صحيح أنه سبق بها غيره ، بل سبق ببعضها لجان التحقيق نفسها ، ولكن هذه التساؤلات بدورها قد زادت من غموض الحادث عدة درجات ، بل راحت — هى الأخرى — تلفه بعدد من الستائر الجديدة ، حيث دارت بالجميع فى متاهات عديدة .. كانت هذه صورتها :

— لقد حدث فى البداية خلاف كبير بين الأطباء أنفسهم .. يستوى فى ذلك كبارهم وصغارهم .. البعض يقول أن الرجل مات كما يموت كل انسان .. ميتة ربه ، تلك التى لا يفرق عزرائيل حيالها بين رئيس الولايات المتحدة وبين سائقه .. والبعض الآخر ينفى ذلك ، وباصرار ، ويبدى على الملأ شكه الكبير فى طبيعة الوفاة .

— وعندما حضر طبيب البيت الأبيض الخاص ، وأخذ بعض العينات وقام بتحليلها سريعا ، عاد برأى غريب .. أو بمتاهة أخرى من هذه

المتاهات نفسها .. عاد يقول أن السبب فى الوفاة أكلة السمك التى تناولها على الغذاء .. لقد أصابته بحالة فريدة من حالات التلبك المعوى ساعدت على تصاعد حدة الجلطة .. مما عجل بوفاته .. وعلى الفور بادر رئيس الطباخين الى الاعلان فورا عن أن طعام الرئيس لم يكن به خلال ذلك اليوم أى نوع من الأسماك التى لا يحب أكلها الا نادرا .. أما زوجته فقد راحت تؤكد أنه تناول السمك فعلا مع الغذاء .. وأنها لا تعرف شيئا عن بيان رئيس الطباخين .. فمن أين اذن جاءت الأسماك ؟

ــ وارتفع صوت عديد من الأطباء ينادى بضرورة تشريح الجثة .. وصرحوا بذلك علانية الى الصحفى ، الذى كان يفتش عن أسباب الجريمة .. تماما كأحد الكلاب البوليسية .. ولكن الزوجة نفسها رفضت السماح بتشريح جثة زوجها .. وأصرت على رفضها تماما ، وعلا صوتها وهى تردد لا .. لا .. لن أسمح بالتشريح ، بل وأكثر من ذلك . وعلى مسمع من جميع الحاضرين وأعضاء لجنة التحقيق ، وكذا .. على غير رغبة من الأطباء الذين يواصلون بحثهم .. تساءلت الزوجة بصوت مرتفع .. لماذا لا يشترك معكم فى تجرياتكم الدكتور «آدمز» الجراح الخاص بالرئيس. وأضافت قائلة .. اننى أعلم أنه كان قد نصحه بعدم القيام بهذه الرحلة الى « سان فرانسيسكو » .

كانت ملاحظة لزوجة الرئيس .. قوبلت بشىء من الامتعاض من جانب الحاضرين وحيث كان لسان حال كل منهم يقول .. هل آدمز فقط هو الذى يستطيع أن يكشف عن « المستخبى » .. وهل هو أفضل من الجميع فى نظرها ؟ .. تماما كما تساءلت عيونهم عن سبب رفضها تشريح جثة زوجها .. فى نظرات زائغة .. قلقة ..

ولكن هذه الملاحظة لم تكن لتفوت على مخبر صحفى قدير .. كان تابع التحقيقات بعينين مفتوحتين تماما ، وأذنين تشبهان سارية محطة رادار ، تقومان بالتصنت الدائم .. على كل صغيرة وكبيرة ..

وبأنف صحفية يحسده عليها كثيرون .. وتستطيع أن تتشمم مواقع الأنباء الهامة .. فلماذا ترفض تشريح الجثة ؟ .. ولماذا هذا الرجل بالذات ؟

كان سامويل من هذا النوع من الصحفيين الذى يفكر فى كل شاردة وواردة ، ويمسك بتلابيبها .. فقد تقوده الى خبر يكون له وقع القنبلة .. وعندما جاءت ملاحظة زوجة الرئيس التى ترفض فيهـا تشريح الجثـة وتطلب أن ينضم دكتور آدمز الى فريق الباحثين .. لفتت هذه الملاحظة نظره تماما .. وأيقظت حاسته الصحفية .. بل حواسه جميعها .. عنـدما تحولت الى عدد من الأسئلة التى قفزت الى ذهنه الصحفى .. والتى تنبع جميعها من سؤال واحد كبير .. سؤال يقول : هل للدكتور آدمز دخل فى هذه الحادثة ؟ ..

ولم يضيع سامويل وقتا ، بل انطلق يبحث فى أرشيف صحيفته ، ثم فى أرشيفه الخاص ، عن كل ما يتصل بهذا الرجل ، بل عاد الى بعض من عرف من أصدقائه .. ثم أخذ يربط بين حديث الأصدقاء .. وبين المعلومات الجاهزة ، وكذا بين تلك القصة القديمة التى كان هو نفسه قد أعلن عنها منذ سنوات ، والتى تربط بين الرئيس هاردنج ، وبين صديقة له منها طفلة غير شرعية .. وهى علاقة تعرفها تماما جدران البيت الأبيض كما أن زميلات الدراســة لهذه الطفلة يعرفن تماما أنها ابنة الرئيس الأمريكى .. فلماذا نصحه الجراح الخاص اذن بعدم الذهاب الى سان فرانسيسكو ؟ .. ولماذا أصر هو على الذهاب اليها ؟ .. ثم .. هل لرفض مسز هاردنج تشريح جثة زوجها ارتباط بالحادثة نفسها ؟

وبدأ سامويل يكتب عن مخاوفه .. ويعرض الخطوط الأولى التى توصل اليها على القراء ، وتحت أنظار رجال التحقيق ، ولكن أحدا لم يلق الى هذه الكتابات بالا فى البداية ولم تزد تأثيراتها على أنها بدأت تضيف مزيدا من الغموض الى قضية وفاة الرئيس ولكن ذلك لم يفت فى عضد الصحفى .. وانما تحولت المسألة عنده الى قضـية خاصة رأى هـو أن

يستمر فى بحثها .. وأن يحاول أن يقنع الآخرين بذلك .. بل انه رأى أن واجبه يحتم عليه ذلك ، نظير ذلك الهجوم العنيف الذى أصاب به الرجل فى حياته .. ومن ثم ، وفى لحظة من لحظات الشهامة ، ويقظة الضمير الصحفى ، بعد طول رقاد ، قرر أن يترك تماما دور الضبع البشرى ، وأن يعمل فى خدمة المهنة والعدالة ، وأن يحاول جهده أن يصل الى شىء ذى بال .. فأخذ يعيد ترتيب أوراقه ، ويدرس القضية مرة أخرى ، ويتوقف عند كل كلمة ، وكل حرف .. وكانت أكثر الكلمات التى توقف عندها هى كلمة : السم فهل مات الرئيس مسموما ؟ .. ومن الذى دس له السم فى الطعام ؟ ..

من خلال قراءاته لتقارير الأطباء ، وعلى وجه الخصوص تقرير اخصائية السموم بالبيت الأبيض عرف أن هذا السبب بعيد ، ولكنه محتمل أيضا .. أما أنه بعيد فلأن الرئيس كان طوال حياته يخاف السموم ، ولا يسمح بوجود أى نوع منها حتى فى صيدلية البيت الأبيض .. ولكنه ، وبتفكير محقق يرى أن دس السم للرئيس فى طعامه لا يتطلب بالضرورة أن يأتى من داخل البيت الأبيض ، أو من فوق رفوف صيدليته ، كذلك ، فمن منا لا يخاف السموم ؟ .. وهل هناك أحد يحبها ؟ .

وباحساس الصحفى أيضا ، رأى أن استبعاد أخصائية السموم لهذه الفكرة يقوم على أساس أن أنواع السموم المعروفة — وكما جاء فى تقريرها — هى على وجه التحديد : حامض الكربونيك ، والزرنيخ أو سلفيد البوتاسيوم .. ولكن لماذا لا يكون هناك بعض أنواع أخرى من السموم ، لا تعرفها هذه الاخصائية ؟ ..

وبسرعة ، تناول دليل التليفون ، وحدد أكثر من رقم ومكان لعدد من الأخصائيين ومعامل التحاليل التى يتوقع أن يجد بينهم من يفيده فى هذا الموضوع .. حيث قضى بين هؤلاء نهار اليوم التالى ، حتى كاد هو أيضا أن يصبح خبيرا بالسموم .. وقد عرف ضمن ما عرفه من حكاياتها

وأنواعها واستخداماتها .. أن هناك بعض الأنواع الأخرى ولكنها لاتتوافر فى الولايات المتحدة الأمريكية..وان توافرت ، فبشكل نادر للغاية .. وفى بعض الصحارى البعيدة عن العاصمة ، وأما موطنها الأساسى فجنوب آسيا الشرقى ، وبعض بلدان غرب أفريقيا ومرة أخرى .. وكمحقق صحفى تساءل : أليست هذه حكاية جميع الأدوية والعقاقير ؟ .. انها — فى حدود علمه — عبارة عن نباتات وأعشاب برية لا يتوقع أن تنمو فى حدائق واشنطون ، أو فى حديقة البيت الأبيض ، أو فى شرفاته بين أحواض الزهور .. ولكن المعامل العلمية ، والصيادلة ، والكليات الجامعية تحصل عليها من أماكن بعيدة جدا .. فلماذا لا يكون قد دس للرئيس فى طعامه بعض هذه الأنواع الجديدة من السموم ؟..

ومن هنا ، فاذا كان تقرير الأخصائية يستبعد حكاية السم ، فان ما تجمع لديه من معلومات تجعل الأمر واردا ومحتملا ..

وعاد الرجل بهذه المعلومات الى الأخصائية ، التى لم تنف امكانية وجود بعض أنواع السموم التى لا تعرفها ، ولكنها أضافت فى نفس الوقت أن وفاة أى شخص متأثرا بتناول السم هى مسألة لا تفوت على أى طبيب، بمجرد النظرة الأولى الى جثته ، والى وجهه .. كما أن تناول أى نوع من السموم يسبب للضحية آلاما رهيبة تبدو آثارها واضحة على تقاطيع وجهها حتى بعد الوفاة لوقت غير قصير..والمعلومات التى عندها والمتوافرة فى تقارير زملائها من الأطباء ، وكما أعلن على العالم كله ، أن الرئيس مات فورا وأن الأزمة لم تمهله سوى دقيقة واحدة ..

— ألا يكون من بين هذه السموم الجديدة ، ما يمكنه القضاء على الضحية خلال مثل هذا الوقت القياسى ؟

— ان أسرعها هو الزرنيخ .. ولكن من الذى حمله الى الفندق ؟ وكيف ؟

— وهل يمكن ألا يظهر الزرنيخ فى طعام الرجل ؟

ـ يمكن طبعا .. بشرط أن يضعه خبير .. وأن يحدد الكمية ، ونوع الطعام أو الشراب الذى يضعه فيه ، والذى يذوب معه ، ويتفاعل بشكل لا تحسه أو تستشعر الضحية وجوده ، كما يمكن وضع أنواع منه فى الفاكهة أيضا .

ـ ... وهل يمكن ألا تظهر آثار الوفاة بتأثير منه على جسد الضحية ؟

ـ فى أحوال نادرة للغاية .. وبالنسبة لتفاعل الزرنيخ نفسه مع بعض المواد الأخرى .. انه فى هذه الحالة قد يقتل فورا دون أن تظهر آثاره على الضحية ، كما أنه فى بعض الأحوال الأكثر ندرة ، كانت الضحية قد تناولت نوعا من الطعام الذى قضى بتركيباته المعينة على الكمية القليلة من الزرنيخ التى وضعت فى طعام آخر .. أو فى سائل ..

وبينما الصحفى يفكر فى حكاية السم .. ويعمد الى دراسة أدق تفصيلاتها ويربط الأحداث ببعضها .. كانت قد برزت فى ذهنه فكرة ، سرعان ما أصبحت خاطرا ملحا .. يقول بضرورة تعقب « دكتور آدمز » . فيبدو أنه حول شخصيته تدور الحلقة المفقودة ..

ونجح الرجل فى تعقبه له ، ونجح أيضا فى الجلوس اليه ، وقال الجراح الخاص للرئيس أنه نصحه فعلا بعدم الذهاب الى سان فرانسيسكو لأنه كان يخشى من تجدد اصابته بالذبحة الصدرية ، ولكنه سافر اليها مستخدما السفينة بدلا من القطار .

ـ لماذا ؟

ـ لسبب خاص جدا .

ـ هل هو يتصل بعودة العلاقة بينه وبين صديقته ؟

ـ اذن فأنت تعرف حكايتها ؟

ـ لقد كنت أنا من كشف عن سرها ، وعن سر ابنته اليزابث نان منها ..

ــ ولكن قل لى .. هل تعلم زوجته بذلك ؟

ــ لست أدرى .

ــ يقولون أنك تعرف كل شيء ؟

ــ دعهم يقولون .

... وخلال يوم واحد بعد هذا اللقاء ، كانت قد تجمعت للصحفى بعض الحوادث المثيرة التى تلقى بأكثر من ضوء على القضية .. وكان من أهم هذه الجوانب ما جاء على لسان زوجته نفسها فى حديث صحفى ــ وليس فى تحقيق رسمى ــ من أن زوجها كان يتناول كوبا من الحليب ، فى نفس اللحظة التى كانت هى تقرأ له السطور القليلة من مقالة ساموبل .. التى يبدو فيها وكأنه يصالحه أو يريد أن يبدأ معه صفحة جديدة ...

فهل يكون هذا الكوب هو السبب ؟

ومن الذى دس له فيه السم ؟

هل هى الزوجة فقط ؟ أم بمصاحبة أحد الأعوان .. من هؤلاء الذين يعرفون شيئا عن خواص السموم ؟ ومن يكون هذا الرجل ؟

عشرات من علامات الاستفهام العديدة ، بدأت تترى على رأسه ، تلح عليه بعنف ، لقد شعر أنه يقترب من نهاية القصة ، ان جميع خيوطها تتجمع الآن عنده .. ولكنها على الرغم من ذلك ، تعود فتبتعد ، أو يلفها التيه مرة أخرى .. وها هو يدور فى دوامة الأحداث اللعينة ..

ــ فأين ذلك الكوب ؟ ..

ــ ومن يكون الرجل ؟ ..

ــ وما الذى دفعه الى ذلك ؟

ــ وهل تم بمساعدة أحد ؟

.. وأخيرا ، هداه تفكيره الى أن يعيد قراءة بعض الأسماء التى تمثل

بطانة زوجة الرئيس ، والذين تعتبرهم هى من أصدقائها ، كما ربط بين تفضيل الزوجة للجراح ، فى عدد من رحلاتها ورحلات زوجها ، حتى هذه الرحلة الأخيرة ، وبين قصة قديمة ألمح اليها من طرف خفى بعض الأصدقاء .. أصدقاء الزوجة وأصدقاء الطبيب ـ معا ـ وكذا بين ملاحظاتها القديمة التى أوردتها خلال التحقيق نفسه ، والتى أثارت بعض الأطباء .. وبمتابعة تحركات الطبيب الجراح ، وتصرفاته عرف ساموبل من بعض العاملين فى الفندق الذى حدثت به الوفاة ، ومن بعض المقربين من الرئيس أن الطبيب لم يكن يترك الزوجة الا نادرا ، وأنه تناول الشراب معها قبل وقوع الحادث بوقت قصير ..

وبسرعة كانت قد قفزت الى ذهن الصحفى معادلة ليست صعبة .. معادلة تقول :

رجل متزوج يعيد خيانة بيت زوجية مرة أخرى ويسافر مع صديقته دون علم زوجته + ابنة غير شرعية + خلافات زوجية دائمة + طبيب صديق للزوجة ويعلم من أمرهما كل شىء ..

لماذا اذن لا يقوم بتبليغ الزوجة ؟ ولما لا تقنعه هى بمساعدتها على التخلص منه ؟ وربما يكون خطأ ساموبل الوحيد أنه كان دائما يعلن عن ريبه وشكوكه .. على الورق دون أن تكتمل له المعالم والأسس التى تجعلها وقائع مؤكدة .. والواقع أن هذا الخطأ قد أضر به كثيرا .. فما كاد يعلن عن احتمال وجود علاقة ما بين الزوجة وأحد موظفى البيت الأبيض.. حتى كان خبر اعلان وفاة الطبيب منتحرا هو موضوع الساعة ..

ومرة أخرى أحس ساموبل ، أن الأمر يكاد يفلت من بين يديه .. وأنه يدور وحده فى حلقة مفرغة ، وأن أحدا لا يريد مساعدته فى مداومة العمل بهذه القضية بل يقال أنه تلقى أكثر من تهديد بالقتل ، اذ هو أصر على الاستمرار فى بحثها .. بل ان عددا من المحققين أنفسهم كان الملل قد تسرب الى نفوسهم ، ومن ثم فقد كان يثيرهم حقا أن يستمر هو فى العمل،

وأن يسبقهم الى النتائج ، بل وجد هؤلاء فى ذلك تدخلا فى اختصاصاتهم، ينبغى أن يوقف عند حده ، ومن ثم أو صدوا جميع الأبواب فى وجهه ولم يعد أحد يمده بما يريد من أوراق التحقيق أو تقاريره أو نتائجه ..

أكثر من ذلك ، عندما علم ساموبل عن طريق تحرياته الخاصة أن انتحار الطبيب قد تم بعد ساعة واحدة من زيارة السيدة هاردنج الى منزله متخفية .. وطلب فتح التحقيق فى ذلك الأمر واضافته الى الحيثيات.. لم يجد أذنا صاغية ..

وأخيرا .. عندما فشل فى أن يحرك دوائر الشرطة .. اتجه الى مدير مخابرات واشنطن .. وكانت له صلة قديمة به .. قال له « انى ألوذ بك » تحرك .. ان دم الرئيس يكاد يذهب هدرا .. ان زوجته كانت بمنزل الطبيب المنتحر ..

هز رئيس المخابرات رأسه .. ومال بظهره مستندا على كرسيه ثم قال له ..

ـ وأى عجب فى تلك الزيارة ؟ ..

... ساعتها عرف الرجل أنه قد فت فى عضده تماما .. وأن هناك من لا يريد أن يعرف الناس .. من الذى قتل الرئيس وارين هاردنج .. ولماذا؟ بينما أغلقت أوراق التحقيق تماما .. ووضع ملف القضية كلها على الرف.. رغم التحقيقات العديدة التى كتبها الرجل بعد ذلك .. ونبه فيها ، بل وأثبت كذلك الصلة الوثيقة بين السيدة هاردنج .. زوجة الرئيس الأمريكى .. وبين الطبيب المنتحر .

هل عرفتم أنتم ـ رغم اغلاق ملف القضية ـ من الذى قتل الرئيس.. ولماذا ؟

---

(١) Saturday ev. Post

لويس فيليب

عندما ولدت حرية الصحافة

لويس فيليب :

عندما ولدت

حرية الصحافة

كانت أيام هذا الرجل ، وعلى وجه التحديد « أواخر أيامه » .. من أهم الأيام التى شهدت تطورات صحفية عديدة .. بل ان هذه الأيام نفسها ــ ولا أقول عهده كله أو حكمه كله ــ تعتبر قنطرة بين فترتين ، بين صحافتين ، ليس بالنسبة للصحافة الفرنسية وحدها ، وانما بالنسبة للصحافتين الأوربية والعالمية فى آن واحد .

على أننا نبادر الى القول ، أن الرجل ــ على الرغم من ذلك ــ لم يكن من هؤلاء الذين قاموا بنثر الورود أمام الصحافة والصحفيين ، أو مهدوا طريق العمل أمامهم ، أو مدوا لهم يد المساعدة ، على أية صورة من صورها .. بل لقد كان موقفه منها يغاير تلك المواقف مغايرة تامة ، ويفصل بينه وبينها مسافات بعيدة !

ذلكم هو « لويس فيليب » .. ثالث ملوك ما يعرف فى التاريخ الفرنسى باسم « عهد الاصلاح ١٨١٥ ــ ١٨٤٥ » والذى أعقب سقوط نابليون ..

أما هذه التطورات الصحفية التى بدأت رياحها تهب على الصحافة فى آخر أيامه فقد جاءت كلها على أثر ظهور « حرية الصحافة » .. حيث ساهم المناخ الجديد فى دفع الصحافة عدة دفعات الى الأمام .. كما تفاعلت هذه

الحرية نفسها عدة تفاعلات ايجابية .. مع التطورات الحضارية الحادثة .. تلك التى أثرت فى « الموقف الصحفى » أبلغ تأثير ..

على أن أهم من ذلك كله ، ما يقـول به عـدد من المؤرخين ورجال الصحافة ، من آن هذه الحرية الجديدة ، قد ولدت فى عهـد الرجل أيضا ــ لويس فيليب ــ حتى وان كان ميلادها قد تم على الرغم منه .. ولكن كيف ؟

ذلك لأن الرجل ، وهو ثالث ملوك عهد الاصـلاح بعـد « لويس الثامن عشر » و « شارل العـاشر » رأى بمشورة عـدد من أعوانه ، أن يستفيد من تجارب هذين المريرة ، والدموية آحيانا ، مع الشعب الفرنسى، ممثلا فى صحافته وأحـزابه ، تلى التى كانت تؤيد الثورة ، وتعمل على الدفاع عن تنائجها ، والانتصار لها فى مواجهة أحزاب عديدة أخرى قام بعضها على أساس من الهجوم غليها ــ الثورة ــ والقاء التهم فوق رأسها، والنظرة اليها من زاوية نتائجهـا الدموية وحـدها ومن ثم التنـديد بها وبرجالها .. وربما كانت هذه هى أبرز مظاهر السياسة الفرنسية خـلال هذا العصر المسمى بعصر الاصلاح ..

أقول .. رأى الرجل أن يفيد من تجارب سابقيه وألا يناطح الشعب والصحافة والصحفيين رأسا برأس ، وانما يظهر بمظهر الحريص على الحياة الحزبية ، والصحفية الحقيقية بل والحريص أيضا على أن تتبوأ الصحافة مكانتها اللائقة بها ، وأن تكون فى مكان الصدارة من عهده .. بينما هو فى الواقع يحنى رأسه لعواصف الأيام الأولى ، حتى تمر على خير ، ويتجنب مواجهة الصحافة المنتصرة على سـلفه ، المتحمسـة تماما لكى تقتلع من طريقها كل من يعترضها .. بل وينشر بين أصدقائه وجلسائه أنه صـديق للقلم ، صديق للحرية أيضا ويبلغ فى أدائه لدور الصديق مبلغا يحسـده عليه كبار الممثلين ، حيث راح يقرب بعضهم منه ويقدم لهم الهدايا والمنح، بل والمساعدات المالية أيضا .. كل ذلك بينما هو يضمر لهم غير ما يظهر ،

ويريد بهم شرا لا يقل مقداره عما أراده بهم أسلافه .. ويجلس بين أخلص خلصائه يتحين الفرص ، ويرسم الخطط للايقاع بهم ، وبضاعتهم « الرديئة » ، وللتنكيل بكل من يحمل القلم .. أو يدعو الى حرية الصحافة ..

ومن هنا فقد راح الرجل يوسع صدره للنقد الصحفى ، ويتقبل الهجوم عليه ، ثم على أصدقائه بصدر رحب ، بل ويصبر على الصحفيين كثيرا ، ويعطى لهم الفرصة تلو الفرصة ، بل ولا يمانع فى أن يقوم أى فرنسى باصدار صحيفة أو مجلة يريد اصدارها .. وأكثر من ذلك ، فانه راح يوقف العمل بعدد من التشريعات الصحفية الصادرة فى عهد سلفيه ، وعلى وجه الخصوص ما استهدف منها رفع أجور البريد للحد من انتشار توزيعها فى المدن والريف الفرنسى ، وما استهدف كذلك فرض قانون التمغة لعرقلة ذلك الانتشار للصحف القديمة ، وللحيلولة دون صدور صحف جديدة .

وعجيب أمر الصحافة ، وعجيب كذلك أمر رجالها .. فان الرجل ما كاد يفعل ذلك ، حتى فتحت الصحف نيرانها عليه ، وأطلقت عليه دفعات اثر دفعات ، وزادت فى حدة الهجوم عليه ، بل وبدأت الصور الهزلية والكاريكاتورية التى تتناوله تتسلل الى أعمدتها ، وانتشر بينها نوع من الكارتون لا هم له ولرساميه الا تصيد أخطاء الرجل الذى كان الضجر من الصحافة والصحفيين قد بلغ به مبلغه .. ولم يعد فى صدره متسع لتقبل نقد جديد ، أو للاستمرار فى القيام بأداء دور الصديق ؛ بينما هو فى الواقع يريد أن ينقض ، وأن يضرب ضربته ..

نعم ، انه يعلم تماما أن الصحافة هى التى أسقطت سلفه شارل العاشر ، بعد أن أحرزت عليه أكثر من انتصار .. ومن ثم فهو يعلم أيضا أنه انما جاء الى كرسى العرش الفرنسى الا بعد ذلك الانتصار الصحفى الكبير والذى شهد به حتى أخلص رجاله له .. ومن ثم فهو

يعلم كذلك أن الصحافة هى صاحبة الفضل الأول فى ارتقائه لهذا العرش حتى ولو تم ذلك بطريقة غير مباشرة .. ولكنه ، ومن زاوية أخرى ، وكما صرح لأحد هؤلاء الرجال ، لن يسمح بتكرار المشاهد السابقة ، ولا بأن يعيد التاريخ نفسه .

والأدهى من ذلك كله ، أن تعود الصحف ــ بعد كل ما قدم لها ــ الى التحالف مع المعارضة أو بأسلوب آخر ، ليتخذ المعارضون منها منبرا يوجهون منه الطعنات الى الرجل .. وأن تكون نتيجة ذلك كله ، هو سلسلة من الاغتيالات السياسية لعدد من رجاله ، انتهت بتلك المحاولة الشهيرة التى قام بها « فيشى » لاغتيال الملك لويس فيليب نفسه .

.. وبينما كانت الصحف تنقل أخبار هذه المحاولة ، كان الملك يوقع باسمه وبريشته الملكية ، وبمداده الأحمر على قانون ٩ يوليو ١٨٣٥ .. ذلك الذى كان شوقه قد طال الى توقيعه .. وكان ينتظر تلك الفرصة ، وهو على أحر من الجمر .

وبينما كان الشعب الفرنسى يقرأ نصوص القانون الجديد ، وتدور تعليقاته فى المقاهى والأندية والحدائق وعلى الأرصفة أيضا ، حول الصحافة التى غرر بها ، والملك الذى أجاد تمثيل دوره ، بل واخراج المسرحية نفسها .. بينما كان ذلك يحدث ، كان عدد من الكتاب والصحفيين يعلنون قبولهم للتحدى ، ويواصلون كتاباتهم التى تعبر عن صمودهم ، وشاركهم فى ذلك عدد من الأدباء الكبار الذين كانت تجمع بينهم وبين الصحافة ، زمالة القلم ، كما أن القانون الجديد ، لم يفرق بين مادة أدبية ، ومادة صحفية ، بل رأى أن يعترض جميع المواد التى تنشرها الصحف ، والكتب مساويا فى ذلك بين المقالة النقدية السياسية ، والمقالة الأدبية ، وبين الكاريكاتير والكارتون .. والصورة القلمية ، حتى جاء ليهاجمه الصحفى الكبير « اميل دى جيراردان » والأديب « فيكتور هيجو » بينما برز فى هذا الهجوم على وجه خاص « لامارتين »

الذى كان يرى أنه قانون « اغتيال الصحافة » .. بينما كتب « برودون » جملته الشهيرة والتى ترددت بعد ذلك كثيرا : « أحيانا أشتعل شوقا الى الكتابة حتى لو كلفنى السطر الواحد ستة أشهر فى السجن » (١) .

.. وعلى غير ما كان الملك يهوى ، ورغم أنفــه أيضا ، بدأت بعض المشاهد السابقة تتكرر بشكل أو بآخـر .. بل يمكننا القــول ، بأن السحب الثائرة ، وأن الغيوم بدأت مرة أخرى تظهر فى الأفق البعيد ، ثم تعود فتقترب ، وتتجمع لكى تثبت خطأ نظرية لويس .. وأن التاريخ لابد وأن يعيد نفسه ، ما دامت المقدمات جميعها متشابهة ، ومع اختلاف غير مؤثر فى التفاصيل ، أو الأسماء ..

لقد بدأ التحايل على القــانون ، وانتشرت محاولات القفــز فوق حــدوده ، أو التسلل من بين ثغــراته ، وكان هو ككل قانون يريد أن يخنق الحــرية ، به ثغرات عديدة ، يعــرف المفكرون والأذكياء ، كيف ينفــذون منهــا الى الشــعب ، عن طريق الصحف السرية ، واختراع الشخصيات والأســماء الرمزية ، وكثرت محاولات تهريب الصحف الى داخل باريس وخارجهــا .. ونذكر من ذلك ــ مثلا ــ أنه فى محــاولة ناجحة للتهرب من الضرائب المرتفعة التى جاء بها القانون الجــديد على الصحف ، وتلك التى فرضت على الورق فان صاحب جريدة « المنديل السياسى ــ لى موشوار بوليتيك » (٢) قفز فوق هذه الحواجز عن طريق حيلة طريفة .. حيث قام بتجارب عــديدة لاصــدار صحيفته على هيئة منديل .. وطباعتها على قطعة من القماش .. ونجحت التجارب ، وصدرت الصحيفة ، وفى أكثر من لون ، وانتشرت بين القــراء انتشارا هائلا ،

---

(١) فرنان تزور ترجمة محمود الغندور « الاعلام » ص : ٣٤ .

(٢) محسن محمد : (حكايات صحفية) ص : ١٧٢ .

حيث كانت مادتها شعبية الطابع ، كما كان حرص صاحبها بالغا على نشر الأخبـار التى تتحدث عن المثالب العديدة ، ونشاط المعارضة كما كان الناس يستخدمونها بعد قراءتها استخدامات عديدة ..

وصحيح أن الوقت كان قـد طال ، حتى تكتمل الدائرة الملتهبة .. وصحيح أيضا أن لويس فيليب كان قـد أحكم قبضه تمـاما .. ولكن المرجل كان يغلى .. ويغلى ، وينتظر لحظة الانفجـار حتى ضاق الشعب تماما بالرجل الذى أعاد القيـود والسدود ، وأراد أن يلجم المعارضة ، وأن يغتال الصحافة ، فقامت ثورة ١٨٤٨ ضده ، تلك التى يجمع رجال التاريخ والصحـافة ـ معا ـ على أنها شهدت الميـلاد الحقيقى لحرية الصحافة .. كأثر من آثار محاولات الكبت والاعاقة والمصـادرة ، التى قام بها الرجل ، بعد أن كشفت محاولة اغتيـاله عن وجهـه الحقيقى ، أو عن الدور الحقيقى الذى كان يمارسه .

وخلال مناخ الحـرية .. ظهر عدد من الصحفيين الموهوبين ، ومن « صناع » الصحافة أيضا ، فشهدت الصحافة الفرنسية تطورات عديدة من حيث الطباعة والتحرير ، كما شهدت ميلاد الأخبار البرقية ، والصورة الصحفية .. وحيث تبرز أسماء « شارل لوى هافاس » رائد الأخبـار البرقية أو ـ وكالات الأنبـاء ـ وكذا « أراجو » رائد التصـوير .. وغيرهما من الرواد الذين بدأت نتائج أعمـالهم فى الظهور الحقيقى ، والفعال ، خلال هذا المناخ نفسه كما بدأت تأثيراتهم تظهر على صفحات الجرائد العالمية والأوربية الأخرى ..

ألا يكون الرجل بذلك ، قد ساهم فى جميع هذه التطورات .. حتى وان كان ذلك دون قصد منه ؟!

لقد كتب أحد الصحفيين يومها يقول عن ذلك كله :

« ان عهد الرجل لم يكن كله شرا دائما .. بل كان فيه الخير الكثير وأكثر من ذلك .. فان هذا الخير المتولد نفسه كان ينبت من بذور الشر التى كان الرجل يغرسها للصحــافة والصحفيين .. هنا وهناك .. وليس ذلك بجديد .. فكثيرا ما يولد الشر خيرا .. وقد عرفنا نحن ذلك على يد كثير من ملوك فرنسا السابقين » ..

وكأنى به يردد ذلك المثل العربى القديم .. « رب شر أنتج خــيرا » .

أو الحديث : « رب ضارة نافعة » ...

حتى على المجال الصحفى أيضا .

سـعيد :

لا .. أن الجورنالجية
غير سواسية

سعيد :

لا ..
ان الجورنالجية
غير سواسية

أراد أبوه أن يكون صاحب « البيت الصحفى » .. تماما كما هو المالك الوحيد والزارع والصانع والتاجر .. وأن تمر فائدة الشعب من خلال مصلحته ومصلحته أسرته .. ومن هنا فقد راح — محمد على — يشرف بنفسه على الصحيفة الأم « وقائع مصرية » حتى قيل أنه « كان يكلف موظفيه بكتابة المقالات ويوعز بنشر الأخبار ويراجع مسودات الجريدة قبل طبعها ويعاقب المسئولين اذا أساءوا اختيار الخبر أو المقال ، وكانت أوامره ورقابته لها لونا من ألوان التنظيمات التى سبقت تشريع المطبوعات فى عهد خلفائه » (١) .

وعندما كان ابن أخيه — عباس الأول — يحكم مصر قبله .. كان عهده عن حق وصدق : « عهد الرجعية والنكسة لأن فيه وقفت حركة التقدم وفترت النهضة التى ظهرت فى عهد محمد على » (٢) .. ويذكر له ضمن ما يذكر من صور التأخر اغلاق أكثر المدارس أبوابها وابعاد رجال الاصلاح الى السودان واستدعاء معظم أعضاء البعثات الدبلوماسية ..

وأما عن الصحافة ، فقد اعتبر قراءة الناس — العامة — لها وعلى حد تعبيره « سبة لا تليق .. وذلا لا يطيق » .

كان ذلك عن الواليين السابقين لـ « سعيد » بن محمد على الكبير والمولود عام ١٨٢٢ ، والذى اختار له أبوه السلك البحرى ، فانتظم بعد

أن أتم دراسته فى خدمة الأسطول قومندانا لاحدى البوارج التى كانت ترفع علم مصر فوق ظهر البحار .. وقد ارتقى الرجل فى هذا السلك حتى وصل الى منصب « سر عسكر الدوننمة » أى القائد العــام للأسطول المصرى .

ويقول عبد الرحمن الرافعى : « أهم الصفــات البارزة فى أخلاق سعيد طيبة قلبــه ، وســلامة قصــده وكرمه وشجاعته وصراحته وميله للخير ، وتسامحه ، وحبه للعــدل ونفوره من الظلم والارهاق » (٣) .. فهل وجدت الصحافة فى عهــده ، انعكاسا لهذه الصفــات التى قل أن تجتمع فى رجل واحد ؟

انا قبل أن تتحدث عن المواقف السعيدية ، من الصحافة والصحفيين، نقوم بالقاء نظرة الطائر على أعمال الرجل نفسه ، أو أهم ما قام به من أعمال .. ولعل فى مقدمتها جهوده الموفقة لاصلاح حالة الفلاح المصرى ، حيث سن لذلك ما يعــرف باســم « اللائحة السعيدية » الصــادرة فى ٥ أغسطس ١٨٥٨ والتى خولت الفلاحين حق الملكية الزراعية ، وبذلك ألغى ما لجأ اليه أبوه من اعتبار نفسه المالك الوحيد للأرض .. كما قام بالغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية ، فصار للفــلاح حــرية اختيار أنواع المحاصيل التى يريد زراعتها ، وحق التصرف فى انتــاج الأرض وغلتها .. كما أتبع ذلك كله بتخفيض الضرائب الى حد معقول ، ووافق على رغبة الأهالى بتسديدها نقدا لا عينا ، وأضاف الى ذلك الغاء ضريبة « الدخولية » التى كانت تحصــل على الانتاج الداخل من بلد الى بلد ــ التجــارة الداخلية ــ كما قام الرجل بعمــل أول لائحة للمعاشات تعرفها مصر ..

ولو قام الرجل بهذه الأعمــال وحدها ، لكفاه ذلك مفخرة ، ولكنه تابع أعماله الاصلاحية العــديدة مثل تطهير ترعة المحمــودية ، ولم تكن

قد ظهرت منذ عهد محمد على ، كما أتم انشاء الخط الحديدى بين القاهرة والاسكندرية عام ١٨٥٦ والذى توفى سلفه قبل اتمامه ، كما مد خطا آخر من القاهرة الى السويس فعاد على مينائها بالفوائد الكثيرة ، وأنشأ خطوط التلغراف الحديثة ، وأشرف على عمليات البحث عن الآثار وحفظها ، ورصد كسوف الشمس ووضع خريطة مفصلة للقطن المصرى ، كما أدخل التجنيد الاجبارى وأمر بترقية حالة الجنود ، بل ان له فى ذلك مواقف تاريخية مشهودة أبدى فيها روحا وطنية وقومية أشاد بها الزعيم « أحمد عرابى » فى مذكراته وقال عن خطبة لسعيد اعتبر نفسه فيها مصريا : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية » (٤) .. وذلك كله بالاضافة الى اصلاحاته البحرية العديدة ، ورحلاته وجولاته الموفقة داخل البلاد وخارجها .

واذا كانوا يقولون أنه لو مد الله فى عمر الرجل ، لكان قد فعل الكثير ، وحيث أنه توفى فى ١٨ يناير ١٨٦٣ وعمره ٤٢ سنة فقط .. فاننا ننتقل الآن الى الوجه الآخر لصورته ، وحيث يبدو فيه سعيدا ذلك الرجل الضعيف أحيانا ، المتردد ، القلق ، المسرف ، المستدين ، والذى انعكس تردده على ألوان كثيرة من جوانب الحياة المصرية ، لعل أهمها جانب التعليم ، وحيث لم يوجه اليه عناية تذكر ، فاستمر على حالته من الجمود والتوقف ، والتى كان عليها فى عهد سلفه — عباس الأول — كما أعاد بعض البعثات المصرية من الخارج ، وفتح باب الاستدانة ، وبالغ فى صداقته مع عدد من ملوك أوربا مثل نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وحيث لبى الرجل دعوته وأرسل الجنود المصريين للحرب ضد الثائرين فى المكسيك !!.. كما أنه كان سريع التأثر بآراء من حوله ؛ سريع الغضب أيضا ، وأهم من ذلك كله أنه كاد حسن الظن بالأوربيين شديد الثقة بهم .. يغالى فى تكريمهم ولو على حساب أبناء مصر أنفسهم ..

ذلك هو الرجل ، وتلك هى أبرز أعماله وصفاته ، ولكن من العجيب أن الوجه الأول لصورة سعيد .. الوطنى ، المصلح ، الغيور قد اختفى تماما فى علاقاته بالصحافة المصرية ، ليبقى بعد ذلك ، وجهه الثانى ، بكل ملامح قسوته ، وتردده ، وجموده ، بل وبتفضيله للعنصر الأجنبى أيضا .. كيف ؟ وما هى شواهد ذلك ؟

ذلك أن الرجل أبقى على نظام الحكم المطلق الذى يجمع فى يده الواحدة بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، ومن ثم فهو المرجع بالنسبة لجميع الأمور .. كبيرة وصغيرة ، داخلية وخارجية ، سياسية وقانونية وثقافية .. خاصة وأنه أهمل مجلس الشورى الذى كان قد أنشأه والده .. ومن هنا ، فانه رأى أن تكون قبضته محكمة كذلك على الصحافة ، فأوعز الى عدد من رجال وزارة الخارجية — احدى الوزارات الأربع العاملة فى مصر فى ذلك الوقت — من بينهم الأمير أحمد رفعت أن يتعاونوا مع عدد من أعضاء مجلس الأحكام ، والمجلس الخصوصى ، فى وضع نظام للصحافة ، يتيح الاشراف عليها وجعلها تحت عينه ، وفى طائل يده ..

وبعد دراسة لعدد من القوانين العثمانية الصادرة بهذا الشأن ، خاصة « الخط الشريف » أو اللائحة التى أصدرها السلطان « عبد المجيد » عام ١٨٥٨ ، والتى تتعلق بالصحافة والمطابع ، وتنظيم ما يتصل بهما من اجراءات اصدار وعقوبات وما الى ذلك كله .. توصلت اللجنة المؤلفة من هؤلاء الأشخاص الى وضع لائحة للمطبوعات المصرية كان من أهم موادها تلك التى تقول : « لا يطبع ولا ينشر جرانيل وغازيتات واعلانات من دون استحصال الرخصة من ديوان الداخلية وان فعل ذلك بدون استئذان تغلق وتسد مطبعته » .. ولو كان الأمر قد توقف عند حد الحصول على الترخيص فقط لهان ، الا أن الرجل أصر اصرارا بالغا على أن تعرض عليه جميع المواد التى تقدم الى المطابع ، وجميع الكتابات

الأخـرى ، قبل طباعتها ونشرها ، وكان لذلك ـ بالاضـافة الى حالة الجمود والتأخر ـ أثره فى عـدم تشجيع أحد على الاقدام أو المغامرة باصدار صحيفة يعرف مقدما أن جميع موادها لابد وأن تمر تحت سمع الرجل وبصره ، بما فى ذلك مواد الصحيفة الرسمية « الوقائع المصرية » نفسها .. ومن هنا فقد قيل أن هذه اللائحة التى صـدرت بقـرار من المجلس الخصوصى ، وبتوقيع عدد من أعضائه وأعضاء مجلس الأحكام ، كانت « أوسع نطاقا مما ذهب اليه محمـد على فى نشر الكتب أو رقابة الوقائع المصرية » (٥) .

وقد يكون من المعقـول أن يفعـل الرجل ذلك كله ، ولكن الوجه « الكالح » للرجل نفسه يظهر بالمقارنة بين هذه الاجراءات التى تناولت الصحافة المصرية وحـدها .. بينما وجـدت من المواد الأقـل ضغطا وتضييقا على الصحافة الأجنبيـة ، وعلى الصحفيين الأجانب .. وهكذا وجدنا أن تلك التشريعات نفسها تبـدو فى صورتين متناقضتين تماما خاصة فى مجال التطبيق ، فهى قاسية عنيفة ، معقـدة بالنسبة للصحف والكتابات والمطبوعات الوطنية مرنة ، متراخية ، ضعيفة ، بالنسبةلصحف أصدقائه من الأجانب ، هـؤلاء الذين كان الرجـل يتخـذ منهم أكثر « بطانته » ، ويتخذ منهم جلساء وخلطاء وندامى ، ويشتد ركونه اليهم وبالتالى تأثيرهم عليه ؛ حتى أن الأجانب فى عهده كانوا يبسطون أيديهم على مرافق البلاد ، كما صار للقناصل نفوذا لم يكن لهم من قبل .. وكان من الطبيعى أن تؤثر تلك الاتجـاهات كلهـا ، على موقف الرجل من الصحف الأجنبية .. والمغاير تماما لموقفه من الصحف المصرية أو العربية ..

وقبل أن نقـدم شواهد ذلك أيضا نشير الى أن موقفه من الصحافة

الوطنية ، والصحافة الأجنبية ، كان هو نفس موقفه من التعليم المصرى ، والتعليم الأجنبى .. وتترك هنا عبد الرحمن الرافعى ليروى طرفا من ذلك .. يقول المؤرخ المصرى الكبير بعد أن يستعرض تأخر حالة التعليم فى عصر سعيد :

« ومع جمود حركة التعليم الى هذا الحد فانه لم يبخل على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كى تفتح مدارسها ، فمنح اعانات سنوية لراهبات البون باستور الراعى الصالح ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ووهب للبعثة الأمريكية بناء بمصر لتتخذه مدرسة لها ، وأعطى أول مدرسة ايطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية اعانة قدرها ٢٤٫٠٠٠ جنيه ووهب لها قطعة أرض فى أجود جهات الاسكندرية لتنشىء بها المدرسة ، فكانت عنايته بنشر التعليم الأجنبى أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى ، وهذا من متناقضاته » (٦) .

ان ذلك هو ما رأيناه يتكرر فى مجال قريب من مجال التعليم ، وهو هنا مجال الصحافة .. ذلك أن الرجل وافق على انشاء خمس صحف فرنسية وايطالية ، بالاضافة الى صحيفة « السلطنة العربية التركية » ، وكان يقرب محرريها منه ، ويقدم لهم بعض الاعانات فى مناسبات مختلفة ، ويسمح لمحرريها بمصاحبته فى رحلاته الى بلاد الصعيد ، وفى رحلتيه الشهيرتين الى السودان ، والحجاز ، كما كان يستقبل عددا منهم فى سرايه ، ويبادلهم أطراف الحديث ، خاصة عندما يتوسط قنصل السودان الصحفى الأجنبى له عند سعيد ..

وقد شجع ذلك عددا من محررى هذه الصحف ، ومن المراسلين

الأجانب ، خاصة من الانجليز الذين كانوا يرون النفوذ الفرنسى وهو يتأكد بمصر على عهـده ، وهم يبسطون نفـوذهم على كثير من مرافق البلاد ، شجع ذلك هؤلاء على الهجوم عليه أحيانا ، وتناوله بما اعتبره اهانة له ، ونيلا من سلطة حكومته وسيادتها ..

وصحيح أنه كان يتدخل من حين لآخر للاعتراض على ذلك ، وكلما أحس أن صحيفة أجنبية قد تجاوزت الحد المعقول ، وصحيح كذلك أنه كان يسرع بأمر معاونيه ورجال سلطته بتبليغ قناصل الدول بنص المواد التى وردت فى لائحة السلطان عبد المجيد ــ ١٨٥٧ ــ والخاصة بتنظيم عمـل الصحافة الأجنبية فى الولايات العثمانية ــ ومصر احداها شرعا ــ وخاصة المـادة التى تقول : « تأمر الشرطة رجالها بمصادرة كل النسخ المطبوعة فى الامبراطورية وفى البلاد العربية التى قد تتضمن نشر أخبار ضارة بالبلد أو فى الدولة » كما أمر بأن يطبع نص هذا القانون ويوزع على القناصل فى كتاب موقع من ناظر الخارجية « اسطفان بك » .. وطلب أن يقوم القناصل بتوزيع هذا المنشور بالقانون على رعايا دولهم ..

كل ذلك صحيح ، ولكن الصحيح أيضـا أن هذه القـوانين كانت تطبق فى أحوال نادرة للغاية ، وبمزيد من المرونة بالنسبة للصحفيين من رعايا الدول الأجنبية عامة ، وفرنسا خاصـة ، كما كان القناصل دائما يتدخلون فى الوقت المناسب لحماية الصحفيين والمراسلين من أبناء ورعايا دولهم .. كما كانوا يحيطونهم بحصانتهم الدبلوماسية .. ومن ثم فقـد كان هو ، ومن خلفه يتوقفون عن تنفيذ القانون ، على سبيل الخوف ، أو عدم الاكتراث ، أو ترك العواصف لتمر .. بينما لا يعرف أن صورة

من هذه الصـــور قــد أخـــذت مكانها بالنســبة للصحفيين المصريين أو العرب ..

بل ان سعيدا كان يبرر ذلك بقوله « من قال أن الجرنالجية وأصحاب الغازيتات سواسية أمام الفرمانات الشاهانية ؟. ان أصحــاب الغازيتات الأجانب لهم امتياز الصلة بالقناصل وأمراء الدول الأوربية وحكامها » .

هل نقول أن الرجل كان يعيش بوجهين ؟ أم نقــول أن زامر الحى لا يطرب ؟ وأنه لا كرامة لصحفى .. فى وطنه ؟

حتما كانت الاجابة عند والى مصر .. سعيد باشا .

ذلك الرجل الذى مضى يضيق الخنــاق على الصحافة المصرية والى حد القتل خنقا أو الشنق ، مما أثر فى مادتها أبلغ تأثير .. كما أثر كذلك فى مواعيد صدورها ولكن أهم تأثيرات هذا التضيق الذى قام به الرجل كان هو ما حدث فى صــدور الصحفيين أنفســهم ، من كتاب ومحررى هذه الأيام ..

لقد خاف البعض من أحكام الوالى الجائرة ، ومن رقابته وشرطته السرية التى كانت تدهم المطــابع عامة ، وليست مطابع الصحف فقط ، ومن هنا فقد انصرف عدد كبير من هؤلاء عن العمل التحريرى ، وطلقوا ــ برغم أنوفهم ــ مهنة الكتابة وانصرفوا الى الأعمال الأخرى .. حتى أن بعضهم رأى أن يفتتح له دكان « مانيفاتورة » .. أسماها ــ من غلبه ولتمسكه بالعمل الذى يحبه ــ مانيفاتورة الصحافة .. كما أن بعضهم

الآخر عاد الى موطنه الأصلى بالصعيد ، وبدأ يمارس الزراعة .. الى حين تنجلى الغمة السعيدية ..

كل ذلك .. بينما يصول محررو الصحف الأجنبية ويجولون فى طول البلاد وعرضها ، وليس فوق الصفحات فقط ..

---

(١) ابراهيم عبده : « محنة الصحافة وولى النعم » ص : ١١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : « عصر اسماعيل » ج ١ ، : ص : ٤

(٣) المصـــــدر الســـابق ، ص : ٢٤ .

(٤) احمد عرابى : « مذكرات عرابى ـ كشف الستار عن الاسرار » ص : ١٦ .

(٥) ابراهيم عبده : « محنة الصحافة وولى النعم » ص : ١٢ .

(٦) عبد الرحمن الرافعى : « عصر اسماعيل » جـ ١ ، ص : ٤٥ .

اسماعيل :

رجل فعل الكثير ..
ولكن !!

اسـماعيل :

رجل فعل الكثير ..

ولكن !!

لا أعتقد أن النهاية المريرة لهذا الرجل تنسينا أنه فعل الكثير من أجل مصر ، ولا ينبغى كذلك أن تنسينا ، والا كنا من الجاحدين ، من الذين ينكرون الأفعال والأفضال ، ويلقون عليها ستار النسيان ، لأن الأمور قد تقلبت على صاحبها ، وعلى غير هواه .. والدهر قلب .. كما يقولون .

لقد ساهم الرجل ــ اسماعيل ــ مساهمة ايجابية وفعالة فى الدفع بعجلة التقدم المصرى ، عدة دفعات الى الأمام ، وفى أكثر من ميدان من ميادين النهضة .. فى ميادين العسكرية ، والمواصلات والثقافة والتعليم ويكفى أنه تأسست فى عهده المدارس العديدة التى تحول بعضها الى كليات من مثل : المهندسخانة ١٨٦٦ ــ الحقوق ١٨٦٨ ــ دار العلوم ١٨٧٢ ــ الطب والولادة ــ البنات ١٨٧٣ السيوفية ــ القربية ١٨٧٤ ــ المدارس الصناعية (الفنون والصنائع) .. حتى قال عن هذه الفترة تيودور رتشين « ليصير التعليم فى مصر مجانا وليحصل الطلاب على ما يحتاجونه مجانا .. فى ذلك العصر أسست مدارس للبنات كانت الأولى من نوعها لا فى مصر وحدها ، بل فى الدولة العثمانية كلها وأنشىء متحف بولاق الشهير وزيد فى مكتبة القاهرة ما جعلها من أعجب مكتبات الدنيا .

وكانت المدارس الأولية بمصر كلها فى عام ١٨٦٣ تبلغ ١٨٥ مدرسة فأصبحت عام ١٨٧٥ نحو ٤٦٨ مدرسة يتعلم بها ١١١٫٨٠٣ طفلا ، وينبغى

أن يضاف الى هذه المدارس أيضا عدد كبير من مدارس أرقى منها كانت تابعة للحكومة والبلديات ، وكان ثمة أيضا مدارس حربية لكل فرقة من فرق الجيش مدرسة خاصــة ، قالت لجنة التعليم الحربى فى عام ١٨٧٢ انه لم يكن فى الجيش المصرى كله غير ٤٢ أميا فقط » (١) .

كما يقول جرجى زيدان عن هذا الرجل نفسه « كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد أن يجعل القاهرة تضاهى باريس بالنظام والترتيب ــ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وآمر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها وأسس معملا للورق » (٢) ..

ذلك هو خــديوى مصر ، اســماعيل بن ابراهيم بن محمــد على ، والمولود بقصر المسافرخانة بالجمــالية فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٠ .. والرجل الذى صنع الكثير من أجل مصر ، حتى أن القــاهرة سرقت الأضواء فى عهده من اسطنبول .. كما سرق هو الأضواء أكثر من مرة ، من الخليفة التركى الذى كان يحقد عليه كل الحقــد .. ويرى حتى فى مده لخطوط السكك الحــديدية والتلغراف اسرافا لا مبرر له .. لأن دولة الخــلافة لم تكن قد عرفتها بعد ..

فما هو موقف الرجل من الصحــافة ؟ وما هى صورته الصحافة فى عهده ؟.. العهد الاسماعيلى الذى كبا جواده المنطلق كبوة كبيرة جدا .. لم تجعــله غير قادر على اكمــال الشــوط فقط .. وانما على النهوض والاستمرار .. على أى شكل من أشكالهما ..

الحق أن الحديث عن الصحافة فى عهد هذا الرجل يستحق أن يملأ أكثر من مجلد ، بل ان اسماعيل والصحافة .. هو فصل هام من فصول قصة الصحافة المصرية والعربية يستحق أن يدرس وحده فى معاهدها .. وكلياتها ومدارسها .. فحسبنا منه هذه النقــاط التى تمثل نظرة الطائر على صحافة عهده ..

* فالرجل قد صدر فى عهده أكبر عدد من الصحف يصدر فى عهد والى على مصر خلال القرن التاسع عشر حتى أنها تجاوزت فى عهده السبعين جريدة بين عربية وافرنجية وجريدة ومجلة كما يقول المؤرخ « عبد الرحمن الرافعى » .

* والرجل يرجع اليهفضل التوصية بتطويرالصحيفة الأم « الوقائع المصرية » وذلك من حيث الموضوع أو المضمون التحريرى حيث سمح لها بأن تنشر مضابط مجلس شورى النواب ، وكلمات الأعضاء ، واخبارهم وكذا أخبار الخطط المصرية والمدارس والنظارات المختلفة بشكل لم يحدث من قبل الى جانب نشر أخبار الحفلات العامة وسباق الخيل .. وأما من حيث لغة هذه الموضوعات كلها فقد كان كتابها يسرعون الابتعاد بها عن الأساليب الأدبية التقليدية التى كانت معروفة حتى ذلك العهد .. بل حدث اهتمام بالغ بصحة هذه اللغة وبمراعاة قواعدها الى جانب التطور الحادث فى الأسلوب نفسه .

* على أن أهم ما تحقق فى عهد الرجل ـ دون جدال ـ ظهور الصحافة الشعبية .. تلك التى مهدت لها الصحيفة نصف الشعبية ، نصف الرسمية المسماة « وادى النيل » والتى ساعد الخديوى « عبد الله أفندى أبو السعود » أستاذ التاريخ بمدرسة دار العلوم على اصدارها فجاءت رسمية العقل .. شعبية القلب والقالب .. ليتأكد ميلاد هذه الصحافة بعد ذلك فى صدور « نزهة الأفكار » التى أصدرها « ابراهيم المويلحى وعثمان جلال » عام ١٨٦٩ .. ولكنها توقفت عن الصدور بعد عددين فقط .. وعلى أثر نقدها للحكومة نقدا قاسيا .. أو هكذا رأت السلطات فى نقدها .. على أن ذلك لم يوقف صدور مثل هذه الصحف الشعبية فى عهده ، وبتشجيع منه أحيانا .. بعد أن أصبح المناخ المصرى العام مستعدا لتقبل مثل هذه الصحف ومادتها الهادفة التى كانت تلعب دورا مصريا واسلاميا كبيرا .. بل ساهمت مساهمة فعالة فى خلق الرأى العام

المصرى والدفاع عن الشعب ومصالحه ، وعن التضـامن الإسـلامى ، واللغـة العـربية .. حتى قيل أن الصحافة المصرية فى هذه الفترة كانت أجدى على النهضة المصرية من المجالس النيابية ذاتها ..

* كذلك فان عهد هذا الرجل قد شـهد الميلاد الكامل للصحافة المتخصصة فى مصر .. فصحيح أن جده ــ محمد على ــ قد صـدرت فى عهده « الجريدة العسكرية » عام ١٨٣٣ .. والتى تعتبر أولى الجـرائد المتخصصة .. ولكن كثرة العدد الصادر فى عهد اسماعيل ، وتنوع مجالاته، يجعل من ذلك العهد الاطار الزمنى الذى شهد هذا الميلاد الحقيقى وخذ عندك مثلا الصحيفة الطبية الأولى « يعسوب الطب ١٨٦٥ » والصحيفة المدرسية الأولى « روضة المدارس ١٨٧٠ » ثم اعادة اصدار « الجريدة العسكرية ١٨٦٥ » .. واصدار شقيقتها « جريدة أركان حـرب الجيش المصرى ١٨٧٣ » وكذا « أبو نضارة ١٨٧٧ » بطابعها الفكاهى و «التجارة ١٨٧٨ » .. وغيرها من الصحف المتخصصة أو ذات الاتجاهات الخاصة ..

* وقد استتبع ذلك كله ــ كما كان ينبغى ــ ظهور أكبر عدد من الكتاب وقادة الرأى والفكر الصحفى فى عهده ، بشكل لم يحـدث من قبل ، وكان من بين هؤلاء ، بل فى مقدمتهم وعلى سبيل المثال لا الحصر : « محمد عبده ــ جمال الدين الأفغانى ــ عبد الله أبو السعود ــ أديب اسحق ــ محمد على البقلى ــ ابراهيم أدهم ــ ابراهيم الدسـوقى ــ ابراهيم المويلحى ــ محمد عثمان جلال ــ محمد أنسى ــ محمد وفاء ــ يعقوب صنوع ــ سليم نقاش ــ سليم عنحورى ــ سليم تقلا ــ بشارة تقلا ... الخ » وغيرهم .. كما برز عـدد من الكتـاب المتخصصين فى مقدمتهم الدكتور محمد على البقلى ــ محمد مختار الكاتب العسكرى ــ ويعقـوب صنـوع الكاتب الفكاهى .. بل والكاتبـات والصحفيـات المتخصصات أيضا وأولهن « تمرهان » الكاتبة المتخصصة فى صحة المرأة بمجلة يعسوب الطب نفسها ..

* .. ولكن من الغريب أن الصحافة نفسها التى شجعها اسماعيل على المضى والانطلاق بل شجعها على أن تمضى فى نقدها لتصرفات بعض الموظفين والنواب .. وحتى الباب العالى نفسه .. هذه الصحافة ، عندما اشتد ساعدها .. ومضت على طريق النقد والهجوم كان من الصعوبة بمكان أن يقف انسان ضد تيارها الذى أخذ يقوى مع الأيام .. حتى هو نفسه .. مما جعله ينظر اليها ولسان حاله قول الشاعر العربى ..

أعلمه الرماية كل يوم   فلما اشتد ساعده رمانى

كان اسماعيل يريد من الصحافة أن تكون عونا له على جميع أعدائه.. فمضى يقدم لها من الحريات ما فاق أحيانا أحلام أصحابها ، حتى أنها عندما لم تكن تجد أحدا تهاجمه ، فقد كانت تنظر فى اتجاهه ، وتهاجمه هو شخصيا .. بل تحمل عليه أحيانا حمله شعواء .

وهذا ما لم يستطع الرجل السكوت عليه أو تجاهله .. فمضى يقيد من هذه الحرية المنطلقة .. فى صورة انشاء مكتب للصحافة الأجنبية ألحقه بنظارة الخارجية،ثم جعل المصرية تابعةلنظارة الداخلية..حتىاذا بلغ الشطط مبلغه بهذه الصحافة راح يجمع كل ما يتصل باصدارها وتوقفها والترخيص لها فى يده ، أو راح يمثل وحده قانون المطبوعات .. وصحيح أنه كان يستمع أحيانا الى آراء بعض الأصدقاء من أجانب وشراكسة بالنسبة للمسائل المتصلة بها .. ولكنه رأى — فى النهاية — أن حريتها التامة قد تحولت الى نار تحرقه هو .. بل قد امتدت فعلا الى ملابسه وأطرافه .. فكان عليه أن يسرع هو نفسه الى اخمادها .. بنفس يده التى أضاءت شعلتها .

---

(١) تيودور رتشين ، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران : « المسألة المصرية » ص : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) جرجى زيدان : « تاريخ مصر الحديث » ص : ٢١٨ .

عبد الحميد الثانى :

دولة الجرائد

وسوء العاقبة

عبد الحميد الثانى :

دولة الجرائد
وسوء العاقبة

« أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، خادم الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين ، السلطان بن السلطان، والخاقان بن الخاقان عبد الحميد خان أدام الله عزه وأعز جنده وأسعد عهده ونشر على بلاد الأعداء راية نصره ... الخ »(١) .

أما مولانا ، خاقان البرين والبحرين ، السلطان بن السلطان والخاقان بن الخاقان .. فهو السلطان التركى الأشهر عبد الحميد الثانى الذى يمتد حكمه من ٣١ أغسطس ١٨٧٦ ، حتى ٢٧ أغسطس ١٩٠٩ ..

وأما الدعاء فقد كان على الصحافة الرسمية فى البلاد العثمانية عامة، والعراقية والسورية خاصة ، أن تصدر به صفحاتها الأولى .. بل ان الصحف العراقية على وجه التحديد ، ذات الطابع الرسمى مثل «الزوراء» و «الموصل» و « البصرة» .. كانت تضيف اليه كثيرا .. أو على حد قول منير بكر التكريتى فى رسالته للماجستير عن الصحافة العراقية : « ما كانت تنشر سوى ما يطيب للسلطان وولاته من ألفاظ التفخيم والتعظيم رغم مظالمهم جميعا وسوء ادارتهم » .

فما هى حكاية الرجل ، صاحب كل هذه الألفاظ الفخمة الضخمة .. وغيرها كثير سيأتى فى حينه ؟ وعلى وجه التحديد .. ما هى حكايته مع الصحافة ؟ .. تلك التى سارت بها ألسن الركبان ، كما يقولون ..

الحق أنه لا يوجد أي رجل آخر ، أي حاكم غيره ، باستثناء « نابليون بونابرت » وربما « محمد على باشا » ارتبط ذكره بهذه الوسيلة من وسائل الاتصال ، قدر ارتباط ذكر هذا الرجل بها ، كما لا يوجد مؤلف من المؤلفين فى مجالات تاريخ الصحافة ، أو القوانين الاعلامية ، أو التشريعات الصحفية ، أو جرائم النشر ، يستطيع أن يدير ظهره لفترة حكم هذا الرجل أيضا ، وأما الذين يبحثون فى موضوع « الحريات » عامة ، وحرية الصحافة خاصة ، فان حياة الرجل وقراراته وأوامره ونواهيه تجذبهم كل الجذب .. كذلك فقد حظى الرجل أثناء سنوات حياته وبعد وفاته وما يزال بالعديد من الكتابات التى تتناول مواقفه من الصحافة والصحفيين والكتاب والشعراء — وكانت الصحافة هى المجال الأول لنشر انتاجهم من مقالات أدبية وقصائد شعر — أقول ، حظى الرجل بما لم يحظ به حاكم آخر من هجوم الكتاب والشعراء والصحفيين والمؤلفين والمؤرخين أيضا .. فحسبنا من ذلك كله .. هذا القدر الذى تتحدث عنه السطور القادمة ..

ولكننى هنا ، وعلى الرغم من جميع هذه الكتابات المهاجمة اللاذعة الساخرة التى تجل عن الحصر ، أبادر فأقول ، عن حق وصدق ، وعن ايمان كامل بقيمة الكلمة ودقتها وشرفها أنه لا يمكن القول بأن كل مارمي به الرجل ، وعهده يعود اليه وحده ، أو الى هذا العهد نفسه بل الواقع ، والثابت أيضا — ورغم أن الكثرة البالغة من المؤلفات تتجاهل ذلك — أن أكثر ألوان الفساد والأمراض الاجتماعية التى برزت صورها فى عهده، كانت ميراثا كريها ، ورثه ذلك العهد عن عهود سابقة كثيرة ، وبعد أن كان قد استشرى فى ظل المناخ الحميدى .. ولذلك — فى رأينا — شواهده الكثيرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر .. هذه كلها :

* ما تقوله د . احسان عسكر — نشأة الصحافة السورية : « كان من طبائع العثمانيين أن يبدلوا كل شيء على هواهم ، ويقضوا على حياة

القوم فى البلاد التى ينزلونها حتى لا يستطيع أهلها أن يرفعوا رؤوسهم ، وقد كان الدم يجرى لأقل شبهة والعـذاب يحل لأقل تهمة ، وقد حكم الولاة بالجواسيس وساروا فى غيهم وتجاهلوا قيمة العرب ، واخترعوا الألفاظ فى تحقيرهم ، وكان كل همهم قتل قوميتهم ومحو لغتهم وتلويث تراثهم ـ وهكذا عاش حملة الأقلام هذه الفترة المظلمة تحت حكم مطلق فاسد ونالهم ما نال غيرهم من ضروب الظلم والأذى ، وعانوا ممـا عاناه أفراد المجتمع العثمانى من فقدان الأمن واندثار العدالة »(٣) .

* واذا كان ذلك يتجه الى الحديث عن العثمانيين فى سورية ، فان منير بكر التكريتى فى رسالته التى سبقت الاشارة اليها يقول ، مؤكـدا الكثير من الأقوال عن واقع هذه الدولة حتى قبل عهد السلطان عبدالحميد نفسه : « ... أصبح القانون معطلا مادام الولاة يشترون وظائفهم بالمال من السلاطين فكانوا يتعهدون بدفع المبلغ الفلانى قبل الذهاب الى العراق.. فما على الوالى الا أن يحاول جهده لجمع أقصى ما يمكن جمعه من المـال ليعوض عما فقده ، بل ادخار مبالغ طائلة ليشترى بها منصبا أرقى أو رتبة يطمح لها »(٤) .

* ويذكر أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ـ نص برقية وردت من الآستانة لمراسل صحيفة التايمز اللندنية ونشرتها الصحيفة على صفحتها الأولى فى عـددها الصـادر فى ٥ أكتوبر ١٨٧٤ ـ قبل ولاية الرجل بحوالى العامين ـ هذا نصها :

« قرر الباب العالى أنه منذ السنوات الخمس التى تبتدىء من أول يناير المقبل سيدفع نصف أرباح سندات الدين العام وقسط اسـتهلاكه نقدا والنصف الآخر سندات ذات ٥٪ » .

واذن فقد كانت مظاهر الفساد كلها متجمعة على أرض دولة الباب العالى قبل ولاية الرجل ، بل ان دولة الخلافة قد قامت بتصدير هذه

المظاهر نفسها الى الولايات العربيـــة التابعة لها وذلك بمعــرفة الولاة الأتراك ، وباستثناء قلة قليلة منهم .. بينما أعلنت الدولة العلية نفسها عن افلاسها ، وشهدت على ذلك أكبر الصحف العالمية الصادرة فى ذلك الوقت، على الرغم مما يقال عن ميولها الاستعمارية .. فقد كان الحال لا يحتاج وصفه الى برقيات مراسلها .. وحيث كانت الدولة نتيجة اسراف السلاطين وأعوانهم مثقلة بالديون .

وحتى بالنسبة لاجراءات القهر العديدة للصحافة والصحفيين ، التى اتخذها هذا الرجل نفسه ــ السلطان عبد الحميد الثانى ــ فانى من الثابت أن قوانين المطبوعات وأنظمتها السابقة على حكمه ، أو الصادرة على عهود أسلافه ، لم تكن جميعها نعيما مقيما لأصحاب الأقـــلام ، كمـــا لم تفرش الطريق أمامهم بالورود .. فقانون الصحافة العثمانى الأول الصادر عام ١٨٥٨ ، هدد هؤلاء بالويل والثبور وعظائم الأمور..وكثرت بين مواده تلك التى تتصل بالعقاب ، والحاق الضرر وغلق دور الطباعة وتوقيع الغرامة .. وعندما صدر أول نظام للمطبوعات بالسلطنة عام ١٨٦٣ أوجب الحصول على ترخيص الاصدار من الحكومة .. وكان المطالب به يذوق « الأمرين » ويقدم مبالغ قد تفوق طاقته على سبيل الرشوة ، وبعد ذلك يكون سحب الترخيص منه ، حتى قبل أن يصدر صحيفته أسهل من « سحب الشعرة من قطعة العجين » كما كان سحبه بعد صدور الصحيفة حســـب الأهواء دائما ..

بل اننا نستطيع أن نقرأ فى قانون الصحافة العثمانية الصــادر فى أغسطس ١٨٦٥ ، وعلى عهد السلطان عبد العزيز مثل ذلك كله :

المادة الأولى : تطلب الاذن بالتصريح من حكومة الامبـراطورية لأجل اصدار صحيفة أو دورية وهذا الاذن متروك أمر اعطائه وممكن الغاؤه .

المادة التاسعة : تمنع دخول الصحف والمنشورات الأجنبية وتوزيعها مما تكون قد طبعت وصدرت فى الخارج بقصد خصومة أو اعتداء ضد الحكومة العثمانية .

المادة الثالثة عشرة : تقضى بايقاف أو تعطـل الصـحيفة بالطريق الادارى وليس القانونى .

المادة السابعة عشرة : تمنع التشهير بالسفراء والوزراء المفوضـين وبالمبعوثين والقائمين بالأعمال وبالأشخاص الآخرين المعتمدين لدى الباب العالى .

المادة السادسة والعشرون : تعاقب الصحيفة على نشر الأخبار الكاذبة الملفقة أو على ايجادها أو احداثها عن قصد وبسوء نية .

المادة الثامنة والعشرون : تقوم الصحيفة بنشر الحكم الصادر ضدها فى الشهر المقرر له ..

الى غير هذه المواد كلها .. التى قد تبدو عند البعض ، معقـولة ، ولكن هذه المعقولية تختفى اذا عرف أن المبدأ (السلطوى) كان هـو دائما افتراض الهجوم على السلطان والدولة وسوء القصد والنية ..

بل ان من الثابت كذلك أن الرقابة على الصحف العثمانية يعـود تاريخها الى عهد السلطان عبد العزيز نفسه ــ سلف عبد الحميد الثانى ــ وذلك عندما أمر الصدر الأعظم رئيس الوزراء محمود نديم باشـا بأن تفحص بدقة وعنـاية شديدتين من قبل ممثلى الحكومة صحف الآستانة والأناضول قبل طبعها ...

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة والشواهد المتنوعة ، التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ذلك الرأى الذى ذهبنا اليه ، من أن عهد الرجل قد ورث الكثير من صنوف الفساد والاضطهاد عن عهود أخرى سابقة عليه..

بل جاء الرجل الى الحكم وهذا الميراث الكريه قد بلغ مـداه ، وداخله العفن وأصبحت رائحته تزكم الأنوف .. بل تجعل الانسان يهرب بعيـدا عنها ..

فاذا أضفنا الى ذلك كله ، بعض الفقاقيع الأخـرى التى طفت على سطح المياه العثمانية الآسنة .. لأدركنا على الفور ، أى مأزق حرج ذلك الذى أوقعت الظروف فيه هذا الرجل ، وأى موقف صعب ، ذلك الذى وضعته فيه .. انه حقا ، موقف لا يحسـده عليه أحـد ، ولا يمكن أن يحسده ..

ذلك لأنه بالاضافة الى هذا الميراث الكريه نفسه ، والى انتشـار جميع ألوان الأمراض والأدواء الاجتماعية ، معروفة وغير معروفة ، فقد حفل عهد الرجل ، بكثير من الأشواك العظام والثغرات الكبار ، تلك التى تقطع الطريق ، وتدمى القدم .. وكان من بينها على سبيل المثال لا الحصر هذه كلها ..

ـ فها هو يتولى الحـكم ، وقد بلغت ديون الدولة التى تراكمت خلال العهود السابقة على عهده مبلغ ٨٥٥ر٠١٠ر٥٢٨ر٢ ليرة عثمانية ، وياله من رقم رهيب ، وبأسـعار هذه الأيام مما كان لابد وأن تنعكس آثاره على تطور البلاد ، فى ضوء هذه الديون كلها التى كان على دولته أن تسددها ، وبعضها بفائدة وصلت الى ٥٪ .

ـ وكان من نتيجة هذا الفقر المتحالف مع الفساد والرشـوة أن ضعفت سيطرة الدولة المترامية الأطراف على بعض أقاليمها مثل البوسنة والهرسك ، خاصة عندما ثار بعض الفـلاحين فيهما ـ يوليو ١٨٧٥ ـ بسبب الضرائب المرتفعة .. وحيث بلغت الأزمة أقصى تعقيداتها باعـلان روسيا الحرب عليه فى أبريل ١٨٧٧ ، لتزحف جيوشها على البلقان والأملاك التركية فى آسيا وحيث انتهى الأمر باكتساح القـوات الروسـية لهما

واجتياز الأسطول الروسى للدردنيل والقاء مراسيه أمام الآستانة وماتتج عن ذلك كله من أحداث دفعت دولته ثمنها الباهظ ..

ـ وعندما نجحت هذه الثورة ، كثرت حركات التمرد الأخرى فى الولايات خارج الحدود ، كما كثر الصراع الدولى على اقتطاع أجزاء كثيرة تتحقق بها مطامع الدول الأوربية،ففقدت الدولة كثيرا من أراضيها، وتم احتلال الفرنسيين لتونس عام ١٨٨١ والبريطانيين لمصر عام ١٨٨٢ .. وغيرهما ..

ـ وقد ضاعف من تخوفه المتصاعد عدة أسباب أخرى .. سارت فى خط متواز مع ردته عن اعطاء عدد من الحريات عامة ، وحرية الصحافة خاصة .. كما ساهمت فى مضاعفة استبداده أيضا وكان من بينها ــ فى الخارج ــ مؤامرات الدول وهجوم الصحافة الأوربية عليه ، وكتابات المنفيين ضده .. هؤلاء الذين كانوا يعملون ــ أو أكثرهم ــ بوحى من جهات معينة ، تماما كما كانت تفعل الصحافة المهاجمة .. كذلك فقد انتشرت الجماعات السرية التى تعمل ضد الدولة حتى أن بعضها تحول الى النشاط العلنى والمسلح أيضا ، وذلك مثل الجمعيات البلغارية فى مقدونيا والأرمنية فى الأناضول الشرقية ، والحركة الثورية فى كريت .. بل وامتد نشاط بعض هذه الحركات الى الآستانة نفسها ، وحيث بدأت تهز العاصمة القوية ..

ـ أما فى الداخل فقد كثرت على عهد الرجل المؤامرات والدسائس من جانب ممثلى الدول الأجنبية ، وعلى وجه الخصوص ممثل دولة روسيا، كما بدا أن هؤلاء قد نجحوا فى « تجنيد » بعض أعوان عبد الحميد وجعلهم أداة طيعة لهم ، كما اشترى هؤلاء بعض الأعوان الآخرين عن طريق الرشوة .. ومن ثم لم يجد الرجل من حوله ــ فى الأعم الأغلب ــ الا من يشجعه على الفساد أو الاستبداد ، أو بعض الضعفاء أو المأجورين أو المرتشين .. دون أن يغيب عن بالنا أنه قد اعتلى العرش على أثر مقتل

السلطان عبد العزيز ، ونفى السلطان مراد الخامس .. فما الذى يمنع من أن يلقى نفس مصيرهما ؟

ولا أقول ذلك ــ بالطبع ــ دفاعا عن الرجــل ، أو من أجــل نفى الاتهامات العديدة الموجهة اليه ، وأغلبها من النوع الصادق ، وتجل عن الحصر ، وانما من أجل اكتمال صورة عهده ، بجميع معالمها وحدودها ، وأبعادها ، بعد أن ساهم هو ، بضعفه تارة ، خاصة فى مواجهــة القــوى الأجنبية ، واستبداده تارة أخرى ، خاصة فى مواجهة القوى الداخلية ، وكذا بتردده وسقم أساليب حكمه ، وميله الطبيعى الى الفساد والطغيان، ساهم الرجل بكل ذلك فى مضاعفة المثالب ، وتضخيم العيوب،والمزيد من ابرازها .. أو على حد قول الكاتب المصرى ابراهيم المويلحى الذى شهد هذه الأحداث ورآها رؤى العين وعاش أيضا بقربها : « كان من ســوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدى زمرة مختلفة الأجنــاس والأنواع من نزاع الآفاق .. رأوا أن أغراضهم لا تنال ومراكزهم لا تحفظ وراحتهم لا تدوم الا باشغال جلالته بمضاعفة ايجاس الخيفة من كل شىء واختلاس أوقاته التى تحتاج اليها مصالح الدولة ، فتدرجوا الى ماابتغوا .. والتدريج قائد الافراط .. ولمــا رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال الا بالتجسس واظهار الجبن أخذوا يتسابقون »(٥) ... وهكذا كانت صورة الفساد منتشرة ورائحة الركود الذى آل اليه الحال فى دولة الخلافة .. دولة الباب العالى .. يشهد بها الجميع .

نعم ، لقد بدأ الرجل حكمه بداية طيبــة .. بل حاول أن يكتســب لنفسه شعبية ما ، على أنقاض السلاطين من قبله ، فبدأ عهده باصــدار دستوره المشهور ــ نوفمبر ١٨٧٦ ــ والذى اعترف فى المادة الثانية عشرة منه بالحرية الصحفية « ان المطبوعات هى حرة ضمن دائرة القانون » .. كما سارع بافتتاح البرلمان وألح فى خطاب العرش الذى ألقاه فى جلســة الافتتاح ــ مارس ١٨٧٧ ــ على أهمية وضــع لائحــة جديدة تختص

بالصحافة ، ولم يلتفت كثيرا الى هجوم صحيفة « الجوائب » عليه ، أو لنشر صحف بيروت المقالات العديدة التى تتناول صور الفساد التركى وألوان الضعف الذى تعانى منها الدولة العلية .

حدث ذلك كله فى بداية عهد الرجل بالحكم ، ولكن الرجل ، ورغم استشعاره لكل مخاطرها منذ كان أميرا « شاه زاده » ، وأيضا رغم استشعاره بكل ما يحيط به من أشواك لم يشأ أن يواجهها مرة واحدة ، بل رأى أن يتغاضى أكثر من مرة عن بعض هذه الأساليب الهجومية ، وأن يدعها تمر ، مادامت تمضى داخل حدود غير مؤرقة ، ولا مثيرة ، كما أنها لم تصبح بعد ظاهرة يخشى منها على حكمه ..

ولكن ، مع مرور الوقت ، كانت الأخطار المهددة للدولة نفسها ، وللرجل ذاته تزيد ، وكان الفساد يمد أذرعه الى أماكن لم تكن قد وصلت اليها بعد .. وأصبح الرجل ذات يوم ليجد صحف الآستانة وهى تتحدث عن ذلك كله ، وليجد صحف الولايات المختلفة وهى تردد نفس النغمة .. تلك التى أصبحت تعلو ، وتتردد بمرور الأيام والساعات .. حتى بدا أنه لابد من مواجهتها .. وهنا ظهر ضعف الرجل وترديه أيضا ، أمام من حوله ، وأمام السفراء والقناصل ، مما ساعد على « نمو جرثومة الفساد » على حد قول احدى الصحف .. وفى المقابل أدى بالرجل الى أن يعيد ترتيب أموره ، وأن يكشف عن وجهه الحقيقى القوى ، المتسلط فى مواجهة القوى الداخلية ومن هنا فانه استدعى صدره الأعظم « مدحت باشا » وأعلن عن خوفه الشديد على حكمه ، وعلى حياته — معا — اذا استمرت « دولة الجرائد »(٦) فى هذا الذى تفعله لأنه انما يهدد بـ « سوء العاقبة » (٧) .. كما أعطاه الضوء الأخضر ليبدأ عمله فى تكميم الأفواه ، وكسر الأقلام ، ووأد الحرية الصحفية .. حيث فاق غيره من السلاطين والملوك ، وأضاف الى أساليب قمعهم لهذه الحرية ، وتحطيمهم لها ما يفوق الخيال نفسه .. وكان من بينها هذه الأساليب والصور كلها ، والتى

لم يخل بعضها من تسلل المبالغة أو الطرافة اليــه ، ولكنها التصــقت به وباسمه على أى حال :

* فلقد وضع الرجل كل ما جاءت به الدساتير السابقة أو دستوره هو الخاص من تلك التى يفيد منها الصحافة والصحفيون .. وضعها جميعها على الرف منتهزا فرصة اعلان الحرب الروسية التركية كما شكل هيئــة رقابة قوية جعلها تابعة لمديرية المطبوعات ، وقام بارســال العــديد من الصحفيين الى المنفى ، كما أعطى الرقابة لمطبوعاته الأمر بتغيير ما ترى تغييره من مقالات وأخبار ووضع ما تراه مناسبا بدلا منها .. وكان على الصحيفة أن تلتزم تماما بنشر تصحيحات الرقيب .. والا فالتعطيل .

ويعدد الصحفى التركى « ماجــد جتين » ألوان هذا العسف الذى كانت تمارسه الرقابة قائلا : « كانت الرقابة أشبه ما يكون بالطاعون ، ولكنها لم تكن الوحيدة المتسلطة على الصحف أو المستبدة بها ، فالى جانب هذه البلية كانت هنــاك بليتان أخريان هما : الشرطة السرية التى كانت تقوم بالتجسس على الصحافة والصحفيين ، ولجنة التفتيش والمعاينة التى كانت تقوم بمداهمة الصحف والمطابع ، لتصادر بعضها ، وتحرق البعض الآخر »(٨) .

* ولقد صــدرت الأوامر صريحة الى الصحف بعــدم استخدام عشرات من الكلمات ، وتحــريم ظهورها على صفحاتها ، كمــا قدمت القوائم العديدة بالعبارات والمصطلحات الأخرى التى يمنع تداولها لأنها « عــدوة السلطان وأعــوانه » .. وكان من بينها : « التمرد ، القتل ، الاغتيال ، التظاهر ـــ الاضراب ، القتال ، الديناميت ، القانون ، الدستور ، يلدز ، الوطن ، الحــرية ، المساواة ، الثورة ، السم ، النفى ، الخلع عن العرش ، الفوضى ، الخلافة » وغيرها .. كما حرم على الأشخاص اطلاق الأســماء الآتية : « سلطان ، خليفة ، عبــد الحميد » حتى أن من كان اسمه «سلطان» كان يقوم بتحريفه الى سلتان أو سلاتين ، ومن كان اسمه

عبد الحميد تحور الى حميد أو حامد أو حميد الله .. كما كانت نفس الأوامر السلطانية تصدق على الأعمال الأدبية والصحفية — معا — وعلى حد سواء .

ومن ذلك ما يذكره الكتاب الذى أصدرته وزارة الاعلام العراقية « دراسات فى الصحافة العراقية » .. والذى جاء به :

« ولم تكن الصحافة الأدبية احسن حظا من الصحافة السياسية فقد شدد عليها حتى الاختنرى الخناق وكانت تحاسب على ابسط الأمور وتعطل عن الصدور حتى لاسباب تعود الى تكنيك الترتيب والتبويب .. ناهيكم عن ان اعين الرقباء والوشاة كانت تبحث عن مدلولات وهمية وراء كل كلمة او عبارة أو بيت من الشعر .. وقد قدر للصحف الا تتمتع بحرية الخوض فى المناقشات الأدبية فترة من الزمن ، وكان قد منع ادخال ونشر مؤلفات كثير من أدباء أوربا كفكتور هوجو وبالزاك وراسين وروسو وكانت وشكسبير وزولا .. وحظر نشر وتمثيل مسرحيات من قبيل هاملت وماكبث .. واذا كان قد سمح بنشر — عطيل — فان ذلك لم يتم الا بعد اختصار وتغيير كبيرين ...

وكان السفير العثمانى فى لندن يومئذ وهو موضع ثقة عبد الحميد قد عكف على ترجمة الكوميديا الالهية لدانتى ، وسرعان ما وصلت وشاية الى السلطان بشأن ترجمة الكوميديا واعدادها للطبع باللغة التركية . وكانت كلمتا دانتى — الكوميديا الالهية — كافيتين لاثارة حفيظة السلطان الذى وجه على جناح السرعة المذكرة التالية الى وزارة المعارف : على الرغم من التبليغ بعدم السماح قطعيا بطبع مؤلفات دانتى الشهير ، من شعراء ايطاليا ، فقد بلغ الذات الملكية أمر الترخيص بطبع مؤلف هذا الشاعر بعد اجراء التصحيحات فيه .. ان الارادة السنية تقضى بعدم الموافقة على طبع مؤلفات هذا الشاعر حتى فى حالة تصحيحها » (٩) .

* وكان من الطبيعي أن يسرع القراء باحراق الصحف التي عرفت بثوريتها بعد قراءتها وذلك خشية العيـون والرقبـاء .. كما يحكى أن الشاعر العراقى « ناجى القشطينى » لاحظ ان ابنه عبد الله يدخل غرفته ويغلق بابها اغلاقا محكما على غير عادته ، وعندما داهمه أبوه وجده يقرأ ــ الغازيتا ــ فانهـال عليه ضربا وأشبعه ايلاما وهو يصيح فيه قائلا : لقد خربت بيتى بادخالك الغازيتا .. فاذا بعبد الله يسرع باحراقها ..

* كما يحكى الكاتب « سليمان فيضى » فى مذكراته (١٠) أن أمير الكويت السابق « الشيخ مبارك الصبـاح » كان مشتركا فى جـريدة الخلافة التى كان يصدرها فى تلك الأوقات بعض أحرار الترك والعرب فى لندن وكانت من أوائل الصحف التى منع دخولها الى البلاد والولايات التركية ، وعندما وشى جاسوس بوكيله فى البصرة ــ عبد العزيز سالم البـدر ــ بأنه دفع اشتراك هذه الجـريدة ، كبست داره وتحققوا من دفاتره ، وحكموا عليه بالنفى الى ديار بكر عشر سنوات .

* وربما كان من أقوى المقـالات الصحفية ، وأوائل التحقيقات التى نشرتها الصحف المصرية والعربية على حد سواء ... تلك التى كتبها ابراهيم المويلحى تحت عنـوان « ما هنالك » والتى سبقت الاشـارة اليها .. ذلك أن السلطان عبـد الحميد كان كلمـا سمع بعالم أو أديب أو فيلسوف أو سياسى يسرع بدعوته الى عاصمة الخلافة وهنالك وكما يقول د . عبـد اللطيف حمـزة فى الجزء الثالث من مؤلفه القيم ــ أدب المقـالة الصحفية فى مصر ــ « كان عبد الحميد يوفر له أسباب العيش الرغيد فى قصر من قصـور هذه المدينة الكبيرة حيث يعيش هذا الكاتب أو العالم او السياسى أو الأديب فى قفص من ذهب ، كهذا الذى حبس فيه السلطان يوما ما السيد جمال الدين الأفغـانى مرة والسيد النديم مرة أخرى ، ثم السيد ابراهيم المويلحى آخر الأمر » (١١) ..

سافر المويلحى الى الآستانة بدعوة من السلطان وحيث رأى بعينيه وعاش باحساسه وسمع بأذنيه كل ما دار ويدور فى قصر يلدز ، فكتب هذه المجموعة من المقالات ، وأتم كتابتها بعد عودته الى مصر ، ونشرها فى كتابه ـ الغفل من التوقيع ـ والذى يحمل اسم « ما هنالك » ولكن السلطان عرف بالأمر وأمر بجمع النسخ فقام المويلحى بجمعها حتى يأمن بطشه ، وأرسلها بنفسه الى الآستانة ، ولكن بعد أن تسربت عدة نسخ منه ، كما كانت جريدة « المقطم » قد نشرت بعضا منها ، كان يبحث بها كاتبها من الآستانة سرا .. المهم أن الكتاب يشتمل على مقدمة وثلاث عشرة مقـالة وكلمـة ختامية ، تناولها ـ جميعا ـ أستاذنا « د . عبد اللطيف حمزه » فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، والذى نقتطف منه ـ أو من المقالات نفسها ـ هذه السطور :

* من المقالة الخامسة وعنوانها : دائرة الباش آغا أو قزلر أغاسى فى المابين : « لو قام من القبر راشد باشا الصدر الأعظم وصاحباه على باشا وفؤاد باشا وسألوا رجلا فى طريقهم عما جرى على الدولة من بعدهم وقال لهم : لقد انفصلت رومانيا واستقل الصرب وزال الجبـل الأسود وذهب الروم وانفصمت البلغار وضاعت قبرص وبانت تونس وانسلخت بوسنة وهرسـك وانقطعت باطوم وخـرجت قارص وأردهان وانحلت تساليا ووقعت زيلع وطاحت مصوع وترك السودان وهذه مصر فى أيدى الانجليز ـ هذا قسم ضـاع وانتهى فيه النزاع ـ وسورية ترصـدها فرنسا وطرابلس الغـرب ترمقها ايطاليا ومقـدونية تشير اليها البلغـار وقوصوه ترقبها الصرب ويانيا وكريد ومنستر وساموس تكاد تخطفهـا اليونان ، وولايات أرمينيا تطلب الاستقلال أو الاصلاح ـ هذا القسم فى النزع ـ والبصرة وبغداد تشيع أهلهما بسعى حكومة ايران ، واليمن فى العصيان ، والمسلمون فى خوف على الحجاز ولم يبق الا حلب وأدرنة وأزمير وبروسة خالصة لجلالة السلطان ، وسفن الدولة قد آكلها الصدأ

فى قرن الذهب بعناية حسن باشا وأسراره العميقة وسفن الانجليز على شواطيء البلاد العثمانية والناس يشتكون من اغتصاب المأمورين لأراضيهم وادخالها فى الأرضى السنية والجفالك السلطانية ولا ميزانية للمالية ولا نظام للعدلية ، وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراء والعساكر فى الولايات قد عجز القلم عن وصفهم ووصف أسمالهم وأطمارهم البالية » (١٢) ..

ويمضى الكاتب يصف لهؤلاء حالة الدولة ، ويسخر من السلطان والباش آغا ..

أفبعد ذلك كله ، يتركه السلطان ، أو يترك كتابه ؟..

على أننا نختتم هذه الرحلة السريعة مع « الخاقان بن الخاقان » بهذه الطرائف الحميدية الصحفية التى تضاف الى تلك السابقة .. ومنها ما يذكره شمس الدين الرفاعى من أن جريدة « المصباح » التى كانت تصدر فى بيروت لنقولا نقاش نشرت الاعلان التالى : « بيت مؤلف من أربع غرف ملك محمد على الطرابلسى للايجار وعلى الراغبين مخابرة صاحبه .. فما كان من الرقيب الا أن شطب عبارة الملكية معترضا على كلمة « ملك » قائلا بأنه لا ملك الا للذات الشاهانية — السلطان — وأبى أن يفهم المعنى الحقيقى للكلمة .. واستبدل بها كلمة « امبراطور » .. ولأنه كان لابد على الجريدة أن تنشر الاعلان بعد التعديل فقد ظهر على صفحتها وكلماته تقول : « ان دار الامبراطور محمد على الطرابلسى معدة للأجرة وهى مكونة من أربع غرف » !! (١٣)

وأرادت صحيفة « بيروت » أن تنشر خبر وصول « أحمد أفندى سلطانى » فاعترض الرقيب أيضا لأنه لا سلطان الا السلطان عبد الحميد .. وطلب الرقيب أن يكتفى بذكر وصول « أحمد أفندى » فقط فاعترض المحرر لأن فى بيروت ألوفا اسمهم أحمد أفندى ، وعندئذ قام الرقيب

بتغيير الاسـم وظهرت الصحيفـة وبعض الصحف الأخـرى وفيها أن « أحمد أفندى سلطة » قد وصل بحمد الله وسلامته ..

والآن تعالوا بنـا نقـرأ هذا التصرف الرقابى الحميـدى الصحفى الآخـر ..

لقد جاءت برقيـة من وكالات الأنبـاء تحمل خبر اغتيـال الرئيس الفرنسى « كارنو » فى مدينة ليون على يد شاب اسمه « كازاريو » طعنه بخنجره طعنـة مميتـة .. ورفض الرقيب أن ينشر الخبر على صـورته الحقيقية ، وأصر على ذلك تمـاما مبررا ذلك الرفض بأن نشر مثل هذا الخبر يؤدى الى افهـام الناس أنه من الممكن اغتيال السلطان .. وأخيرا طلب من الصحف أن تكتفى بنشر خبر يفيد مرض الرئيس الفرنسى .. واعترض عدد من المحررين لأن الرجل قد مات فعلا .. وبعد نقاش طويل وافـق الرقيب على ان تنشر الصحف النبـأ التـالى تحت عنـوان : « الى جنان الخلد » .

« ساءت صحة فخامة رئيس جمهورية فرنسا »

« بسبب تقدمه فى السن فانتقلت روحه الى بارئها »

وبينما كانت المطـابع تستعد للعمـل ، اتصلت الشرطة فجأة بجميع الصحف وطلبت اليها أن تتوقف عن الطبـع .. لأن الوالى التركى على ولاية بيروت قد اعترض على صيغة الخبر .. اذ كيف يقـال ان الرئيس الفرنسى قـد ذهب الى جنـان الخلد وهو مسيحى ؟ . ثم كيف يقال أنه مات بسبب تقـدمه فى السن والسلطان عبد الحميد متقـدم فى السن أيضا .. ان ذلك يعنى الايحاء للرأى العام بأن السلطان قد قارب الوفاة ، أو أنه من الممكن أن يموت .. وفى هذه وتلك اثارة للخـواطر واقـلاق للأمن العام !

ومن هنا فقد أعيدت صياغة الخبر مرة أخرى ونشرته صحف بيروت على الوجه التالى :

« انتقل فخامة رئيس جمهورية فرنسا الى رحمة الله » .

واستراح المحررون أخيرا .. فقد نشروا الخبر على صورته التى ترضى الجميع ..

ولكن ما كادت الصحف اللبنانية تصل الى الآستانة حتى أرغى السلطان وأزبد ، حيث رأى أن فى نشره على هذه الصورة الأخيرة تقليلا من قدره ، واهانة بالغة له .. اذ كيف يسمى رئيس جمهورية بلقب صاحب فخامة .. وهى حق للسلطان وحده .. وعلى الفور خرجت الأوامر الشاهانية السلطانية الى صحف بيروت ، وغيرها بعدد من الأوامر الخاصة بالألقاب ومنها على سبيل المثال لا الحصر ..

— لا يعطى لقب صاحب الفخامة أو صاحب الجلالة أو صاحب العظمة الا للسلطان وحده دون سواه .

— يلقب الملوك والأباطرة والسلاطين فى باقى أنحاء العالم بلقب حشمتلو .

ويذكر شمس الدين الرفاعى نقلا عن محمد كرد على (١٤) أن أحد الصحفيين أراد أن يكتب « ملكة انجلترا » وحار فى تسميتها وفق الأوامر والنواهى الجديدة .. وأخيرا هداه تفكيره الى أن يقدمها بلقب « حشمتلها » أى مؤنث حشمتلو .. فثار المكتوبجى — الرقيب — وأصدر تعليمات جديدة كان من بينها الأمر باكتفاء بلقب « حضرة » بالنسبة لملكة الانجليز ، ويقال حاكم زنجبار بدلا من سلطان زنجبار ويلقب شاه العجم بلقب « شهامتلو » بصفة استثنائية ، نظرا لموقفه الودى من الحضرة العلية ..

ويقول « محمد كرد على » أن الرقابة على هذه الصورة قد ساهمت بصفة غير مباشرة فى تدريب المحررين والكتاب على البديهة والارتجال وسرعة التحرير وحسن التصرف ، كما ساهمت أيضا فى الارتقاء بالمجلات الأدبية والعلمية التى لا تخوض فى أمور السياسة ، ولا تتعرض لأوامر أو نواهى الرقيب ، أو غضب السلطان .. ومن هنا ، فلم تكن الرقابة كلها شرا .. بل « رب شر أنتج خيرا » (١٥) ..

بل ينحى الكثيرون باللائمة على « المكتوبجية » أو « الرقباء » ويقولون أنهم بالغوا كثيرا فى استخدام سلطاتهم ، حتى يرضى ذلك السلطان .. الذى لم يكن يعلم عن تصرفاتهم الشىء الكثير .. والى حد ضرب مكتوبجى لبنان للصحفى سليم سركيس بالفلقة !!

وأقول .. اذا كان ذلك حقا .. فيالهذا الشر الذى أنتج خيرا .. بل أى خير ذلك الذى أنتجه اذا قيس بكل ما تقدم ..

وأما أنه لم يكن يعلم بكل ما يفعله الرقباء .. فتلك مصيبة أعظم . أليس كذلك ؟!

---

(١) سليمان فيضى « فى غمرة النضال » ص : ٤٩ .
(٢) منير بكر التكريتى « الصحافة العراقية » ص : ٥٦ .
(٣) احسان عسكر « نشأة الصحافة السورية » ص : ١٠ .
(٤) منير بكر التكريتى « الصحافة العراقية » ص : ١٠ .
(٥) عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ج ٣ - ابراهيم المويلحى - ص : ١٢٦ .
(٦-٧) فيليب دى طرازى « تاريخ الصحافة العربية » ج ٢ ، ص : ٧ .
(٨) وزارة الاعلام العراقية : « دراسات فى الصحافة العراقية » ص : ١٠ .
(٩) المصدر السابق ، ص : ١٣ .
(١٠) سليمان فيضى : « فى غمرة النضال » ص : ٥٠ .
(١١) عبد اللطيف حمزة « أدب المقالة الصحفية فى مصر » ج : ٣ ص : ١٢٣ .
(١٢) المصدر السابق ، ص : ١٢٩ - ١٣٠ .
(١٣-١٤-١٥) شمس الدين الرفاعى « تاريخ الصحافة السورية » ج ١ ص : ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ .

لينين :

الدعاية والتنظيم الجماعى واثارة القلاقل والفضــائح

لينين :

الدعاية والتنظيم الجماعى

واثارة القلاقل والفضائح

الزمـــان : الثامنة والنصف من مســـاء يوم ١٤ ينـــاير عام ١٩٢٤ .

المـــكان : حجرة كبيرة داخــل المبنى الضخم المعــروف باسم قصر « الكريملين » .

الموضوع : مقابلة صحفية بين محــرر احــدى الصحف المحليــة التى تصــدر فى أوكرانيــا .. وبين الزعيم القائد المفكر « لينين » .

كانت هذه هى المرة الأولى التى ينجح خلالها المحرر ـ باروفيسكى ـ فى اقتحام هذا المعقل الكبير المشرف كما القلعــة التاريخية على الميدان الأحمــر ، والذى شهدت حجــراته وجــدرانه ودهاليزه وأروقته كل ما تضمنه أو يتضمنــه عالم السياسة من غرائب ، ومناورات ، ومواكب انتصارات ، وجنازات هزائم وقصص ، ومذابح ، تشبه الأساطير تماما ..

أخيرا ، وبعــد الحــاح ومتابعة وصبر ومثابرة استمرت لمــدة عام كامل .. هاهو الرجــل تصــله برقيــة تقــول له أن الزعيم الكبير فى انتظاره .. مساء ذلك اليوم .

وهو يجول ببصره داخل الحجـرة الكبيرة نفسها ، ويتأمل الستائر الحمراء الثقيلة والجدران الفولاذية والمكتب الضخم الفخم الذى كان منذ سنوات قليلة خاصــا بالقيصر .. يقــع بصره على بعض العبــارات والشعارات التى علقت بعناية على هذه الستائر وفوق الجدران .. لقد رآها منذ قليل منتشرة فى أنحاء الميدان الأحمر .. ورآها مرة أخرى فى حجرة رئيس الحــرس ، ومرة ثالثة فى مكتب الحــزب ، ومرة رابعة فى الدهليز الطــويل الذى يؤدى الى هــذه الحجرة نفســها .. وها هــو يشاهدها ويقــرأ للمرة الخامسة ، أو السادسة أو ربما السابعة خــلال ساعة واحدة :

« يا عمــال العــالم .. اتحــدوا »

« ليس عند الكادح ما يفقده .. الا قيده »

« الخبز ــ السلام ــ الحرية »

« كل السلطة للسوفييت »

وغيرها من الشعارات العديدة .. المماثلة ، الى جانب عدد غير قليل من كلمات ماركس ولينين الأخرى .. كما شهد فى ركن صغير من أركان الحجــرة الكبيرة حاملا للكتب دقــق فيه النظــر .. وعرف أن الكتاب الموجود به هو ذلك الذى ألفه لينين فى بداية هذا القرن تحت عنوان : « تطور الرأسمالية فى روسيا » فكر أن يقوم من مكانه ، ويتناول نسخة منه ، ولكنه خشى أن يحسب هذا التصرف عليه ، ولو أنه ليس من بين المحاذير التى أوصاه رئيس تحــرير صحيفته ــ صوت اوكرانيا ــ بعدم الوقوع فى مغبتها والا عرض نفسه للسجن ، وعرض صحيفته للمصادرة ،

كعشرات غيره وغيرها .. تماما كما حذره بألا ينسى نفسه ، أو يحاول أن يختلس النظر ، أو يدقق فيما ليس له به شأن .. فنصف هذا المكان عيون على النصف الآخـر ، وكلهم عيون على من دخـله من خارجه .. هكذا قال له رئيس التحرير نفسه ، وتأكدت له صحة أقواله وهو يمر بعشرات الأشخاص والأسماء والرتب ، وكلهم يدقق فى شخصه ، وفى التصـاريح التى أعطيت له ، وفى صوره ، ومحتويات ملابسه ، والهدف من المقابلة ، واسم عائلته وعدد المعتقلين من أفرادها .. وغيرها .. وغيرها على الرغم من أن ذلك كله مدون بالأوراق التى يحملها ، والتى لاحظ أن أكثر من صورة منها توجـد أمام الأشخاص الذين قابلهم .. أو الذين قادوه فى دهاليز هذا المكان ، وبعضها مظلم يذكر بحانات القرون الوسطى ..

حتى جاءه من يخبره بأن الرفيـق فى انتظـاره .. وقـام بقيـادته ــ لآخر مرة ــ الى حجرة لينين شخصيا .. وليجد الرجل نفســه أمامه وجها لوجه .. بعد كل هذه الاجراءات والتعهدات والتوجسات ..

بعد أن حيا الرجـل « الرفيق » الأكبر .. ورد هذا بدوره التحيـة ودعاه الى الجلوس ، كان باروفيسكى ما يزال يتذكـر كل ما قابله من عناء حتى وصل الى لقـاء الرجل ، ومن هنا فقد قـرر أن يستثمر هذه الفرصة التى أتيحت له تماما ، وأن يحاول الحصول ، قدر استطاعته على كل ما يستطيع الحصـول عليه من الرفيق الأكبر .. كما رأى أن يبـدأ سؤاله بما يتناول هذه الاجراءات نفسها .

المحرر : أيها الرفيق العظيم .. لابد أن أقـول لك فى البداية أننى عانيت كثيرا حتى وصلت الى هذه الحجرة .. فهل يكون على كل صحفى

سوفييتى أن يفعل مثلما فعلت ، وأن يمر بنفس هذه الاجراءات .. وماذا اذن عن الصحفى الأجنبى ، أو المراسل الذى يريد اللقاء بك ؟

لينين : دعنا أولا نتفق على أن هذه الاجــراءات قد وضعهــا رجال الأمن ، ولست أنا ، انه عملهــم وهم يقومون به بالطــريقة التى يرونها مناسبة . ولك أن تعلم أننى منذ عام كامل .. بالتحديد منذ يناير الماضى لم ألتق بغير صحفيين اثنين فقط .. وهما من صحيفة « البرافــــدا » والمحرر بصحيفة البرافدا هو فقط الذى لا يمر بهذه الاجــراءات لأنها ـ كما تعلم ـــ ومنذ قمت بتأسيسها فى ٥ مايو عام ١٩١٢ .. وهى جهاز من أجهــزتنا الرئيسية التى نعتمد عليها كل الاعتمــاد فى دعاوتنا ، كما تحولت بعد الانتصــار العظيم لثورتنا الى جهــاز من أجهــزة اللجنة المركزية للحــزب ، حزبنا الشيوعى السوفيتى ، تقــوم بحمــل تعليماتنا ونداءاتنا وأفكارنا الى الجماهير ، كما تقــوم بواجبها الأساسى والحتمى فى حماية مصالح الطبقة العاملة ..

المحرر : أرى أنك لم تجب على الجزء الثانى من سؤالى ، والخاص بالاجراءات التى تتخذ مع المراسلين الأجانب .

لينين : لقد تعمدت عدم الاجابة على هذا الجزء .. لأنك تعلم تماما أنه لا يوجد عندنا مراسل أجنبى واحــد ولم تتفق بعد فى لجنة الحزب على قبول أى من هؤلاء ، ومن ثم فان الحديث عن مثل هذه الاجراءات لم يحن موعده بعد .. ثم قل لى .. ماذا اذا قمنا بقبول عــدد من هؤلاء الذين بعثوا هم أو بعثت صحفهم الينا ومنذ نجــاح الثورة ، تطلب أن نسهل لهم مهمة العمــل بموسكو .. ثم اتضــح ان هؤلاء من جــرذان الرأسمالية الذين يقــومون بالتجسس على أنشطتنا وابلاغهــا لأعــداء

البلاد ؟ ان عندنا من مهام بناء دولة كل السوفييت والعمل على وحدتها ، ووحده الطبقة العاملة العالمية ما نضع الآن أسسه ، ومن ثم فليس عندنا الوقت الذى نقطعه فى متابعة أساليب هؤلاء .. ولا اعتقد أنه سيكون عندنا من الوقت لمتابعتها قبل أن نرسى معالم هذه الدولة التى نحلم بها ، أو على الأقل ، قبل أن نضع دستورنا الدائم .

المحرر : الرفيق العظيم .. لقد كنت مترددا فى اختيار موضوع الحديث معكم ، ولكن يبدو أننا سنواصل الحديث عن صحافة دولتنا العظيمة ، وعن أفكاركم بشأنها ، وواقعها ومستقبلها .. ولكن ليس قبل أن تقدموا على لسانكم تعريفا بكم تنقله صحيفتنا الى القراء .

لينين : موافق تماما .. ولعلها فرصة طيبة لتعرف الجماهير الكثير عن صحافتنا .. أما عنى شخصيا فاليك هويتى .. وسجل أعمالى .. لقد ولدت فى ٢٢ أبريل عام ١٨٧٠ بمدينة « سمبرسك » .. وقد تحدثت وأنا طالب الى زملائى عن حقوق الطلاب ، وتطرق الحديث الى حقوق آبائنا من العمال والفلاحين ، حيث كانت بعض الآذان تسترق السمع الى حديثى .. فنفيت الى سيبيريا وهناك قاسيت زمهرير الشتاء فى مقابل بضعة كلمات .. وعندما عدت الى مدينتى درست كارل ماركس وكانت لى اهتمامات قانونية كبيرة أطلعت عينى على أشياء كثيرة لم تقدم لى الفائدة عندما قمت بمزاولة المحاماة فى مدينة سمارا فقط ، أو فى مدينة سان بطرسبرج بعدها .. وانما أوضحت أمامى طريق العمل السياسى والدعائى القائم على أرضية صلبة من فهم لعقلية الجماهير ، ولتعاليمات وأفكار ماركس .. أما الفترة التى تعتبر ذات تأثير كبير فى حياتى فهى تلك التى تقع بين عامى ١٨٩٥ — ١٩٠٥ .. ففى هذه الفترة

وضعت يدى على الأسس والمبادىء التى ينبغى الاندفاع نحو تحقيقها بقوة ، كما تنبهت الى أساليب تحقيق ذلك ، وقمت بممارسة تطبيقية لهذه الأساليب نفسها .. عن طريق الكتابة فى الصحف ، وتعبئة مشاعر الجماهير فى أماكن تجمعهم ، كما تعرضت خلال هذه الفترة نفسها للسجن والنفى أكثر من مرة ولمدد متفاوتة .. ولا ننس أننى خلال هذه الفترة نفسها قمت بتأليف الجزء الأكبر من كتابى الذى ضمنته خلاصة أفكارى خلال هذه الفترة ، والذى أطلقت عليه اسم « تطور الرأسمالية فى روسيا » ..

بعد ذلك .. ذهبت الى سويسرة حيث قمت بالاشراف على تحرير صحيفة ثورية .. ثم عدت الى الوطن وقمت بدور تنظيمي لجماهير موسكو الثائرة ولكن الثورة فشلت واضطررت الى الفرار من البلاد لأجتر ثورتى فى صدرى ، واحتفظ بدروس الفشل العديدة ، لتفيدنى بعد ذلك كثيرا .. لقد بقيت خارج روسيا حتى قيام الثورة فى فبراير ١٩١٧ ، حيث عدت الى بتروجراد واشتركت فى توحيد صفوف البروايناريا ، وقمت بوضع أسس ودعائم ديكتاتوريتها ، كما كافحت حتى نجحت فى نقل مقر الحكومة الى هنا .

المحرر : وماذا عن صحافتكم ؟

لينين : لقد كان اتصالى شديدا بالصحافة ، خلال هذه المراحل كلها .. بل وأثناء وجودى خارج البلاد أيضا .. وعندما عدت من الخارج ، قبل سفرى الأخير ، كنت أشد ايمانا بقوة هذه الوسيلة التى يمكنها أن تقدم الكثير والكثير جدا بالنسبة لتجميع كلمة العمال ، وتوحيدها وتنظيم

الدعاوة ونقل الشعارات والمواقف وتفسيرها ، وحشد الجهود والامكانيات ، وتكوين الكوادر التى تحتاج اليها .. ومن أجل ذلك كله فقد كان اهتمامى كبيرا بانشاء صحيفة البرافدا .. وبعد أن قمت باختيار كوادرها العاملة بنفسى وبدقة شديدة ، ووضعت أمامهم خطة العمل خلال هذه المرحلة ، ثم خطة العمل خلال مرحلة ما بعد الثورة .. وهكذا صدرت البرافدا كما قلت لك فى ٥ مايو ١٩١٢ .. وما تزال تصدر حتى هذا اليوم .. ولا أحسب أن شيئا ما سوف يحد من اندفاعتها ، أو يوقف من تطورها أو يحد من قوتها .. لأنها قد أصبحت ـ وكما كان مخططا لها منذ بداية اصدارها ـ صحيفة اللجنة المركزية للحزب .. والتى تستمد قوتها من قوة اللجنة ذاتها .. أقوى سلطات البلاد .. ومن هنا أيضا ، فالبرافدا تمثل تلك الرابطة القوية ، الجسر المتين الذى يربط بين الطليعة والطبقات .

ويستطرد لينين قائلا : أين ذلك كله من صحافة ما قبل الثورة .. تلك التى كانت لا تخرج فى مادتها عن تمجيد القياصرة ، والكتابة عن أعمالهم مهما كان نوعها ، حتى أنها كانت تمتلىء عن آخرها بأخبار زواجهم وطلاقهم ورحلات صيدهم وزياراتهم وولائمهم .. دون أن تكتب حرفا واحدا عن العامل السوفييتى الذى يقاسى الأمرين فى منجم يقع عند بطن الأرض ، وعلى عمق مئات الأمتار ، أو قاطع خشب يعمل فى سيبيريا والثلج يجمد أطرافه .. ولكنه يعمل .. ويعمل ليحضر لأطفاله قوت يومه .

المحرر : لقد تحدثنا كثيرا عن البرافدا .. فماذا عن الصحف الأخرى ؟

نينين : هذا حق البرافدا علينا .. ولكننا لم نكمل الحديث بعد .. فبالاضافة الى هذه الصحيفة الأم « البرافدا » فقد بذلت مجهودا خارقا

عقب عودتى ببضعة أيام فقط ، وعلى أثر نجاح الثورة ، وبعد اقتناع كامل منى ، ومن عدد آخر من زعماء الثــورة قمت باختيار نخبــة ممتازة من الثوريين المحترفين ، والذين كانوا يتذوقون حــلاوة النصر .. أردت أن أجعل منهم هيئة تحرير أخرى لصحيفة جديدة ، لا تنافس البرافدا ، ولا تختلف فى سياستها التحريرية عن الخط الثورى العــام ، وانما تعبر عن الجانب الرسمى الحكومى .. ومن ثم فقد صدرت صيحفة «أزفستيا» .. فى ١٣ مارس ١٩١٧ ، أى بعد صدور البرافدا بحوالى خمسة أعوام .. ثم تتابع بعد ذلك صدور صحف النقابات والجمهوريات المختلفة .. والوزارات أيضا وعندنا الآن مئات الصحف المتنوعة ..

المحرر : هل يمكن للرفيق العظيم أن يحدثنا عن الفلسفة التى تعمل على تسيير سياسات واتجاهات هذه الصــحف كلها ، وكيف يرى مهامها الرئيسية ..

لينين : هذا موضوع شائك ، ولكنه أساسى .. وقد كنت أخاف أن يمر الوقت ، دون أن توجه لى مثل هذا السؤال الهام .. والآن استمع الى ما أقوله لك ..

اننا نؤمن تماما ، ومنذ كنا من الثوريين الطلاب ، أن هدف الصحافة لا يقوم على الاتجار بالأخبار أو المقالات أو الصور أو أنواع الكتابات الأخرى .. وانما العمل على توعية الجماهير واعلامها بما يعمل على ترتيبها وتنظيمها ووحدتها .. ومن أجل ذلك كله فقد اهتمت البرافدا منذ صدورها بتحقيق هذه الأهداف وبأسلوب ثورى .. حيث كان كتابها يعتبرون من طلائع الثوريين المحترفين ، ومن مثيرى القلاقل الخبراء ، والذين يعرفون كيف يثيرون الجماهير ويدربونها ، ويجذبونهم اليها ، حتى يمكن تدريبهم تدريبا كاملا ، على الانتظام والوحــدة واللحــاق بهذه الطليعة الثورية نفسها ..

ويضيف لينين قائلا : ومن هنا أيضا فقد سعينا الى نشر أسباب الاضطراب والفوضى واثارة الفضائح التى زخر بها المجتمع القيصرى ، وكشف الطرق التى تخفى الطبقات الحاكمة وراءها مصالحها الأنانية ، والعمل على اسقاط جميع الأقنعة التى تضعها هذه الفئة الطاغية المسيطرة على وجوهها ، وتعريتها تماما أمام الجماهير .

ويدق لينين بيده جرس مكتبه .. ويفتح أحد الأبواب الجانبية ويدخل منه رجل ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، يشير له الزعيم اشارة معينة ، يعود بعدها حاملا كتابا كبيرا ، يمد لينين يده ويتناول الكتاب الأحمر الغلافة ، الذى وضعه الرجل على مكتبة ، ثم يفتحه ويستمر فى حديثه .

لينين : لقد أردت هنا أن أطلعك بالضبط على ما كتبته منذ ثلاثة أعوام عن هذه النقطة بالذات .. لقد قلت بالحرف الواحد : « لن يجد العامل تلك الصورة الواضحة فى الكتب ، لأنه لن يجدها الا فى وقائع حية فيما يدور حولنا ولا تتناوله الا همسا فيما بيننا ، وتكشف عنه الوقائع والأرقام والأحكام .. وتلك الفضائح التى تتناول جميع الميادين هى الشرط اللازم الأساسى لتهيئة الجماهير للقيام بنشاطها الثورى » .. لقد مهدنا الأذهان لما حدث بعد ذلك ، وكانت صفحات البرافدا خير معين لنا على الوصول الى الجماهير ، وحشدها ، وايقاد نيران غيظها وحقدها .

المحرر : وكيف كانت الأمور تسير فى تلك الأوقات ؟

لينين : لقد نجحنا الى حد كبير ، منذ صدور العدد الأول فى بترسبورج ، تحت الحكم القيصرى ، وأقدم عدد كبير من العمال على قراءة الصيحفة ، بل وعلى تأييدها وجمع التبرعات له ، خاصة عندما بدأت الصحيفة تنشر صور العمال العاديين ورسائلهم العديدة التى كانت تتحدث عن اضطهادهم ووسائل استغلالهم وظروف معيشتهم السيئة .. كما أفردنا

بابا خاصا نرد فيه على مطالبهم ، ونعلن الحرب على جلاديهم ومن ثم ، كان لذلك كله مردوده الايجابى ، ليس على نجاح الصحيفة فقط ، وانما على اشعال نار الكفاح الثورى فى نفوس العمـال والفلاحين .. وذلك كان هدفنا الأول ..

المحرر : وماذا كان موقف السلطات حيال ذلك كله ؟ وهل تركتكم تفعلون ما تريدون دون تدخل فيها ؟

لينين : وهل هذا معقول ؟ .. لقد تعرضت الصحيفة كما تعرضنا نحن لمختلف ألوان العسف والاضطهاد وحتى النفى والتشريد .. لقد مارست السلطات فى ذلك الوقت جميع ألوان التقييد المعروفة ، وغير المعروفة بدءا بممارسته التعنت فى الحصـول على الورق ومرورا بمداهمـة البوليس لمطبعتنا وفرض الغرامات العديدة علينا ، والتى كان بعضها فوق طاقتنا .. وحتى مصادرة الأعداد كلها قبل أن تخرج من المطابع لقد حدث ذلك ثمانى مرات فى عهد الحكومة القيصرية .. ولكننا كنا نتحايل بطرق كثيرة ، فمرة نتوسط الى رئيس الشرطة ، ونقنعه بمواقفنا ونعمل على تسريب عشرات من الأعداد الى الخارج ، ومرة أخرى نقوم باخفاء الأعداد داخل العربات التى تذهب الى الريف فى المساء وتعود صباحا محملة بالخضر والفاكهة والبيض واللبن ، ومرة ثالثة نستسلم فى الصباح ، ونصدرها فى المسـاء باسم جديد .. لقد حدث ذلك أكثر من مرة .. وها هى الصحيفة بين يدى القراء ، توزع عليهم يوميا حوالى الربع مليون نسخة ، وهو رقم لم تصل اليه حتى اليوم ، أية صحيفة رأسمالية معاصرة .

المحرر : والآن وقد نجحت البرافدا .. كما أحرزت أزفستيا نجاحا لا يقل عن نجاحها .. هل لكم أن تحددوا لنا أهم أسباب هذا النجاح ؟

لينين : نعم .. وبعضها تناولناه خلال هذا الحديث نفسه بشكل أو بآخر ، كما أن بعضه قد تناولته فى كتاباتى ، وخطبى .. ان فى مقدمتها على سبيل المثال لا الحصر هذه الأسباب كلها ..

ـ التعبير عن مطلبين أساسيين لجماهير العمال والفلاحين وهما : الأرض والسلام .

ـ اثارة القلاقل وتعرية النظام الرأسمالى ، وفضح الاقطاعيين ومداعبة آمال وأحلام الجماهير .

ـ اعطاء الجماهير الفرصة كاملة للتعبير عن أفكارها وآرائها وكشف الظلم الواقع عليها وتسجيل استنكارها له .

ـ استبعاد الطابع التجارى للصحف كلية ، وكذا استبعاد فكرة صحافة الأفراد .

ـ العمل باستمرار استنادا الى خطة سياسية واضحة تحدد الهدف والطرق المختلفة والعملية المؤدية الى الوصول اليه .

المحرر : سؤال أخير : كيف ترى حرية الصحافة السوفييتية ؟ وما هو مفهومها فى رأيكم ؟ وهل يمكن أن يتضمن الدستور السوفييتى المنشود ما يشير الى هذه الحرية والى طبيعتها وحدودها ؟

لينين : حسنا .. لقد تحدثت كثيرا فى هذا الموضوع .. ان لنا نحن هنا فى الاتحاد السوفييتى مفهومنا الخاص للحريات جميعها ، والحرية الصحفية ، أو حرية الصحافة واحدة منها .. اننا نكره الشعارات الجوفاء، التى لا تجد لها التطبيق العملى على أرض الواقع نفسه ، ومن ثم ، فانه اذا كانت صحافة الرأسماليين ترفع شعار الحرية كذبا ونفاقا ، وحيث لا حرية على الاطلاق ، مما يحوله الى شعار مزيف ، أو طبل أجوف ، أما بالنسبة لنا فان شعار الحرية الذى نرفعه يحمل فى مضمونه ويتحدد

مفهومه أيضا وفقا لمصالح الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وجنود ومثقفين وثوريين ، وعلى سبيل تدعيم النظام الاشتراكى .. وغير ذلك فلا حرية على الاطلاق .. بل ان الحرية نفسها تصبح ترفا صحفيا ، لا أعتقد أننا نقدر عليه الآن ، أو سنقدر عليه فى المستقبل القريب ..

مرة أخرى يدق الزعيم الجرس الموجود على مكتبه ، ويدخل رجل آخر ، ضخم أيضا عريض المنكبين أيضا ، ولكنه غير الرجل الأول ، بل يزيد عنه بشارب « قيصرى » لعله من بقايا العهد السابق .. يدخل ، ويشار اليه ، ويخرج ، ويدخل مرة أخرى وفى يده كتاب آخر .. يضعه على المكتب الضخم ، ثم يغادر فورا ، فى خطوات ــ رغم ضخامته ــ سريعة ..

لقد تعرف المحرر على الكتاب هذه المرة .. انه كتاب لينين نفسه المسمى : « نظريات حول الديموقراطية البورجوازية وديكتاتورية البروليتاريا » والذى صدر منذ عامين فقط ..

يمسك لينين بالكتاب ويتجه بوجهه الى المحرر ، يفتح الكتاب ويقول :

أظن أننى عبرت عن مثل ما تحدثت به اليك الآن ، على صفحات هذا الكتاب ..

يمد يده اليه بالكتاب .. بعد أن يشير الى فقرة محددة على احدى صفحاته ، يطلب من المحرر هذه المرة أن يقرأ بنفسه .. يتناول المحرر الكتاب الضخم بين يديه المرتعشتين مخافة أن يفلت من بينهما .. يقرأ بصوت مخنوق .

« حرية الصحافة هى أحد الشعارات الرئيسية فى الديموقراطية الصافية ، الرسماليون يفهمون بحرية الصحافة حرية شراء الأغنياء لها ، حرية استخدام الثروة لصنع وتزييف الرأى العام .. الحرية الحقيقية

لا تتجلى الا فى النظام حيث تنعدم الامكانية الموضوعية لاخضاع الصحافة لسلطة المال مباشرة ، أم بطريقة غير مباشرة » .

بعد أن خلص من القراءة ، يلتقط المحرر أنفاسه و « يبلع ريقه » ويحمد الله على أنه لم يخطىء بينما ينطلق لينين فى حديثه مرة واحدة ..

هذا هو مفهومنا للحرية الصحفية ، ولحرية الكلام ، ولكل الحريات.. التى ينبغى أن يمنحها دستور الاتحاد السوفييتى للمواطنين الذين ننظر اليهم ككل وليس كأفراد .. كل يمثله أعضاء الحزب .. وهؤلاء تمثلهم القيادات التى تقرر هذه الحريات كلها ، بما يتفق ومصالح الشعب العامل، ودعم النظام ..

عند ذلك الحد أحس المحرر أنه قد أخذ من وقت زعيمه أكثر من المقرر .

فقام وشكره كثيرا .. ثم ودعه مسلما .. ولينين يكرر على مسمعيه

لا تنس أن تقول أن أفضل حرية للصحافة ، هى ما يرى الحزب أنها الأكثر صلاحية لليوم والغـد .. وفقا لمصالح الطبقات العاملة .. ودعما للنظام ..

ويرد الصحفى : لن أنسى .. لن أنسى مطلقا أيها الرفيق العظيم .

ملحوظة : فكرت طويلا فى أسلوب جديد لتناول أفكار هذا الرجل ــ الجافة أصلا ــ حول الصحافة ، ولم أجـد خيرا من هذا الحـديث الوهمى .. الذى لم يجر على الاطلاق ، وان كان ما به قـد أخـذته عن الرجل نفسه ، وكتاباته العديدة .. وصحافته أيضا فمعذرة !

أتاتورك :

منقذ الدردنيل

والهجوم العاقل

أتاتورك :

منقذ الدردنيل
والهجوم العاقل

ما يزال بعض الخلاف حول هذا الرجل يقوم .. ويحتدم أيضا ..

.. نعم .. على الرغم من أن حركته ، أو انقلابه ، أو ثورته .. قد مر عليها أكثر من نصف قرن من الزمان ، الا أن تضارب الآراء وحيرتها ، بل وحيرة المؤرخين أيضا .. ما تزال ماثلة للأذهان ، تقفز الى الوجوه فى شكل علامات استفهام عديدة وكبيرة ..

وبالطبع لم يكن من المنتظر أن تصبح صحافة الغرب ، وصحافة الشرق ـ معا ـ أقل حيرة من كتب التاريخ والمؤرخين .. فبينما نجد أن الكتاب الاسلاميين على اختلافهم ينحون باللائمة عليه ، ويحملونه كل ما أصاب الاسلام من ضعف ووهن وما استتبعهما من نتائج كانت لها تأثيراتها البعيدة المدى على الدين الحنيف ، وعلى أهله وعلى دوله .. نجد أن بعض هؤلاء يضعه فى مكان لم يبلغه أحد من الزعماء..كيف لا ، وهو صاحب واحدة من أبرز الحركات النضالية الاستقلالية فى العصر الحديث كله ، وليس فى القرن العشرين ، أو نصفه الأول فقط ؟ .. ذلك كله بينما نجد واحدا من أكبر مؤرخى هذا القرن نفسه : هـ٠ا٠ل فيشر يقول عنه بالحرف الواحد أنه كان : « شرس الطباع قاسى القلب ميالا الى الخصام والشجار وكانت عربدته فظة ، وفجوره قاسيا ودعاواته عنيفة متسقة مع تقاليد أمته » (١) ..

وحتى هذا الرجل نفسه ، فانه وهو يصفه بهذه الصفات كلها ، لم ينس أن يعترف له بأنه ذلك الرجل الذى يمتلك بنية من حـديد وارادة قدت من صلب ، ونفاذ بصر وجلاء فكر واسـتقلال رأى وموهبـة فى الزعامة الحربية والسياسية .. الى أن يقول : « كانت كلها مناقب انفرد بها دون سائر بنى جلدته »(٢) ..

ذلك هو « الذئب الأغر » « الغازى » « منقذ الدردنيل » و «موقظ تركيا » « مصطفى كمـال أتاتورك » الرجل الذى قام بحركته النضالية الاستقلالية الكمالية التى قلبت الصورة فى تركيا تماما رأسا على عقب ، والتى أدت الى انشاء دولة تركية جديدة ، وسط ركام آلام الامبراطورية العثمانية ، وحطام شيخوختها المبعثر ، وبعد أن كان الحال قد بلغ بدولة الخلافة ، والاسلام ، والباب العالى ، مبلغا لا يرضى أحدا ، أو على حد تعبير صحيفة التايمز اللندنية : « وصلت الى حالة من الضعف والشـلل التام .. وأصبحت أكبر مثال لما يمكن أن يورثه السفه والغفلة والغرور والاسراف والجهل والتعصب وسوء الادارة ... جميعها اجتمعت عليها .. وفى آن واحد » .

وبصرف النظر عن جميع أفعال الرجل وعن أننا نقف تماما فى صف المعارضين لبعض ما جاء به ، وما أحله بالقوة الطاغية ، خاصة ما يتصـل بالدين الاسلامى والقرآن الكريم واللغة العربية ، وكذلك ، بصرف النظر عن ايماننا المطلق بأنه كان يستطيع أن يحقق ما حققه ، وأن يصـل الى ما وصل اليه ، وربما الى أكثر من ذلـك ، دون أن يوجه طعنـاته الى المقدسات الاسلامية ، والعبادات ، ولغة القـرآن .. الا أننا لا ننكر له دوره الوطنى الكبير الذى قام به ، ولا اخلاصه أو تفانيه فى نهضة بلاده وتتريكها والبحث لها عن مكان تحت شمس العصر ..

لتأتى الآن دور الحديث عنه ، من زاوية الصحافة ..

كيف كان « الذئب الأغبر » يراها ؟ .. وما هو رأيه فيها ؟ ومواقفه منها ؟

الحق أنه لم يكن من المعقول ، ولا من المقبول ، ألا يلتفت الرجل — وهو داعية وصاحب فكرة ، وزعيم وطنى ، وقائد عسكرى — الى هذه الأداة الاعلامية والدعائية الكبرى ، لا سيما والآستانة — عاصمة الخلافة — كانت تزخر بالعشرات من مندوبى الصحف العالمية ووكالات الأنباء الكبرى ، والذين كانت اقامتهم بها شبه دائمة ، لأنها كانت فى ذلك الوقت وعلى الرغم من تردى حالتها .. من العواصم الكبرى صانعة الأحداث العالمية .. حتى وان كانت هذه الأحداث نفسها تسير فى اتجاه مغاير لمصالحها ..

وبالاضافة الى ذلك كله ، فان الرجل كانت صلته قوية بأفكار الزعماء والقادة من الذين شهدتهم هذه الفترة نفسها ، وكان أبرزهم ممن بلغ اهتمامه بالصحافة مداه والى حد الاشتغال بها ، قبل ظهور حركته ، وبعدها أيضا .. وذلك مثل « لينين » و « موسولينى » و « هتلر » .. وغيرهم ..

بل ان الرجل نفسه — مصطفى كمال — كان يعرف الى أى حد كان اهتمام السلاطين بهذه الوسيلة ، ذلك الاهتمام الذى جعل بعضهم يجرى الرواتب الكاملة ، ويدفع الرشاوى أيضا ، لعشرات من الصحف الأوربية ، ومئات من الصحفيين ..

ومن هنا ، فقد بعث الرجل ، وهو ما يزال فى شرخ الشباب الى رئيس تحرير صحيفة « صون بوسته » التى تصدر فى الآستانة برسالة يرجوه فيها أن تتاح له فرصة الكتابة والتعبير عن أفكاره ، وكذا عن « هذا الظلام الرهيب الدامس الذى تسير فيه البلاد دون أن يدرى أحد الى أين تسير وما هى النهاية » .. ويعبر فى خطاب آخر له بقوله : « لقد

استسلمت بلغاريا وانقطعت الصلات بيننا وبين ألمانيا وألقى جنودنا السلاح ووقعوا الهلندنة على ظهر بارجة انجليزية .. وهذه هى أساطيل الحلفاء تحتل مضيقى الدردنيل والبوسفور ، والجيش قد سرح أكثره والانجليز والفرنسيون يقتسمون البلاد والأرمن والروم يوجهون الطعنات واليونان تحتل أزمير ... وماذا بعد؟ ألستم معى فى أنه لابد من العمل الكبير وأن وقته قد جاء تماما؟ » .

وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من خطاباته المقالية لم يجد طريقه الى النشر ، الا أن اتجاهه الى الصحافة ، فى هذه المرحلة المتقدمة يؤكد انه كان ينتظر منها وعلى يديها الكثير !! وقد أكد الرجل ذلك ، بعد أن بدأ كفاحه المعلن فى أكثر من صورة ، من بينها أنه كان يدعو عددا من الصحفيين الأتراك الى اللقاء به ومبادلتهم الرأى والمشورة فى ما آلت اليه أحوال البلاد .. كما سمح لبعضهم بحضور عدد من اجتماعاته السرية ، وأرسل البعض الآخر فى مهام خاصة ببعض البلاد الأوربية والعربية ، كما شجعهم على الاشتراك فى عدد من الجمعيات التى كان أعضاؤها يتدارسون وسائل الخلاص ، مثل جمعية « تراكية » و « الدفاع عن الولايات الشرقية » و « جمعية حفظ الحقوق » و « تعالى الاسلام » . وغيرها من تلك التى ساهم « الزعيم » فى نشاطها المبكر بشكل أو بآخر .

وقد أسفر ذلك كله عن نشأة صداقة بينه وبين عدد من الأتراك الذين كانوا يوالون الكتابة عن مثل هذه الأمور فى صحف تلك الأوقات مثل خالدة أديب وبكر سامى والحاج عادل وسعيد ملا — على الرغم من الميول الانجليزية لبعضهم — كما نشأت مثل هذه الصداقة بينه وبين عدد من كبار الصحفيين أنفسهم حتى أنه يقال أن بعضهم قد سهل قدومه الى الأناضول ليبدأ كفاحه ، كما أن أحد الصحفيين قد سهل له مقابلة السلطان وحيد الدين نفسه ، ثم عاد ونشر تفاصيل هذه المقابلة التاريخية التى حاول فيها — كما يقول — أن يقوى من عزائم السلطان وأن يثبت فى روحه

الجرأة والقوة .. وان كان هذا النشر نفسه قد لفت اليه أنظار عشرات من عيون الدول الأوربيـــة ، وجواسيسها الذين كانوا ينتشرون فى كل مكان ؛ فبدأ هؤلاء يحذرون سفراءهم من الرجل ، وأفكاره ، وشعبيته المتزايدة ، خاصة بعد أن ذهب الى « صامسون » وبدأ تفكيره الجـاد والعنيف أيضا فى موا جهة حالة الشلل العثمانى ..

يقول محمدة عزة دروزة : « وهكذا أخذ توجيـه الزعيم ودعوته يظهر هنا وهناك ويتردد صداه داخلا وخارجا ، وقد كان الانجليز أسرع الناس الى الشعور بالحالة ، وبما قد تصل اليه من أطوار فسارع مندوبهم السامى الى تقديم مذكرة الى الباب العالى فى ٣١ نوار ١٩١٩ .. الخ »(٢).

على أن ذلك ــ بالطبع ــ لم يمنع من وجود صحف كثيرة تهاجمه وتلقى عليه بأكثر من اتهـام فقيل عنه أنه مغرور .. متصلب ، ملسلط ، يهدف الى تحقيق أمجـاد شخصية فقط .. ذلك كله بالنسـبة للصحافة التركية ، أما الصحف الأجنبية فحدث ولا حرج عن هجومها عليه ، ونعته بعشرات من النعوت التى يندى لها الجبين .. حتى أنه قبيل انتخابه رئيسا لحكومة المجلس الوطنى الكبير الأولى ، رأى أن ينبه أعضاءه الى ما ينشر أو يذاع أحيانا ضده ، من مقالات وفتاوى ولعنات ، وأهاب بهم عـدم التأثر بذلك ، كما نفى نفيا باتا ما نسبته اليه الصحافة الغربية ، وبعض الصحف التركية من غرور وطموح شخصى يصـل الى حـد البحث عن الأمجاد دون النظر الى عواقبها ، وما يتصل بذلك كله من رئاسته للدولة وحلوله محل السلطان ، وهو ما كانت تشيعه تلك الصحف ..

ولكن السنوات التالية والتى شهدت الانتصارات العديدة للغازى، كما شهدت أيضا التحولات الضخمة والخطيرة فى تركيا .. أو تلك التى أدت الى تركيا الحديثة ومن بينها :

« هزيمة اليونان ودخول الترك أزمير ــ انتهاء حكم آل عثمان ــ

احتلال الآستانة ــ ازالة كل شيء يرمز الى النظام القديم فى تركيــا ــ الغاء الامتيازت الأجنبية ــ الغاء الخلافة ــ علمانية الدولة ــ ترجمــــة القرآن الكريم الى التركية ــ ارتداء القبعة بدلا من الطربوش ــ خروج المرأة الى العمل ورفض الحجاب ــ ادخال الحروف اللاتينية فى الكتابة التركية ــ اقتباس القوانين الأوربية ــ الغــاء الجمعيات الدينية والطرق الصوفية ــ اتخاذ أنقرة العاصمة ــ اقرار التاريخ الميــلادى ــ الغــاء الألقاب » .

هذه السنوات نفسها شهدت مجالات عديدة من مجالات الاحتكاك المباشر بين الرجل والصحافة وصحيح أن أكثرية الصحف ، بل غالبيتها العظمى ، لم تستطع الا أن توافق ، وأن تؤيد ، وأن تصــفق أيضــا ، وبحرارة شديدة .. بينما كانت أقلية منها ــ الصحف التركية ــ تعارض بصوت مبحوح ، لا يكاد يستمع اليه أحــد ، وذلك وسط الأصــوات الكثيرة جدا والمرتفعة للغاية ، التى بدت مؤيدة ، عن اقتناع أو عن خوف.. وأما هذه التى استطاعت أن تعارض بصوت عال فقــد كانت قلة نادرة للغاية ، ولا تعد على أصابع اليد الواحدة .. وحتى هــذه أيضــا ، فان معارضتها لم تستمر طويلا .. بل انتهى بها الأمر ، الى أحد موقفين .. اما العودة الى الصفوف المؤيدة بحرارة ، حتى قيل أنها أصبحت « كمالية » أكثر من صحف الرجل نفسه ، واما أثرت هذه العزلة منها ، عن الجماهير العريضة المبهورة بقائدها ، المصفقة له وهو فى مواكب انتصاره ، ومن ثم كان عليها أن تواجه انصراف القراء عنها ، وأن تكافح من أجل وجودها وهو مالم تستطع أن تحققه ولا كان لها ذلك ، فقد كان أصحابها يعلمون أن السلطة من أمامهم ، وبحر الجماهير المؤيدة للغــازى ، منقذ البلاد ، وتهاوى التوزيع من ورائهم ..

كانت هذه هى الصورة التى تابعت تلك الأحداث الكمالية ، أحداث اليقظة التركية كلها .. ولكن هذه الصورة نفسها والتى تشــمل موقف

الرجل من الصحافة ، كانت لها عدة أبعاد أخرى وبعض التفاصيل التى لابد من الاشارة اليها .. ومن بينها هذه كلها على سبيل المثال لا الحصر :

— أن الذئب الأغبر قد قرأ ذات مرة فى احدى صحف المساء التركية مقالة لأحد الكتاب موقعة بالأحرف الأولى ، اشتم منها رائحة أجنبية خبيثة — على حد تعبيره — تأتي من الغرب .. أي من اليونان ، وتتهمه بجنون العظمة ، فما كان منه الا أن قام بجمع محرريها ، وطلب منهم أن يقفوا أمامه فى شكل طابور عسكرى ، ثم لقنهم درسا فى الأخلاق والوطنية وبعد ذلك طلب منهم الانصراف ، ليس الى مقر الصحيفة الذى كان جنوده قد داهموه وصادروا جميع نساخها .. وانما الى بيوتهم .. وبالخطوة العسكرية أيضا .

— أنه أمر بأن تتوقف جميع الصحف التى سبق لها وأن بايعت سلاطين آل عثمان وامتدحتهم وأظهرت غلوا فى هذه البيعة ، وذلك المديح ، وقام بنفسه باعداد قائمة بهذه الصحف ، وطلب من تلك التى تريد أن تعود الى الصدور أن تكتب طلبا جديدا بذلك ، وله هو شخصيا أن يوافق أو لا يوافق .. كما أنه كان يطالب الصحف العائدة باثبات ما يبرر عودتها ، من خلال موادها المختلفة .

— وحتى قبل هذه الانتصارات العديدة التى حققها ، والتحولات الخطيرة التي شهدتها البلاد فى عهد زعامته .. فان « قانون الخيانة الوطنية » الذى أصدره ، لم يسلم من عقوباته عدد من الصحفيين الاتراك ، هؤلاء الذين حكم عليهم بـ « حبس القلعة » نظير بعض مقالاتهم التى وجد القضاة أنها تندرج تحت ما يسميه القانون « اسناد تهمة غير صحيحة » ..

— وعندما قامت معارضة قوية داخل المجلس الوطنى الكبير للخطوات التى قام بها الرجل ، وعلى وجه الخصوص ما يتصل بالاسلام

وبالغاء الخلافة ، وتكونت هذه المعارضة من عدد من النواب الأقوياء .. مما أدى الى ثورة الأكراد بقيادة الشيخ سعيد انتصارا للدين وحماية له من الملاحدة وقام الغازى بقمعها ، فانه أسرع باصدار « قانون اقرار الأمن والسكون » فى ١٤ مارس ١٩٢٥ .. والذى يخول حكومته أو من ينوب عنها سلطة تعطيل ومصادرة أية صحيفة أو منشور أو مجلة أو رسالة يكون من شأنها بث الهياج والتحريض على الارتداد والعصيان ، أو أن يكون من بين مادتها « تحريضات وتحريكات على اخلال أمن الدولة ونظامها الاجتماعى والسياسى » .. كما نص القانون على المنع الادارى بتصديق رئيس الجمهورية ، وأمر كذلك باحالة الناشرين الى محاكم الاستقلال .. كما أصدر عدة مواد الحقت بقانون الخيانة الذى سبقت الاشارة اليه ، وكان من نتيجتها تقديم زعماء المعارضة البرلمانية والصحفية الى المحاكمة ، وكان من نصيب بعضهم الشنق بينما نجا زعيما المعارضة كاظم قرة بكر وعلى فؤاد بشق النفس ، حيث عفا عنهما الغازى فى اللحظة الأخيرة .. تقديرا لما كان بينه وبينهما من صداقة طويلة سابقة .

ـــ كذلك فنحن نقرأ فى قانون انشاء حزب الشعب ـــ المادة ٢٧ ـــ « على الصحف والمجلات التى ينتمى أصحابها الى الحزب ، وعلى الكتاب المنتسبين اليه والذين يكتبون فى صحف ومجلات عامة مراعاة مبادىء الحزب وأهدافه فيما يكتبون وينشرون ، وتنظم اتصالات واجتماعات بين صحفيى الحزب من محررين وأصحاب صحف لضمانة السير فى هذه الخطة .. وعلى أعضاء الحزب الذين لهم صلات مالية ونفوذ فى صحف ومجلات أخرى أن يهتموا لعدم نشر أى شىء مخالف لنظام الحزب ومنهجه وخطوط سياسته الداخلية والخارجية .. الخ » (٤)

واذا كانت هذه المادة نفسها تعنى كثيرا ، فانها تضاف أيضا الى هذا الاهتمام البالغ من جانب الرجل بالصحافة .. على الرغم من ضحاياه من الصحف ، ومن الصحفيين .. ولكنهم — على أى حال — كانوا أقــل عــددا من ضحايا السلاطين ، وقصر يلدز .. والمــابين .. وغيرهما من القلاع العثمانية . لقد كان الرجل يهاجم الصحــافة ، وبشدة ، ولكنه كان على أى حال هجوما من النوع المفيد ، والعاقل ، فى أكثر الأحيان ، وباستثناء صــورة قليلة جــدا ، كان الهجــوم يتحول فيها الى هجوم كاسح ، ممزق ، ومتجبر .

(١-٢) هـ.أ. ل فيشر : ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضــبع : « تاريخ اوربا فى العصر الحــديث » ص : ٢٨٠ — ٢٩١ .

(٣) محمد عزة دروزه « تركيا الحديثة » ص : ١٩ .

(٤) المصــدر الســابق ص : ١٩٣ .

فيصل الأول :

العهد الذهبى ..

لا يدوم طويلا .. :

فيصل الأول :

العهد الذهبى
لا يدوم طويلا

على أثر سنوات طويلة من الرقابة المريرة التى كانت تقوم بها « المشروطية » .. وعلى أثر « رقباء » من قليلى الحيلة والفهم والتبصر .. لم يكن همهم واحدا فى اثر آخر ، غير التنافس على ايقاف الصحف ، وتعطيل المجلات ، والتنكيل بالصحفيين والكتاب ، واضطهادهم ونفيهم وتشريدهم .. حتى أضافوا بتصرفاتهم عددا من المواد الرهيبة ، فوق ما أضافه أو جاء به القانون العثمانى نفسه .. أى قانون عثمانى ..

وكذا .. على أثر مشاعر الخوف المستبدة بالولاة ، والسلاطين ، وتحولها الى أكثر من صورة تؤكد طبائع الاستبداد ، وتتحدث عن يد الخلفاء الطويلة ، وعيونهم المترصدة ..

على أثر ذلك كله ، وغيره من الصور السلطانية الشاهانية الخاقانية ،، كان ما كان من هزيمة تركيا « الرجل المريض » فى الحرب العالمية الأولى ، وتأكيد ضياع وانسلاخ أكثر أجزاء امبراطوريتها .. وقيام الغازى مصطفى كمال أتاتورك بانقلاباته الشهيرة .. وحيث حصلت سوريا على استقلالها ، بعد أن أنهت الحرب الاحتلال التركى لها ، بكل ما جاء به من خير وشر ..

تنفس السوريون الصعداء ــ الى حين ــ وخرجوا يعانقون شمس حياة جديدة تشرق على دمشق وحلب ، وغيرهما من المدن السورية ،

لأول مرة منذ عشرات السنين .. خاصة وأن السنوات الأخيرة كانت قد شهدت أكثر من لون من ألوان العسف ، وأكثر من صـــورة من صور التقييد ، تتمثل فى تلك الســدود التى أقامتها الحــرب ، وأحكامهــا العرفية ..

وكان من الطبيعى أن تتفــق الآمال الشعبية العريضــة ، مع ولاية « فيصل الأول » حكم البــلاد على أثر انتهاء هذه الحرب ، وأن يعرف هذا بدوره ــ ولم يكن يعوزه الذكاء ــ أنه انما يمثل عهــدا من عهود الانقاذ واليقظة ، والمضى فى سبل التطور .. وأحلام بنــاء دولة حديثة ، وتغيير الصورة فى البــلاد السورية تغييرا كاملا .. قدر لهذا الرجل أن يقوم بذلك كله .. ومن هنا فقــد شحذ عزمه تماما واستنهض همته .. وبدا على الفور يستجيب فى فعالية كاملة للمشاعر الوطنية ، بل ويسبقها باكثر من خطوة ..

وكان من الطبيعى ، ألا تتأخر الصحافة السورية عن ركب الاستقلال والبناء ، وأن يقــوم الصحفيون السوريون بدورهم الجديد بهم ، بعد عشرات السنين من الكبت والصراخ المبحوح وقيــود الرقابة ، وألاعيب الرقباء . ومن هنا ، فقد كان العهــد الفيصلى يعنى أيضا عهدا صحفيا جديدا ، تقــوم فيه الصحافة بدورها الهام والقيــادى ، دون سدود أو قيود ، وبغير خوف أو قلق أو تردد ، أو تهديد لصحيفة أو لصحفى ..

ومن هنا ، وعلى حــد تعبير نقيب الصحفيين الســوريين الأسبق ــ نصوح بابيل ــ انطلقت الأحاسيس القومية المكبوتة .. لتفعل فعلها ، وكان العهد الفيصلى يعنى وبالاضافة الى ذلك كله بداية جديدة لظهور الصحف الوطنيــة ، التى انطلقت على صفحاتها الأقــلام من عقالها ، لتكتب عن الاستقلال والحرية ، والاخاء ، والدين ، والقومية ، والنمو ، والتطور ، وآثار الحرب ، وذكريات العهــد العثمانى وأمور الاسلام ، وغيرها ، وغيرها من أمور كانت تعرض الصحف للتعطيل والمصــادرة ،

ولغضب الولاة وعسف الرقباء .. بل كان مجرد ذكر بعضها على صفحات جريدة أو مجلة ، يعنى مصادرة أعدادها وربما ما هو أكثر من ذلك ..

لكن الأهم من ذلك كله ، هو ذلك الموقف الجسور ، والذى بلغ اسمى درجات التعاطف والحدب من هذه الصحافة الوطنية المرحلية الهامة .. فان رجلا غير فيصل ، كان باستطاعته أن يتردد فى موقفه منها ، وان يؤجل تأييده الكامل لها الى حين تنجلى المواقف ، لا سيما وأن البلد نفسه واستقلاله الوليد يسران من عنق الزجاجة ، أو نقطة الخطر ، وان مداد وثيقة الاستقلال بل ووثيقة تعيينه ملكا ، لم يجف بعد .. وكانت اجراءات تأجيل مواقفه الشجاعة من الصحافة وكذا اجراءات تاجيل اعطائه الضوء الأخضر للصحفيين والكتاب وأرباب القلم ، لن تجد سوى كل مؤيد لها ومقدر لموقف الرجل ، ولطبيعة المرحلة الحرجة التى تجتازها البلاد ..

رفض الرجل موقف المتردد ، أو الخائف ، ورفض أن يصيب الصحفيين فى مشاعرهم ، أو أن يقوم بحركة « فرملة » لأحاسيسهم القومية التى طال عليها الرقاد ، والكبت ، وطال عليهم اجترارها .. بل انه رفض أن يستمع الى نصح عدد من أعوانه بتجميد أوضاع الصحافة السورية ، ريثما يتبين هو وتتبين البلاد طريقها .. وسط العواصف التى كانت تتجمع فى الأفق القريب ، لتهب عليها مرة واحدة ..

ولن يقدر موقف الرجل تماما ، الا من يعرف ماذا يعنى المزيد من اجترار الأفكار والآراء .. والا من يدرك أن الصحفى قد يقتل وهو حى يرزق ، ويسير ، وتمضى به الحياة فى دروبها الفسيحة .. ولكنه يكون ممنوعا من الكتابة ، محكوما عليه بدفن أفكاره ، ووأدها ، أو أن تظل حبيسة صدره ، لا تخرج منه الى النور ، والى حيث تؤثر ، وتغير وتصول وتتدفق .. تلك هى حياته الحقيقية .. وما عداها فهو والعدم سواء .

.. ومن هنا ، واستمرارا لهذا الموقف الوطنى ، الحكيم ، والشجاع أيضا فقد تعددت صور عناية الرجل بصحافة بلاده ، ومساعدتها فى النهوض من عثارها ، وفتح الباب أمامها على مصراعيه ، وكان من بينها هذه الصور كلها :

* أن الرجل قد قام بدعوة رؤساء تحرير الصحف أكثر من مرة ، حيث بالغ فى اكرامهم ، وشرح لهم خطته فى النهوض بالبلاد ، واستمع اليهم طويلا بشأن المشكلات التى يواجهونها ، أو تواجهها صحفهم ، وكان دائما يبذل جهده لكى تستمر مسيرة هذه الصحف ، ويحاول أن يذلل جميع العقبات التى تعترض هذه المسيرة ..

* أن الرجل قام بالغاء الرقابة التى كانت موجودة فى البلاد منذ القوانين العثمانية الأولى ، كما قام كذلك بوقف العمل ببعض اجراءات الرقابة الأخرى ، من تلك التى فرضت الحرب وجودها ، فعادت الصحف الى ممارسة حياتها الطبيعية ، فى مناخ صحى ، أحست به البلاد كلها ..

* ويقال أنه من بين القرارات الأولى التى اتخذها الرجل - فيصل الأول - فور عقد الهدنة ودخوله الى دمشق مع الجيش العربى ، ذلك القرار الذى يقضى بعودة الصحفيين المنفيين الى خارج البلاد ، أو هؤلاء الذين هاجروا الى البلاد الأخرى ، وخاصة مصر طلبا للحرية ، كما وجه دعوة خاصة الى الصحفى الكبير محمد كرد على للعودة من الآستانة واعادة اصدار « المقتبس » التى كانت قد توقفت عن الصدور قبل جلاء القوات العثمانية عن القطر السورى .

* ويقال كذلك - وقد ذكره أكثر من مرجع تاريخى وصحفى - أن الرجل كان يقدم اعانات حكومية كثيرة وأحيانا من جيبه الخاص ، لمساعدة بعض الصحف على الصدور ، كما كان يقدم هذه الاعانات أيضا فى شكل كميات اضافية من الورق ، وتسهيل شراء آلات الطباعة .. وغير ذلك كله .

* وأكثر من ذلك ، فان رعاية الرجل لهذه الصحف امتدت أيضاً الى الوزراء والمديرين ، فبالاضافة الى أن هؤلاء قد فتحوا أبواب أعمالهم لمندوبى الصحف ومحرريها ، عندما وجدوا أن الملك نفسه يفعل ذلك ، وعن طيب خاطر ، فان تعليمات الملك الى هؤلاء كانت تؤكد هذا الاتجاه ، اتجاه التعاون التام مع الصحافة ، بل انه كان يطلب من كبار الموظفين والقادة أن يجتمعوا وبصفة دورية بالمندوبين ورؤساء التحرير ، لاطلاعهم على أعمالهم ، والرد على جميع استفساراتهم ، أو تلك الخطابات التى كان يبعث بها القراء ..

كان هذا هو موقف الرجل من الصحافة ، والذى جعل الصحف كلها ، والصحفيين جميعهم يعترفون له بذلك ، ويؤيدونه تمام التأييد ، ويمضون معه على درب الكفاح حتى نهاية الشوط القصير الحافل بل جعل مؤرخ الصحافة السورية يقول عن هذا العهد الفيصلى نفسه : « ربما كان هذ العهد من أجل العهود وأخصبها للصحافة وللحركة الأدبية والعلمية فى دمشق لم تر مثله منذ مئات السنين » (١) .

مهما يكن من الأمر .. فقد مضت الأقلام تكتب ، والأخبار تحرر ، والمقالات تتوالى ، والصور تنشر وكلها تدعو الى دعم الاستقلال والبناء ، على صفحات عدد كبير من الصحف والمجلات الجديدة ، أو تلك التى عاد أصحابها الى اصدارها بعد سنوات المحنة ، والتى كانت ــ هذه وتلك ــ جديدة أو قديمة ــ تنحى منحى وطنيا تاما ..

ومن أجل ذلك كله ، وبالاضافة الى تلك الصور السابقة ، فقد جدت صور مشرقة على صحافة هذا العصر ، فارتفع شأن الصحفى السورى عن ذى قبل ، وأصبح الناس ينظرون اليه بمزيد من الاحترام والتقدير ، كأحد المساهمين فى ايجابية وفعالية فى مرحلة البناء ، وقد زاد من هذه النظرة وشجع عليها أن عددا كبيرا من زعماء هذه الفترة انضموا الى صفوف الصحافة ، كما أن عددا من الصحفيين أنفسهم

كانوا من بين هؤلاء .. حتى أنه يقال أن من الصعب أن تعثر على إسم واحد لامع أو نجم من نجوم الوطنية ، لم يعمل بالصحافة خلال هذه الفترة نفسها .. بل ان هذا الاحساس قد امتد أيضا الى الصحافة الاقليمية ، والصحفيين الاقليميين ، وليس الى صحافة العاصمة دمشق وحدها .. فنال هذه الصحافة ورجالها ، ما نال صحافة العاصمة من تأييد وتعضيد رسمي ..

وقد تأكدت هذه المعالم المشرقة والبارزة كلها بموجب القرار الملكي الفيصلي الذي وقعه الملك في ٧ مايو ١٩٢٠ ، والذي أعاد تنظيم الصحافة السورية ، وأعطى لها مزيدا من الحرية حتى تتمكن من دعم اتجاهاتها الوطنية .. ومواصلة المسيرة . وقيادة الجماهير في مواجهة خطة الانتداب الفرنسي ، ومحاولات دخول سوريا من الشباك ، بعد أن خرج العثمانيون من الباب ..

.. ذلك لأن الاستعمار الغربي كان يواصل التهام دول الامبراطورية العثمانية ، في خطة موضوعة بحذق ومهارة ، دون أن تعوزه الأسباب لذلك ، وهو يمتلك العشرات منها .. وهكذا ، استيقظ الناس ذات يوم ليجدوا « غورو » المندوب السامي في دمشق — القائد الفرنسي سابقا — وهو يوجه انذاره الكريه ، الاستعماري ، المفضوح الى الملك ، ويطلب منه التوقف عن الهجوم على الانتداب وعدم تنفيذ أوامره .. الى جانب مطالب عديدة أخرى تبين سوء القصد ، والنية والطوية ..

وهنا ، كان لابد للصحافة السورية ، وقد تذوقت طعم الحرية ، وعاشت في كنفها شهورا وأحست — ولو لفترة غير طويلة — بالمسافة البعيدة بين عهد وعهد ، ودولة ودولة ، ورجل ورجل .. كان لابد لها من أن تتصدى لهذا الانذار ، وان اختلفت في درجة تصديها له ، من حيث القوة والحرارة ، واختيار بعضها طريق الدفاع والمقاومة .. وحتى

آخر رجـل سورى ، واختيـار بعضها الآخـر طريق الحل السلمى ، وتأرجح البعض الثالث بين الاتجاهين .. ولكنها ــ جميعا ــ اتفقت على المقاومة وان اختلفت فى وسائلها ..

ولكن ، على الجانب المقـابل كان هنـاك من لم ينتظر ، ولا ينتظر أيضا ، فلتكتب الصحف مقالاتها الضافية ، متفقة على الهدف ، مختلفة على وسائل تحقيقه ، ولتمض الجيوش زاحفة على دمشق .. حيث نشبت معركة ميسلون فى ٢٤ يوليو ١٩٢٠ ، تلك التى سقط فيها من سقط ، واستشهد من استشهد من قادة الكفاح العربى السورى العظيم .. وعلى أجسادهم عبرت جنـود فرنسا ، لتـدخل البلد الذى لم يحظ بمذاق الحرية ، لا هو ، ولا أبناؤه ولا صحافته ، غير أشهر قليلة ..

لقد احتل الفرنسيون دمشـق فى ٢٥ يوليو ١٩٢٠ ، وباحتلالهم لها سقطت البلاد السورية ، وانتهى عهـد الحكومة العـربية الاستقلالية ، عهد فيصل ، صـديق الصحافة الآخر ، وبدأ عهـد الاحتلال .. لتعود « ريمة » الى عادتها القديمة .. بعد أن قضى على عهد الصحافة الذهبى القصير جداً .

أقصد ، لتنطفىء جميع المصـابيح .. ومن بينها ، والى أجـل غير معلوم .. مصباح الصحافة ويالها من قصة .

---

(١) شمس الدين الرفاعى : « تاريخ الصحافة السورية » جـ ٢ ، ص : ١٢ .

ادولف هتلر :

العصابة التى تفبرك
الرأى العام .. !

أدولف هتلر :

العصابة التى تفبرك الرأى العـــام

جانب كبير ، وكبير جـداً من نشـاط هذا الرجل ، وأفكاره راح يوجهه من أجل الدعاية .

ويقولون أن دعايته لنظامه كانت تقـوم على معـرفة واسعة بتلك الأسس والقـواعد التى تستند اليها الدعاية العلمية ذاتها .. وأن وزير دعايته القـدير ــ جوبلز ــ قد ساهم الى حـد كبير فى وضع أسسها وقواعدها الحديثة .. ولابد أن نعترف له بذلك ، رغم الاحبـاط الذى منيت به دعايته .. ورغم الفشل والهزيمة أيضا ..

ولكن .. على الرغم من أن الصورة الشهيرة لهذه الدعاية نفسها ، والمنتشرة فى أذهان الجماهير .. والتى ما يزال البعض يذكرها ، ويذكر قوتهـا وعنفوانها وأساليب جذبهـا وجاذبيتها .. هى صـورة الدعاية بالراديو .. أو الدعاية الاذاعية ، تلك التى تقفز فوق الحدود والمسافات ، وتقتحم الأبواب المغلقـة ، والشبابيك أيضـا ، مغلفة بأوراق السلوفان المتمثلة فى الموسيقى الحربية ، والمارشات العسكرية .. والأصوات القوية لعدد كبير من أفضل المذيعين ، وبأكثر اللغات الحية ..

على الرغـم من ذلك كله ، فان « الفوهرر » كان يعـرف للدعاية باستخدام الكلمة المطبـوعة ، قدرها الكامل ، ويحرص على أن تقـوم صحافته بالدور الدعائي السياسي حرصا كاملا ..

ذلك هو المصـور النمسوى « أدولف هتلر » الذى تجسدت فى شخصه النهاية التعسة لألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى ، ومحاولات تمزيق الجسد الألمانى الجريح ومشاعر الاحتلال التأديبى لأرضها ، وصرخات السلخ والاقتطاع والكبح ومرابطة جنود السنغال السود بوادى الروهر .. وغيرها من الاهانات التى لم يغتفرها الألمان بسهولة وحتى النداءات العديدة التى ترددت فى المحافل والبرلمانات الأوربية مكررة قول بوانكاريه : لابد لألمانيا من أن تداس بالأرجل .

وسط هذا المناخ كله ، وبينما مشاعر الغضب والكراهية فى عنفوانها يرتفع هذا الصوت الجديد لينادى : « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها .. ان ألمانيا لم تهزم قط لأن ذلك يعد ضربا من المحال .. لقد غدر بها أيضا من الداخل اذ خانها بوجه خاص رعاياها من اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية .. فلابد لها من العودة الى نقائها العنصرى .. الى حياة المحارب العنيفة » (١) ..

وبسرعة .. انتشر هذا النداء كما النار فى الهشيم .. ترددت أصداؤه فى أكثر من مدينة ألمانية تنام على الجراح وتجتر آلامها .. حيث التفتت اليه مجموعات كبيرة من الشباب الألمانى اليائس تماما فاجتمع هؤلاء على هذا النداء ، وأخذت أعدادهم فى التزايد .. حتى قام عليها فى النهاية حزب سياسى عسكرى كبير هو « الحزب القومى الاشتراكى الألمانى » المعروف بالحزب النازى الألمانى .. ذلك الذى جاء بصاحب النداء نفسه ودفع به الى مقدمة الصفوف حتى عين مستشارا لألمانيا عام ١٩٣٢ .. وحيث بدأ فى اتخاذ قراراته وتدابيره النازية الصارمة ..

فى هذا النظام تكون الدولة ليست أكثر من مظهر قانونى ، بينما النظام نفسه يرتكز الى مجموعة من الفروع أو « الشعب » ــ بتشديد الشين وضمها ــ تلك التى تتبع أعمالها وتراعى هى فيما تصدر من أعمال ، وفى مختلف وجوه أنشطتها أن تكون معبرة عن الاتجاهات

الرئيسية لسياسة الحزب ولأفكار وآراء الرئيس ــ الفوهرر ــ بمعاونة عــدد من الأشخاص الذين يثق فيهم هذا الأخير كل الثقــة .. فيوليهم جميع السلطات الحــزبية .. ومن هنا وكما يقول فرنان ترو « فلا محل فى هذا المفهوم لحقوق أساسية للفــرد الذى أصبح عنصرا من عناصر المجموعة الخاضعة بهذه الصفــة الى النظام الذى أقامه الرئيس حسب مفهوم للخير المشترك يحــدده على هواه .. فالصحافة وبوجه عام كل تقنيــات الاعــلام ، ما هى الا مجرد أداة فى خــدمة الخــير المشترك ، وبالتالى الرئيس الذى يجسده » (٢) .. وحيث تتداخل هذه الفكرة مع ما ذكره تشاخونين فى كتابه الشهير : اغتصــاب الجمــاهير بالدعــاية السياسية .. حيث يقول : « هتلر هو القوة .. القوة الوحيدة الحقيقية .. وما دام جميع الناس معه ، فينبغى أن أكون أنا أيضا .. آنا رجل الشارع معه ان كنت أرغب فى الحيــاة » (٣) .. رغم ما فى ذلك من مضمــون تهديدى حقيقى ينبع من « الرعب الهتلرى » .

ومن أجــل ذلك كله ، وحتى يمكن أن تســود الأفــكار الهتلرية أو النــازية ، وكما يقــول د . محمــد عبد القادر حاتم : « استخدمت الدعاية الهتلرية النبأ بطريقة منهجية كوسيلة لتوجيه الأفكار ، فالأخبار الهامة لا تنشر قط على حالها وانما كانت لا تظهر الا وهى محملة بدلالة معينــة ومعبأة بشحنة دعائيــة .. كان التغليظ هو الشــغل الشــاغل للداعية الهتلرى » (٤) ..

ولم يكن هذا المفهوم وليد أحداث الحرب العالمية نفسها ، أو قبلها بعدة شهور أو بسنوات قليلة .. فالواقع أن التفاتة الرجل الى الصحافة ، وتنبهه لأهميتها ومن ثم أهميــة العمــل على أن تكون سلاحا فى ترسانة أسلحته الدعائية .. بل وسلاح هــام مثل الاذاعة والخطابة هى فكرة قديمة تعــود الى أوائل الثلاثينات ، وحيث بدأت وزاراته المختلفة فى اخضاعها منــذ عامى ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ ، بل انها عمــدت عام ١٩٣٣ الى

الغـــاء الصحافتين الشيوعية والاشتراكية الغاءا تاما ، ضمن ما ألغته من أجهـــزة المعارضة ، كما عادت الى تقييد وسائل الاعـــلام عامة ، فى شبه نظـــام متتابع وصـــارم دعمته باصدارها ــ وبموافقة هتلر شخصيا ــ لقـــانون ٤ أكتوبر ــ تشرين الأول ١٩٣٣ .. ذلك الذى أكـــد طاعـــة الصحـــافة التامة للسلطة .. أو بما أطلق عليه بعـــد ذلك « الاسترقاق الشامل للصحافة » .. حتى أننا خـــلال هذا النظام نفســـه نرى ونقـــرأ ونسمع العجب العجاب عن صحافة الرجـــل الذى بدأ نشاطه وهو على حـــد تعبير رســـالة دكتوراة عن الصحـــافة الألمـــانية ــ عبد الرحمن المشهدانى ــ يرتعد خوفا من ذكر اسم صحيفة واحـــدة ، أو من مقالة لصحفى .. ومن هنا فقد شهدنا جميع هذه الصور والتصرفات الهتلرية الحديدية فى مواجهة الصحافة :

* فصحافة هتلر تريد التعبـــير بجميع الوسائل الممكنة عن عظمـــة الرايخ ، وتربط بين تطـــور الشعب الألمـــانى وســـعادته ، وبين الأفكار والآراء الخاصـــة بالحزب القـــومى الاشتراكى ، وتلجأ فى سبيل تأكيد هذه الأفكار والمبـــادىء وتأييـــدها الى مختلف الحجج والتفســـيرات والتأويلات والتحليلات التى تخـــدم مصالحهـــا .. ومن هنا فقـــد كثر ارتباطها بالرموز والشعارات والأقـــوال الهتلرية والنـــازية مثل السيادة الألمانية ، والسوبرمان ، والصليب المعقوف ، والمجال الحيوى وغيرها .

* ويقول ب . دينواييه فى كتابه عن الصحـــافة فى العـــالم ، وهو يرسم احدى صور هذه الوسائل الهتلرية : « ادعى النظام الهتلرى أن الصحيفة يجب ألا تكون سلعة ، بل عنصرا من عناصر الثقافة الشعبية ، وألغى بوسائله الملتوية الصحافة المعارضة كلها .. ولم يكن فى الاستطاعة ادارة صحيفة الا بواسطة مديرين وصحفيين معتمدين ومطهرين يمتثلون لتعليمات حزب النازى ، فاختفت جميع الصحف الصغيرة فى العاصـــمة

والأقاليم ، وكانت تنبض بالحياة ، وتميزت جميع الصحف التى عاشت بعد ذلك برضى وزارة الدعاية ، بلهجة ووجهات نظر موحدة » (٥) .

* كذلك فان هذه الصحـافة نفسها وعلى طريق تحقيقها للأهداف المرسومة لها بدقة .. نجدها بعد لجوئها الى مختلف الحجج والتفسيرات والتأويلات والتحليلات .. تعود فتلجأ الى أساليب أخرى من تلك التى تعتبر ممعنة فى بعـدها عن الحقيقة ، فهتلر بعد أن توصل الى السيطرة عليها يبـدأ عن طريق المديرين المعتمدين فى تلوين الأخبـار ، وتحريفها وتشويهها أيضا ، بل ان هـؤلاء أقدموا فى مرات تجل عن الحصر على اختلاق بعض الأخبـار اختلاقا تاما و « فبركة » العـديد منها .. بل استند هتلر فى دعايته عامة ، ودعايته الاذاعية والصحفيـة خاصـة على الكثير من الأخبار الكاذبة كوسيلة من وسائل الاقناع حينا ، والتهديد فى حين آخر .. والاثارة فى أحيـان كثيرة .. وما تزال روايات صحافته عن مخازن الأسلحة الكبرى والأسـلحة الوهمية والمجهـولة ، ماثلة فى أذهان الكثيرين .. كل ذلك رغـم أن الرجـل نفســه يعتبر عالمـا فى سيكلوجية الأكاذيب ، واعيا بكل أبعاد نتائجها بدليل قوله : « ان أكثر الأكاذيب افتراء تترك دائمـا أثرها حتى حينما يظهـر أنهـا ليست من الواقع فى شيء » ..

* وقد كتب هتلر يقـول مبررا فرض الرقابة « الحديدية » على الصحف .. « أليس من واجب الدولة أن تراقب الصحـافة نظرا لتأثيرها القوى على الجمهور ؟ ان حرية الصحافة شيء جميل ، ولكن هذه الحرية تصبح عاملا من عوامل الفساد اذا لم تمارس فى الحـدود التى ترسمها مصلحة الدولة والأمة .. ان الموقف المخـزى الذى وقفته الصحافة قبل الحرب لا يمكننا نسيانه ، وقد شددت الصحـافة اليسارية على وجوب انقاذ السلام بأى ثمن بينما كانت الدول المعـادية جادة فى اعـداد عدة الحـرب .. ألم تبشر صحافتنا بالديمقراطية الغـربية وتمجدها وتطالب

بتقوية شخصية الفـرد وتبشر باضعاف الدولة ؟ ألم تسـهم فى محاربة تقاليد شعبنا العـريق مزينة له الانغماس فى الملذات التى أتلفت مناعته الخلقية ؟ ألم تحارب مشروع التجنيد الاجبارى ، وتحرض النواب على عـدم منح الاعتمـادات للجيش ، بينما كانت رائحـة الحـرب تنتشر فى الأجواء ؟ » (٦) .

* واذا كان ذلك مما يبرر — من وجهـة نظـره — فـرض مثل هذه الرقابة ، كما يفسر أيضا الاجـراء الذى لجأ اليه فى سنوات حكمه الاولى من ايقاف اصدار الصحف الشيوعية والاشتراكية تمهيدا لاصدار الصحف التى تعبر عن أفكاره وآرائه .. فانه ذلك مما يضـاف الى تلك الاراء السـابقة له ، والتى ترى أن الدعاية الألمـانية ومنها الصحفية ، كانت سببا من أسباب هزيمة ألمانيا فى الحرب العالميـة الأولى . وحيث بدا ذلك فى قوله على سبيل المثال لا الحصر :

« لقد ركزت الصحافة الألمانية والنمسوية على السخرية من العدو واظهاره بمظهر الجبان ولكن هذه الدعاية كانت تعطى نتائج معكوسة .. لأن قراء هذه الصحف كانوا يجدون فى ساحات القتال جنودا شجعانا وأقوياء ينتشرون فى صفوف الأعـداء ، لذلك فبدلا من تقـوية روح المقاومة فى الجنـود ، أضعفت من روحهم المعنوية ، ورفعت من حـدة سخطهم ، بعكس دعاية الانجليز ، تلك التى كانت تبدو وكأنها معقولة ، وغير متطرفة ، بل وبارعة أيضا ، فقد كانت تصور الألمان كالمتوحشين ، وقبائل الهون البرابرة .. ومن هنا فقد كانت تدعو الجنـدى الانجليزى الى اليقظة والثبات ، وعندما كان يلاحظ شدة قتال الجنود الألمـان ، كان يتأكد من أن الدعـاية التى زودته بها حكومته لم تكن مضللة ، فيقتنع بأن الألمان من المتوحشين قولا وفعلا » (٧) .

* كذلك فقد حفلت كتاباته العـديدة الأخـرى ، بما يفسر كل اجراء نادى به الرجل ، أو اتجه الى تنفيذه على المجال الصحفى .. ولعل

أشهر هذه الكتابات ما جاء منها فى كتابه « كفاحى » .. وحيث نقرأ له على سبيل المثال لا الحصر : (٨)

ـ « ان الصحافة هى التى تتولى تنشئة الجمهور سياسيا ، بما تنشره من أخبار وتبث من آراء وليس للدولة يد فى توجيه الدعاوة الصحفية ، هذه المدرسة يتلقى فيها الجمهور دروسه اليومية ، فالصحافة هى فى قبضة قوى يواجهها الشؤم » .

ـ « لقد أتيح لى وأنا فى فيينا أن أخالط صانعى الآراء وناشريها ، فأدهشتنى السهولة التى يستطيع بها هؤلاء أن يخلقوا تيارا معينا وأن يوجهوا الجمهور وجهة تتعارض فى بعض الأحيان مع مصلحة الجماعة » .

ـ « فى بضعة أيام يمكن للصحف أن تجعل من حادث تافه بحد ذاته قضية خطيرة تهز الدولة ويمكنها كذلك أن تسدل ستار النسيان على القضايا الحيوية فلا يلبث الجمهور أن ينساها » .

ـ « اذا كانت سمعة أحدهم قد لوثت فى الماضى فالدعاوة الصحفية لا تلقى صعوبة فى دفن الماضى .. أما اذا كان المقصود محاربة رجل شريف ، فان اليهود بسفالتهم المعهودة لا يتورعون عن رميه بكل نقيصة ، جاعلين من الصحافة التى يوجهون منبرا للتحامل على الرجل .. حتى أنهم يذهبون الى حد انتقاد حياته الخاصة ونشر فضائح أفراد عائلته اذا كان ثمة فضائح .. اما اذا لم يوفقوا الى شىء يخدم أغراضهم سواء فى حياته العامة وحياته الخاصة ، فانهم يلجأون الى الافتراء ويواصلون الحملة مسخرين فى ذلك عشرات الصحف ، على أمل أن يعلق شىء فى أذهان الناس مما يفترون به على الضحية » .

ـ « تلك هى العصابة التى تفبرك الرأى العام وتوجهه .. ومن هذا الرأى ينبثق البرلمانيون كما انبثقت فينوس من زبد الأمواج » .

.. ألا تجعل هذه الأقوال وغيرها ، الباحث فى مجال الصحافة والدعاية أيضا ، يقع فى حيرة كبيرة ؟ فهو يحمل على الصحافة الشيوعية ، واليهودية حملته الشعواء ، ولكنه فى مجال التطبيق وعلى أعمدة الصحف النازية ، يقوم باتباع نفس أساليب هذه الصحف ، من كذب وتهويل ورياء وتملق واختلاق .. وغيرها مما يشكو هو نفسه منها ..

على أن ذلك كله لم يمنع من أن يكون له مع الصحافة ، وتكون لها معه العديد من القصص الطريفة ، تستوى فى ذلك الصحافة الألمانية والعالمية .. نقدم هنا — فى النهاية — بعض صورها .. على أثر هذه الرحلة مع دعايته السياسية الصحفية الحديدية ..

— فلقد أثبتت التحقيقات التى أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية وأشرف على اجرائها الكونجرس نفسه ، أن عددا كبيرا من الصحف الأمريكية قامت بكتابة مقالاتها الافتتاحية ، قبل أن تدخل بلادها الحرب العالمية الثانية ، بوحى من هتلر نفسه ، وعن طريق مستشاريه ، وذلك مقابل مبالغ معينة من الأموال ، كان يقدمها لأصحابها ورؤساء تحريرها ، وكتاب هذه المقالات .. كما أثبتت هذه التحقيقات ايضا أن بعض الصحف الأمريكية لعبت أثناء هذه الحرب دور الجاسوس للجانب الألمانى نفسه لقاء مبالغ كبيرة من الأموال .

— ويقال ان أكثر ما كان يضايق هتلر فى هذه الصحف الأمريكية — باستثناء الجاسوسة — أنه هو شخصيا وأن أعوانه ورجال حزبه ومحلليه واخصائيى دعايته كانوا لا يعرفون كيف يحصلون على المعلومات الهامة من سطورها ، كما كانوا يريدون ذلك ، ويفعلونه مع الصحف الفرنسية مثلا .. والسبب فى ذلك أن محررى هذه الصحف قد ضربوا المثل فى اليقظة التامة وكانوا خير كاتم لأسرار جيوش بلادهم .. بل ان الدعاية الأمريكية فى بعض الأحيان عمدت الى نشر بعض الأخبار

الكاذبة ، وكان هتلر وأعوانه يقبلون الطعم الصحفى الأمريكى ، بل وتنطلى عليهم الحيلة ، ويتصرفون بما يؤكد ذلك .

ــ وفى احصاء طريف لصحيفة انجليزية وردت هذه الأرقام كلها : خطب هتلر منذ عام ١٩٣٠ حتى قيام الحــرب العالمية الثانية عدد ٦١٦ خطبة ، وخطب أثناء الحــرب ١٢٧ خطبة وتحدث فى برامج الاذاعة قبل الحــرب ٢٣٦ مرة وأثنـــاءها ١٣٩ مرة وكتبت الصحف الانجليزية عن قصة غرامه الشهيرة ١٠٥٧ مادة صحفية من بينها ٧٢٠ خبرا و ١٣٠ مقالة والبـــاقى تحقيقات صحفية ، كما نشرت له الصحافة الانجليزية خـــلال فترة الحرب عـــدد ٢١١٤٩ صـــورة مختلفة ، وبعد الحرب تحدثت هذه الصحافة عن مصير هتلر وقصة اختفائه أو انتحاره بنشرها ٣٤٠١ مادة صحفية أغلبهـــا من نوع الأخبـــار الصغيرة ، والتحقيقـــات الصحفية ، كمـــا حرصت ١٢٢ صحيفة ومجـــلة انجليزية على نشر كتـــابه الأشهر « كفاحى » على حلقات يومية أو أسبوعية .

ــ ويذكر محسن محمـــد فى كتـــابه ــ حكايات صحفيـــة ــ أن الصحفى الانجليزى الكبير « لورد ويذر مير » كتب مقـــــالا فى أوائل عام ١٩٣٩ قال فيه « ان هتلر جنتلمان عظيم ، وحرصت معظم الصحف الانجليزية فى ذلك الوقت على أن تكرر هذا اللقب ، وتصف هتلر بأنه رجل وديع ومسالم ، وذلك لأن الشركات هددت الصحف بمنع الاعلانات عنها اذا ذكرت أن الحرب قريبة الوقوع !!

---

(١) هـ.ج. ويلز . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد « موجز تاريخ العالم » .
(٢) فرنان ترور ترجمة محمود الغندور : « الاعــلام » ص : ٥٧ .
(٣) محمد عبد القادر حاتم : « الرأى العام » ص : ٢١٥ .
(٤) المصـــدر الســـابق ص : ٢١٦ .
(٥) ب . دينوايبه ، ترجمة عبد العاطى جلال : « الصحافة فى العالم » ص : ١٧٢ .
(٦) محمد عبد القادر حاتم :: « الرأى العام » ص : ٢٣٠ .
(٧) المصـــدر الســـابق ، ص : ٢٢٧ .
(٨) ادولف هتلر « كفاحى » ص : ٣٧ ــ ٣٨ .

موسوليني :

الدوتشي صحفيا .. !

موســـولينى :

الدوتشى صحفيا

لا يذكر « الفوهرر » فى الأذهان الا ويذكر « الدوتشى » أيضا ..

ذلك لأنهما ــ هتلر وموسولينى ــ قد تماثلا فى أشياء كثيرة جدا .. كان من بينها الظهــور وسط ركام الحــرب ، وعلى أثر الآلام العديدة التى خلفتها لوطنيهما ، والوطن نفسه يجتر هذه الآلام ، وكذا وسط مشاعر الضياع والقلق والآثار المدمرة الأخرى .. بالاضافة الى نظرات التشفى ، وصرخات اليتامى ، وأنين الثكلى ،، وصور الدمار ، والتحطيم الاقتصادى ، وتغيير الخرائط .. وما الى ذلك كله ..

فى هذه الأوقات يثور الشعور الوطنى ، على الرغــم من تمزقه ، ويصبح مستعدا لأن يستمع الى أية كلمة تقال ، لا سيما عندما تداعب آمال الشباب وأحلامهم ، فى يقظة قــوية ، تنهض بالوطن من عثاره ، وتعود به ــ مرة أخــرى ــ الى الحلبة وتبحث له من جديد عن مكان تحت الشمس ..

ومن هنــا ، فقـــد راحا يتماثلان كذلك ، فى الضرب على الوتر الحساس ، وتر العزة القومية وفى استغلال طبقة الشباب المتمرد ، ودمه الحار المتدفق ، والمستعد تماما لأن ينتقــل هذه الحــرارة ، الى شرايين الآخرين ، والوطن كله ، فراحا يتحدثان اليه بالخطب النارية والشعارات

الطنـــانة ، وباستخدام لأقصى ما يمكن استخدامه من طاقات وجهـــود وسائل الاعلام ..

وتقول التعليقـات الصحفية العـديدة التى تناولتهما معا ــ هتلر وموسولينى ــ أنهما اكتشفا ذلك التماثل بين أفكارهمـــا ، والى حـــد الاتفاق الكامل أحيـــانا ، دون أن يكون أحدهما قد عرف الآخـــر أو التقى به مرة واحـــدة ، وقبل أن تتم هذه المعـــرفة بسنوات عـــديدة ، أو يتم اللقاء بينهما .

انهما من نتاج الأحداث المريرة ، وصنـــاعة ركام الحرب ، وميراثها البغيض .. رغم كل ما راحا يقدمانه من أحـــلام الوطنيـــة المتعصبة ، وصرعات الديكتاتورية العسكرية ..

ومن الغريب أن يكون « موسولينى » .. القائد الايطالى الشهير ، وزعيم الحـــزب الفاشستى والرجل الذى لوى بشدة عنق العـــالم كله أكثر من مرة ، وأجبر الصحفيين والاذاعيين والأضواء كلها على أن تتجه اليه ، تتابعه فى حماسه ، وهو يخطب ، وهو يردد الأناشيد الحماسية وخلفه مئات الألوف ، وهو يوزع شارات الحـــزب على هؤلاء ، وهو يقود دراجته البخارية وسط شوارع روما ويذهب بها الى مقر قيادته ، وهو يكاد يسرق الأضواء حتى من هتلر نفسه .. من الغريب أن يكون هذا الرجل هو نفســـه ذلك الصحفى الشاب الخجول ، الذى لا يكاد يحس بمجيئه أحـــد ، أو بذهابه أحـــد ، ولا كم قضى من الوقت داخل حجرة مكتبه ، أو عند رئيس التحرير .. كل ذلك ، بينما كانت مقالاته النارية تتحدث بغير طبيعته تماما ، لا سيما عندما يقوم بحملاته المقالية على الرأسماليين الايطاليين الكبار ، وعلى أصحاب المصـــانع العـــديدة ، ويلقى على رؤوسهم بالعـــديد من التهم ، ويفنـــد مزاعمهم ، ويرد على رسائلهم بالحماس نفســـه .. حتى أن رئيس تحـــريره طلب منه التريث والهدوء أكثر من مرة ، وقال له متسائلا : لمـــاذا يبدو للقـــراء دائما ،

أنك تخطب فيهم وأنت تكتب ؟ وقال له مرة أخـرى .. لا تنس أنـك صحفى .. ولست أحد القساوسة ..

ومن أجل هذه المقالات الخطابية أو الخطب المقالية والتى كان يبدو أنها طابع صحافة الزعماء فى هذا الوقت .. أخـذ الرجل المحرر الهادىء الطبع الثائر الكلمات ينتقل من صحيفة صغيرة الى صحيفة أخـرى .. ولكنه عندما انتقـل الى تحـرير الصحيفة الاشتراكية « الأفانتى »(١) تبدل حاله كثيرا .. أو بتعبير أكثر دقة ، استطاع جانب الثورة العلنية فيه أن يتغلب على جانب الهدوء أو الثورة المكبوتة .. فأصبح ظاهره مثل باطنه .. فهو ثائر فى دهاليز الصحيفة وأروقتها ، ثائر على زملائه من المحررين ، بل وعلى رئيس التحرير نفسه ، ثائر على القراء أيضا .. حتى أصبحت ثورته وجـرأته وحماسه .. حديث المجتمـع الايطالى .. بل والمجتمعات العادية والأندية والصالونات

ولكن ، وكما توقعت بعض الزعامات الايطالية الأخرى .. فقد انتقل الرجل ـ الصحفى ـ من الكتابة فى مجـالات السـياسة الداخليـة ، والهجـوم على الرأسمالية الايطالية ، الى مجالات السياسة الخارجيـة مهاجما الدول الرأسمالية نفسـها ، ولكنه اختلف مع معظم زملائه من المحـررين اليساريين وكان الاختلاف حول مسائل عـديدة فى مقدمتها الوسائل المتبعة نفسـها فى التعامل مع أعـداء البـلاد .. ثم امتد هذا الخـلاف لينتقل الى مسألة انضمـام ايطاليـا فى الحـرب الى صف الحلفاء ..

ولأنه كان فى ذلك الوقت قـد وصـل الى منصب رئيس تحـرير الصحيفة الايطالية الاشتراكية « الأفانتى » فقد رأى أن من الأكرم له ، والتعارض يزداد بينه وبين زملائه والعـاملين معه ، أن يستقيل من هذا المنصب ويحاول بنفسه أن يصدر صحيفة خاصـة به يمكن عن طريقها

أن ينقـل آراءه الى الايطاليين فى كل مكان .. وأن تصـل اليهم هذه الآراء دون معارضة من أصحاب الصحيفة ، أو الزملاء .

.. وفعلا تمكن الرجل من اصـدار هذه الصحيفة التى أطلق عليها اسـم « الشعب » (٢) .. بعد شهور قليلة من تركه العمـل فى الصحيفة الأولى ..

على أن التحول الأكبر ، والأكثر خطورة فى حيـاة الرجل ، والذى انتقل به من مجال الكتابة الصحفية الثائرة .. الى مجال الثورة نفسها ، فى المصـانع والحقـول والشوارع والأندية هو ما حـدث فى أوائل العشرينات .. وحيث بدأ الرجل يحس بنفس مشاعر الخوف والقلق على البلاد ، والتى أحس بها هتلر بعد ذلك بقليل ، خاصة فى ظل اضطراب داخلى كبير ، ودمار حضارى ومعنوى أكبر ، وحكومة ضعيفة مترددة .. ومواطن محروم ، يعانى ضائقة اقتصـادية كبرى ، وخوف من انقلاب شيوعى يجتاح البـلاد .. خلال ذلك كله .. بدا للرجل أن يستثمر عددا من العناصر الشابة المتمردة على الأوضـاع ، والمحـرومة أيضا والتى يعانى أهلها من البؤس والاقلال ، وتعانى هى من الاحباط النفسى الكبير الذى خلفته الحـرب من ورائهـا .. ومن هنا فقـد بدأ يجتذب اليه هؤلاء ، وهو يوزع الشعارات هنا وهناك ، ولا يترك جمعا من الجموع أو فرصـة من الفرص دون استغلالها .. وقد أسفر ذلك كله عن تأليف حركة قومية يرتدى أصحابها القمصـان السود ، وينتظمون داخل اطار الحزب الفاشستى .. هؤلاء الذين راحوا يهاجمون الحكومة وضعفهـا وترددها فى غير هواده .. والذين آمنوا بزعامة الرجل مطلق الايمان .. ليزحف هو ــ الدوتشى ومعناها القـائد ــ وخلفـه الآلاف منهم الى روما ، فى أكتوبر ١٩٢٢ ، حتى أصبح قائدها الوحيد .. بدون منازع .. تماما كما فعل يوليوس قيصر قبله بحوالى العشرين قرنا وبعد أن تخلص من القادة العسـكريين المنافسين .. على النحو الذى ذكر من قبل .

وفى روما ، وكما هو شأن الداعية الماهر ، والذى يستند الى أساس غير قليل من الخبرة الصحفية ، ويوزع اهتماماته على وسائل الاعلام .. بدأ الرجل يجتذب اليه مزيدا من الشـباب ورجل الشـارع الايطالى بواسطة لفت الأنظـار اليه فى كل مكان ، والى بعض « الفـرقعات » الاعلامية والدعائية التى كانت تلهب خيال هؤلاء ، وتعـدهم باستعادة المجد والرفاهية ، فمضى يسير من نجاح الى نجاح وقامت بتأييده أكثر طبقـات وشرائح المجتمـع الايطالى ، حتى كبـار الرأسماليين ورجال الصناعة ، وذلك فى مواجهة « الثوريين الحمر » .. بينما راحت شعاراته العـديدة تغطى الآفاق وتعمل عمـل السحر فى عقـول الايطاليين عامة والشباب خاصة ، ولا سيما تلك التى تقول : « كل ايطالى فاشستى — ايطاليا للأقوياء — المجد لايطاليا — يعيش الحزب الفاشستى » .

وقبل أن نواصل الحديث عن موقف الرجل من الصحـافة ، نترك د . محمد عبد القادر حاتم يحدثنا عن بعض أساليب دعايته حيث يقول :

« كان موسولينى يعمل على تهيئة أفراد الشعب جميعه عندما يريد أن يخطب فى الجماهير ، وكانت وسيلته الى ذلك أن يحشد الاجتماعات بالشباب الحزبى الفاشستى الذى يقوم بالقاء الأناشيد المختلفة ثم يلقى الخطباء الخطب الرنانة وأخيرا يحضر موسولينى الاجتماع بعد أن يكون أفراد الشعب جميعهم قد تهيأوا للاستماع الى هذه الخطب .. كما كان موسولينى يحب دائما أن يعلن بنفسه أى خبر هام فى الحشود الجماهيرية وتنقله الاذاعة عن موسولينى رأسا ، فمثلا أعلن عن اجتماع ضخم فى روما سيحضره موسولينى وبدأ الاجتماع بالأناشيد من الشباب والخطب من الخطبـاء وكانت الموسيقى تعـزف الأناشيد الحماسية وأخـيرا جاء الدوتشى راكبـا موتوسيكلا بسرعة فائقـة ، وكان الدوتشى يقـود الموتوسيكل بنفسه رافعـا يده باشـارة الفاشستية ويده الأخرى تقود الموتوسيكل ودخل الى منصة الخطابة وقال المذيع : الدوتشى سيتكلم ،

فبدأ الدوتشى خطبته ، اليــوم تلقيت برقية من القــائد الايطالى بدخول القــوات الايطاليـــة المسلحة أديس أبابا .. وهنا مضى أكثر من نصف ساعة والشعب كله يهتف بصفة مستمرة بحيــاة الدوتشى .. ولم تشهد ايطاليا هتافا أو مظاهرة فى تاريخها مثل ما حدث فى هذا اليوم » (٣) .

لقد أحرز الرجل لايطاليا عــدة انتصارات جعلت الشعب الايطالى يتعلق به .. ويرفع من قــدره ويعتبره « الأنموذج » والقــدوة .. كما تعلقت به قلوب الشباب أكثر من غيرهم .. وكان على الصحافة أن تعبر عن هذه المشاعر كلها ، وأن تتحــدث هى الأخــرى باعجاب شديد عن الرجل الذى استولى على ألبانيــا ثم الحبشـــة ، والذى خلع من قلوب مواطنيه الخــوف والقلق ، والضعف والتردد وأحــل مكانها مشــاعر القومية ، وأحلام الانتصار .. وهكذا لم يعرف عن الرجل أن الصحف قــد هاجمته باستثناء قـــلة نادرة منها ، كانت تتخوف من اتجــاهاته العسكرية ، وتخشى أن يدفع بها مرة أخرى .. الى ميادين قتال لا تقدر عليه ، كما جاءت رياح الهجــوم أحيــانا من ناحية الصحف الشيوعية المناهضة ..

كل ذلك ، والرجل ــ موسولينى ــ يعلن أن صحــافة بلاده حــرة تماما ، وأنها تتمتع بقسط من الحــرية لا يتوافــر لصحف أخرى كثيرة فى أوربا .. فهل كان ذلك هو ما حدث فعــلا ؟.. أو هل كانت تلك هى الصورة الحقيقية .. لصحافة بلاده ..

الحق أن الرجل لم يبعد كثيرا عن الحقيقة .. فقد حاول جهــده أن يعطى لهذه الصحــافة قــدرا لا بأس به ، وعلى وجــه الخصوص ، فى أواســط وأخــريات العشرينات ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ ــ لكن ذلك لم يدم طويلا ، بل نجد أنه يعــود فيشرف بنفسه على وضع عــدد من القوانين التى تحد من هذه الحــرية .. تلك التى نجد أن مفهومها عنده ، أو من وجهة نظره الخاصـــة قد أصبح متغيرا .. فبعد أن كان يرى أنها حرية

لا تلتزم بشيء أو مطلقه .. عاد فخشى عاقبتهـا ، ومن ثم فقـد أصبح تفسيره الجـديد لها هو ذلك الذى يقـول على لسـانه هو شخصيا : « نعم ان الصحافة الايطالية حرة ، لأنها تخدم فقط قضية ونظاما » (٤) .

وياله من تفسـير لمعنى الحـرية الصحفيـة .. وتوضيح لمدلولها ، كما يفهمها الدوتشى ..

المهم أنه تطبيقا لهذا المعنى راح يشرف على وضع عـدد من القوانين التى تهدف الى أن توضع الصحافة بكامل جهازها وأنشطتها ، والعاملين بها أيضا داخل اطار قـوى ويغلب عليه الطـابع العسكرى .. ذلك هو الاطار الحكومى نفسه .

وأكثر من ذلك ، فانه ــ وعلى الرغـم من كونه من بين رجـال الصحـافة السابقين ــ الا أنه رأى أن تقـوم الشرطة بأساليبها الخاصة بتطبيق القانون الصحفى ، والاشراف على تنفيذه اشرافا حازما .. زاد من سطوته أن التعليمات كانت صريحة تمـاما ، بأن تصـادر الصحيفة التى يرى أى ضابط شرطة صغير ، أو أى ضابط يقضى نوبتجيته فى قسـم الشرطة الذى يوجـد مقر الصحيفة أو مطابعها به .. فى امكان مثل هذا الضابط الصغير ــ وليس الرقباء فقط ــ أن يأمر بمصادرة الصحيفة ، وعلى أصحابها ورئيس تحـريرها أو مديرها المسئول الانصياع فـورا لقرار هذا الضابط دون عودة منه حتى الى رؤسائه ..

كذلك فقد ألزم القانون نفسه ــ قانون ٢٦ فبراير ١٩٢٨ ــ جميع العاملين بالصحف الايطالية بالاشتراك فى مؤسسة نقـابية ، تكون تحت الاشراف المباشر للحزب الفاشستى .. بما فى ذلك هؤلاء الذين يعملون فى مجالات الصحـافة الاقليمية ، أو صحـافة الهيئات أو المؤسسات .. ولم يكن هؤلاء جميعا يستطيعون الحصـول على عضوية هذه المؤسسة النقابية ، الا اذا قام بتزكيتهم عدد من أفراد الحزب ، أو السلطة ..

حدث ذلك كله ، قبل أن يقــرر موسولينى دخول الحــرب العالمية الثانية الى جانب دول المحــور مما سبب ألوانا من الغضب الصحفى ، والذى ظهرت بعض كلماته على صفحات الجرائد ، ولكنها كانت من هذه الكلمات « المخنوقة » والتى لم تجـد استجابة كبيرة ، أو تفاعــلا بين جموع القراء ، أو الرأى العام الايطالى .. فقد كان ما ينادى به الرجل ، وما يحسه هؤلاء تجاهه ، أقوى وأهم كثيرا من هذه الأصــوات التى كانت تطلب أن يكون الرقيب من بين رجــال الصحــافة ، وأن يكون التعطيل أو تكون المصــادرة ، بعــد اجــراء قانونى ، وحكم ينطق به القاضى . بعد اعطاء الصحيفة أو من يمثلونها فرصة الدفاع عنها ..

ولكن هذا الذى لم تكن ترضاه تلك الأصــوات ، مكبوتة وغير مكبوتة ، يتضاءل تماما أمام ما كان يخبئه القدر للصــحافة الايطالية .. اذ سرعان ما اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وقررت ايطاليا الدخول فى معاركها يوم العاشر من يوليو عام ١٩٣٩ .. وحيث فرض ذلــك على هذه الصحافة صورة جديدة من صور الســيطرة استمرت حتى اجتياح الحلفاء لها فى يوليو ١٩٤٣ ..

أما هذه الصورة الجديدة ، فقد كان يبدو خلال تفصيلاتها ملامح وأبعاد التقييد الكامل وان انطلق من تلك النظرية القديمة التى تقــول : « لا يعتبر الفرد غاية المجتمع بل هو وســيلة له فقط »(٥) أى أنها تلغى وجود الحقوق الفردية تماما .. الا بمنحة من الدولة وذلك بالقدر الذى تقدم خلاله الفائدة فى انماء مؤسسات الدولة ..

وكانت العودة الى هذه النظرية ، خاصة خلال ظروف الحرب تعنى أشياء كثيرة عبرت عنها الاجــراءات الصــادرة فى تلك الأوقات والتى استمرت سائدة حتى سقوط الرجل نفسه ــ موسولينى ــ وقيام الحكومة الجديدة التى وقعت الهدنة فى ٣ سبتمبر ١٩٤٣ .. انها تقوم على هــذه « القيود » و « السدود » و « المحاذير » و « الممنوعات » كلها :

ـ تعديل أوضاع جميع المطابع الايطالية بحيث تصبح جميعها مطابع حكومية ، أو على حد تعبير صحفى ايطالى تصبح جميعها مطبعة واحدة حكومية لها عدة فروع مختلفة فى روما والأقاليم .. تخضع خضوعا تاما للقوانين العديدة التى تحدد أوضاعها ، مما خلق أزمة كبيرة فى هذه الصناعة ، وسبب هروب العمال منها ، حتى أن الصحف لم تكن تجد العمال الذين يقومون بطباعتها .. وقد استمرت هذه الأزمة ، بل واشتدت حدتها عن ذى قبل حتى بعد انتهاء الحرب العالمية بسبب عدم وجود « المطبعجى » نفسه ..

ـ وقد كانت هناك ثلاثة أشكال من الرقابة الموسولينية ، أو « الرقباء » أنفسهم .. بدأت فى صورة مكتب خاص يوجد بوزارة الداخلية ، ثم تطور هذا المكتب الى « أمانة دولة » لشئون الصحافة والاذاعة .. وأخيرا وزارة صحافة ودعاية .. وسيان كان المشرف هو مدير المكتب الخاص أو الأمين ، أو الوزير نفسه ، فقد كانوا جميعا من العسكريين ، وتساعدهم مجموعة أخرى من الرتب العسكرية الأقل ، وهؤلاء لم يقتصر دورهم عند حدود الرقابة من حذف وتعطيل ومصادرة ، فقط .. وانما امتد ذلك الى منح تراخيص الصدور ، أو منعها كما كانت تتدخل تدخلا ايجابيا وحازما فى القيام بجمع الأخبار التى يهم الدوتشى نشرها أو اذاعتها ، وتقوم بتوزيعها على الصحف والاذاعة ، مع أوامر صريحة بنشرها واذاعتها على حالتها .. ودون حذف أو تحريف أو اضافة ، وحتى دون استبدال كلمة بكلمة أخرى .. حتى خرجت الصحف الايطالية جميعها وهى عبارة عن نسخة واحدة بأسماء متكررة ..

ـ ويقول أحد الصحفيين الايطاليين فى مذكراته عن هذه الفترة أيضا ان الرقابة مارست بالاضافة الى ذلك أنها كانت توزع أمرا يوميا يبين للصحف الموضوعات والأخبار التى يجب ابرازها ، وتلك التى يجب أن تمر بها مر الكرام ، دون تناولها ولو بكلمة واحدة ، كما كان أعوان

الرقيب يمرون على دور الصحف ، ليس من أجل الرقابة والمتابعة فقط ، وانما كان يدخل فى أعمالهم بعض الصور المهنية ، كتقديم رؤوس الموضوعات واتجاهات الافتتاحيات ، كما كانت الرقابة تتدخل أيضا — خاصة بعد أن أوكلت مهمتها الى وزارة الصحافة والدعاية — حتى فى شكل الصحيفة واخراجها وفى نوعية الصور ومحتواها وأعدادها أيضا ..

ومن الطبيعى أن تكون هناك ، وحتى يمكن تنفيذ ذلك كله ، ضحايا عديدة لهذه الصور الرقابية كلها ، وكانت هذه الضحايا من بين الصحف والمجلات والصحفيين معا ، فقد تمت مصادرة ٦٧ صحيفة فى روما والأقاليم لفترات تتراوح بين أسبوع واحد وثلاثة شهور ، كما أغلقت ١٩ صحيفة ، وسبع مجلات اغلاقا تاما .. كما تم الحكم بالسجن على ٨٣ صحفى ايطالى لمدد تتراوح بين ستة شهور وعامين وتم استبعاد أربعة من الصحفيين الى خارج البلاد ومنعهم من دخولها تماما ، وكان هؤلاء من مراسلى وكالات الأنباء الغربية .

وقد زاد من حدة هذه الأزمات كلها أحداث الحرب نفسها ، وكان من أبرزها ضرب مصانع الورق القائمة فى الشمال الايطالى ، وتعذر حصول هذه الصحف على الورق من بلاد أخرى الا بشق الأنفس بسبب قطع خطوط المواصلات ، واتجاه وسائله الى العمل الحربى .. كما قتل عدد غير قليل من شباب الصحفيين الايطاليين الذين انخرطوا فى سلك الجندية ، أو فى اطار التعبئة ، بالاضافة الى هذه القيود السالفة الذكر .. تلك التى أثرت على حالة الصحافة الايطالية عامة ، بل واستمرت تأثيراتها الى ما بعد الحرب بسنوات .. وحتى أوائل ومنتصف الخمسينات نفسها ، وعلى وجه الخصوص ، فى قلة العنصر البشرى الفنى ، وحتى الندرة التامة ، خاصة بالنسبة لصناعة الطباعة والاخراج ذاتهما .. لقد أدى ذلك — بعد الحرب — الى أن بعض الصحف والمجلات التى عادت الى الظهور ، لم تكن تجد من يقوم بالتحرير فيها ، فاذا وجدته فانها لا تجد الفنيين

اللازمين لادارة المطابع الحديثة ، بكامل أعمالها ... وفى ذلك يقول مؤرخ صحفى مصرى :

« .. لأن ايطاليا قطعت زهاء ثلاثين عاما دون صحافة حرة ، فلم يصبها التطور الذى يصيب عادة الصحافات الحرة التى ينضجها التنافس ويعلى من شأنها الخلاف على المسائل العامة ، فقد عاشت الصحافة الايطالية فى كنف الحكومة الفاشستية تمثل اتجاها معينا وتخرج جميعها من مطبعة واحدة فانعدم التنافس فى ادارتها وتحريرها وتخلفت عن الصحافة الأوربية أجيالا متصلة »(٦) .

---

(١) Avunti

(٢) Il puplodel Italia

(٣) محمد عبد القادر حاتم :: « الراى العام » ص ٣٠٩ .

(٤) فرتان ترو ، ترجمة محمود الفنتور : « الاعلام » ص ٥٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص : ٥٦ .

(٦) ابراهيم عبده : « دراسات فى الصحافة الاوربية » ص : ٢٢٨ .

فاندى ..

دستور للصحافة الشعبية

غـــاندى :

دستور للصحافة الشعبية

على الرغم من أن « المهاتما » يعرف فى العالم كله بأنه الرجل الذى دعا الى استقلال الهند عن طريق « العصيان بغير عنف » ، ونبذ الصناعات الانجليزية والعودة الى صناعة بلده ..

وعلى الرغم من أن أشهر صورة له ، هى تلك المعبرة عن « الاستقلال الذاتى » الذى دعا اليه ، وهى صورته وهو يغزل ثوبه بمغزله اليــدوى الخاص ، وهو يحلب ماعزه ويشرب لبنها كلما أحس بالجوع أو يقودها من ورائه الى حيث يسير .

وعلى الرغم من أن الرجل كان يلوى اليه أعناق العالم كله .. وبشدة عندما يعلن عن صومه حتى تتحقق رغباته .. أو كلما سجنته الســلطات الانجليزية .. حتى لوى اليه هذه الأعناق كما لم يلوها من قبل عنـــدما انطلقت رصاصة من هندوسى متعصب سقط بعدها مضرجا بدمائه فى ٣٠ يناير ١٩٤٨ ..

أقول .. على الرغم من ذلك كله ، وأيضـــا .. عـــلى الرغم من أن شخصية « غاندى » المحـــامى كانت ، وما تزال هى المعروفة .. الا أننى كلما كنت أقرأ أو أسمع عن هذا الرجل ، كنت ازداد يقينا بأن له صـــلة ما .. بالصحافة ..

فلا يعقل أن يكون للرجل ــ نبي القرن العشرين ــ كل هذا التاريخ ، دون أن تكون له مثل هذه الصلة ، بل أكثر من صلة أيضا ..

ومن هنا ، فقد بدأت أتلمس هذه الصلة ، وأسعى للحصول عليها عند مختلف المصادر ، حتى عثرت أخيرا على عدد كبير من شواهدها ..

ودليل واحد على شدة ارتباط المهاتما بالصحافة ، وأنه كان يعمل حسابها تماما فى مخططاته ويريدها أن تحمل آراءه الى القراء ، خاصة فى خارج الهند .. هذا الدليل يأتى من خلال أسلوبه للمقاومة نفسه ، والذى كانت الدنيا تهتز له ، وتتسابق الصحف والاذاعات ووكالات الأنباء فى نقل أخباره وتفصيلاته الدقيقة أولا بأول .. ذلك هو الصيام حتى تتحقق رغباته .. ولكنه حتى فى صومه هذا كان يتجاوز عن الاستجابة لأى شيء مهما بلغت أهميته ، الا أن الرجل كان حريصا على القيام بجميع مقابلاته مع رجال الصحافة ، قبل القيام بصومه ، بينما كان يؤجل كل شيء آخر .. الى أجل غير مسمى ..

وبينما كان غاندى يرفض الحديث حتى الى أقرب الأقربين اليه ، أو أخلص خلصائه ، أو الى أعضاء حزب المؤتمر الهندى الذى أصبح رئيسا له منذ عام ١٩٢٥ .. بينما كان ذلك كله يحدث فان المهاتما كثيرا ما كان يقطع صومه ، أو يعلن انتهاءه قبل موعده بعدة أيام ، وكان السبب ــ غير المعلن ــ لهذا هو اجراء مقابلة مع مندوب صحيفة عالمية كبرى ، أو مع صحفى عالمى جاء خصيصا الى الهند للكتابة عنه ، وعن قضية استقلال بلاده .. بل ان بعض مفكرى الهند يقولون أن الرجل قد أنهى صومه قبل الموعد المحدد ثلاث مرات ، اثنتان منها بسبب مقابلتين صحفيتين هامتين ، تتعلقان بموضوع الاستقلال نفسه ، والثالثة عندما اضطر الى ذلك بسبب وصول المسودة الأولى للوثيقة التى وضعت فيها بريطانيا مشروع استقلال الهند .. فخرج عن صومه لكى يناقشها على وجه السرعة ، وذلك قبل أقل من عامين من اطلاق الرصاص عليه .

ولكن هؤلاء يقولون .. بشرط أن تكون المقابلة هامة .. فهناك عشرات من المراسلين والصحفيين المحليين الذين فشلوا فى مقابلته لأنه كان صائما ، بل ان هناك بعض الذين حضروا من خارج الحدود خصيصا لاجراء هذه المقابلة .. وفوجىء هؤلاء باعلان صومه ، وعادوا بخفى حنين ، أو كان عليهم أن ينتظروا وقتا لا يعرفون عدد أيامه أو أسابيعه .

والواقع أن اهتمام غاندى بالصحافة لم يكن وليد رئاسته للمؤتمر الهندى عام ١٩٢٥ ، أو اعلانه عن مبادئه فى المقاومة ، ورأيه فى استقلال الهند ، فتاريخ الرجل نفسه يقول أنه كان يؤمن بالدور الذى يمكن أن تلعبه الصحافة فى نشر مبادئه وأفكاره ودعوته الاستقلالية ، وأن ايمانه بسلاح الصحافة ، كان لا يقل عن ايمانه بالأسلحة الأخرى التى استخدمها بكفاءة منقطعة النظير ...

ومن الغريب أن يتلازم ذلك الاهتمام ، فى نفس أوقات الكفاح المصرى ، وحيث أدرك غاندى ، كما أدرك الزعماء المصريون فى نفس هذه الأوقات ، مصطفى كامل ، وعلى يوسف ، ولطفى السيد ، وغيرهم أن الصحافة تستطيع أن تكون المدافعة عن حقوق الوطن والمواطن ، وأن تحمل أصواتهم الى عقل الشعب وقلبه ، وتناقش قضايا الاستقلال والحرية ، وما يتفرع عنهما من قضايا أخرى ..

ذلك أن غاندى ، منذ سنوات كفاحه الأولى ، كان حريصا كل الحرص على أن تخرج أفكاره الى النور ، تلك الأفكار التى كانت تراوده وهو بعد طالب علم فى انجلترا ، ثم أخذت تراوده بشدة كلما اقترب موعد العودة ، حتى أنه راح يدون أكثرها وهو فى طريق عودته الى جنوب أفريقيا .. ليمارس المحاماة هناك ، ويدافع عن العاملين الهنود هناك ـــ الكوليز ـــ وحيث كان يوجد فى الكاب والناتال والبوير حوالى ١٥٠ ألف هندى فى ظروف قهر وعسر .. منقطعة النظير .

رأى غاندى أن الدفاع عن هؤلاء لن يجدى اذا تم فى قاعات المحاكم وحدها ، فالقضاة الانجليز لن يقدموا كثيرا أمام ما يتعرض له هؤلاء من أعمال ، كما كان يعرف تماما ، أن ميدان المعركة الحقيقية فى الهند نفسها .. ومن ثم فقد رأى أن يتوجه الى هؤلاء جميعا بسلاح الصحافة ، فأصدر وأشرف على تحرير صحيفة « الرأى الهندى »(١) فى جنوب أفريقيا ، وكانت أبرز كتاباته بها هى تلك التى تحمل آراءه التى حمل طوال حياته مسئولية الدفاع عنها ونشرها والتى لوت بشدة أعناق الناس فى كل مكان، كما أنها هى التى صدرت بعد ذلك فى كتاب يحمل أفكار غاندى وآراءه ، كان عنوانه مرة « هذا مذهبى » ، ومرة أخرى « مذكرات غاندى » كما اقتطفت منه عدة أقوال صدرت فى كتب منفرده أكثرها شهرة كتابه « حضارتهم وخلاصنا » الذى اتخذت منه بعض الطوائف انجيلا لها ، ونادت بنبذ كل ما جاءت به الحضارة الحديثة ، ودعت أعضاءها الى العودة الى الطبيعة ، وحياة الريف والصحراء والغابات ، ونبذ الحياة فى المدن الكبرى والعواصم حيث السأم والملل والضجيج والتلوث والجرائم الكبرى ..

بل ان هذه المقالات نفسها يكتبها غاندى ــ الكاتب الصحفى هذه المرة ــ بأسلوب الحوار بينه وبين قارىء وهمى يتخيله يجلس اليه ، ويناقشه هذه الأمور كلها ، والرجل يضع له النقط فوق الحروف ويقدم له رأيا بعد رأى ، وفكرة فى اثر أخرى ..

على أن من أبرز ما كتبه « المهاتما » فى هذه المجموعة من المقالات الصحفية «الاعترافية» ما تضمن رأيه فى الصحافة نفسها .. فهو فى كلمات قليلة جدا ، يقدم فكرته عنها ، ويعلن عن دستور لها .. وذلك عندما يكتب :

« الصحافة ينبغى أن تكون قائدة الشعب ، ورائدته ، وخادمته أيضا ، ان هدف الصحافة الأول يجب أن يكون خدمة الفرد والمجتمع

والانسانية .. انها وهى تقوده ، وهى تضع نفسها فى مكان الريادة وهى تدافع عن آرائه ، وهى تؤيد مواقفه ، وهى تقوم بحل مشكلاته ، انما تقدم أقصى درجة من الخدمة ، وأرفع مرتبة منها .. وان من أهداف الجريدة أن تدرك الشعور الشعبى وأن تعبر عنه ، وان من مهامها أن تثير بين الشعب بعض المشاعر والأمانى المرغوبة ، كما أن عليها أن تكشف دون خوف عن نقاط الضعف والثغرات والعيوب التى تهدده »(٢) ..

وان الانسان ليقف متعجبا .. فهل صاحب هذه الآراء هو زعيم ومحام ، أم انه الى العمل الصحفى أقرب ..

ربما يكون الجواب أن الزعيم والمحامى ، والصحفى ، هى أسماء عديدة لشخص واحد يعمل عملا واحدا .. له عدة وجوه ، أو جوانب ، وأن الزعامة والمحاماة والصحافة ـ جميعها ـ كانت وما تزال شيئا واحدا.. من وجوه **كثيرة** ..

خاصة عندما يكون الرجل .. هو غاندى .

---

(١) Indian opinim

(٢) المهاتما غاندى ـ ترجمة الاساتذة الجامعيين : « هذا مذهبى » ص : ٣٠٥ .

فرانكلين روزفلت :

رئيس جمهورية الصحفيين

فرانكلين روزفلت :

رئيس جمهورية الصحفيين

.. كانت لهذا الرجل بعض مواقفه « الشهيرة » فى مواجهة الصحافة والصحفيين ، ومحاولة الحد من سلطاتهما ، وتقليصها .. وتضييق الخناق عليهما ، وسحب عدد من امتيازاتهما ..

كما أن الصدام قد وقع بينهما أكثر من مرة .. خاصــة فى أخريات عهده بالحكم ..

كذلك فان احدى المجمــوعات الصحفية الأمريكية ، قــد بلغ بها الضيق مبلغه .. حتى أدى بها ذلك الى حد نشر اعلان مساحته صــفحة كاملة .. وفى جميع الصحف الأمريكية ، تتحدث فيه عن حرية الصحافة ، وتعيد تذكير القراء والمجتمع الأمريكى بها ..

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان الرجــل ــ الرئيس الأمريكى فرانكلين ديلانوروزفلت ــ من أصدقاء الصحافة المعدودين ، والمتميزين أيضا .. حتى أن رئيس نادى الصحفيين الأمريكيين فى واشنطون قال فيه مالم يقله فى أحد غيره .. وكان بين ماقاله أن ف.روزفلت لم يكن رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، بقدر ما كان رئيســا لجمهورية الصحفيين ! .. وقد فسر رئيس النادى بعد ذلك ما كان ينشأ من خلافات بين الرئيس والصحافة قائلا : أنها ليست خلافات جذرية أو عميقة ، وانما هى خلافات فى الرأى فقط ، تلك التى تساير طابع المجتمع الديموقراطى

الذى تتفق جميعا على بنائه ودعمه كما أننا نختلف يوميا على صفحات الجرائد والمجلات ، بل وفى نادى الصحفيين دون أن يؤثر ذلك فى وحدتنا أو تعاوننا ..

على كل .. لنبدأ بأهم جوانب هذا الخلاف نفسه .. أو على غير العادة ، لنبدأ بالوجه الآخر للصورة الذى يبرز من خلال تفصيلاته ملامح الصدام ، وطبيعته ..

والواقع أنه حدث خلال فترات رئاسته الأربع ، أن وقع أكثر من صدام ، وليس صداما واحدا .. بين الرجل من جانب وصحافة بلاده من جانب آخر .. لعل أبرزها ما وقع خلال فترة رئاسته الأولى .. وذلك عندما وافق الكونجرس الأمريكى على قانون « الانعاش الصناعى الوطنى » .. فقد خولت بنوده رئيس الولايات المتحدة سلطات اضافية جديدة وعديدة كان من بينها ما اعتبر الصحفيون أنه طعنة قوية ، بل وقاتلة على حد تعبير احدى الصحف ، موجهة الى صناعة الصحافة نفسها ، بل والى حريتها والعاملين بميادينها المتسعة ..

نعم ، لقد أعطى له هذا القانون سلطة اجازة اصدار أو عدم اصدار الصحف ـ الموافقة على الترخيص من عدمها ـ وكذا خوله سلطة انشاء جهاز رقابة عامة تنظر فى أمر تنفيذ الصحف لشروط منحها الترخيص من عدمه ..

وعلى الرغم من أن هذه البنود ذيلت بعبارة « فى حدود القانون ».. وعلى الرغم من أن المقربين من الرئيس ، وعددا من أعوانه راحوا يطمئنون أصحاب الصحف والمحررين الى أن ف . روزفلت لا ينوى العمل بهذه

البنود أو استخدام هذه الصلاحيات التى يخولها له هذا القانون الجديد الا أن قيامة الصحافة قامت ، وعلا ضجيج الصحفيين وارتفعت أصواتهم خلال الاجتماعات العديدة التى قاموا بعقدها فى أنديتهم المنتشرة بطول البلاد وعرضها ، كما كتبوا ينتقدون هذا القانون نفسه .. قائلين بأن الصحافة الأمريكية ترفض قبول هذه الضمانات الشفهية التى يقدمها أعوان الرئيس ، تجاه قانون مجحف مدون حتى أن هذا الهجوم نفسه الذى قامت به الصحف ، كان يعنى فى جوهره عدم استخدام البنود المشار اليها ، والا لاستخدمت أولا .. خلال حملة الصحف عليها .. أى أن الحكومة قد جمدت هذه البنود من تلقاء نفسها .. وفى ذلك يقول « توماس بيرى » معلقا على هذا الصدام نفسه :

« وهكذا جر القانون الى اختبار لم يكن اختبارا بالفعل لأن الصحف لم تقم بأية محاولة للتقيد به ، فظلت تصدر كما فى السابق ، بغض النظر عما تحبه الحكومة أو تكرهه ، فمرت الحكومة بالأمر مر الكرام اذ أدركت المحظور الذى يترتب على منازلة مؤسسة بالغة القوة كالصحافة الأمريكية .. وهكذا ربحت الجرائد هذه الجولة المهمة بواسطة احجام الحكومة عن تنفيذ القانون »(١) .

كذلك فقد حدث أكثر من صدام آخر ، ولكنه لا يرقى الى مستوى أو أهمية الصدام السابق .. نعم ، كان يحدث الصدام عندما تخالفه بعض الصحف الرأى ، وهو ما كان يكرهه تماما .. كما كان يحدث أيضا عندما يبدو له أن بعض الصحف تعارض فوزه بالرئاسة ، بل انه صرح ذات مرة الى آن معظم الصحف الأمريكية تعمل على ابعاده عن منصبه الكبير الذى شغله فى حياته أربع مرات .. كما أن ضيقه بالصحافة ، وتبرمه بالصحفيين

قد بلغ مبلغه ــ وهو الصدام الكبير الثانى الذى حدث فى عهده ــ عندما ارتفعت أصواتهم واندفعت أقلامهم تعارضه بشأن بعض مشروعاته الداخلية ، وعلى وجه الخصوص مشروعه الكبير القاضى بتوسيع هيئة المحكمة العليا ، والذى هاجمته ١١٨ صحيفة يومية ومجلة فى شبه حملة صحفية قوية ومنظمة .. حتى تضعضعت أركان المشروع ، وركن على الرف .

كذلك فقد ثارت زوبعة أخرى ضد الرئيس ــ ولا أقول صداما كاملا ــ وذلك عندما حطم بنفسه التقاليد التى وضعها لمؤتمرات البيت الأبيض الصحفية .. تلك التى كان يعقدها فى مكتبه وعلى مسمع ومرأى من الجميع .. ولكنه رأى أن يغيرها ذات مرة ومنح حديثا خاصا لأحد الصحفيين دون غيره من زملاء المهنة..كما سمح له بأن ينقل عنه مباشرة.. وكانت النتيجة هى ما عبرت عنه دوان برادلى قائلة : « وقد أثار هذا عاصفة من الاحتجاج لدى رجال الصحافة بلغت من الشدة حدا جعله لا يكررها أبدا »(٢) ..

ذلك كله عن أبرز مواقفه فى مواجهة الصحافة والصحفيين ، أو مواقف هؤلاء فى مواجهته .. تلك التى تمثل الوجه الآخر للصورة .. فماذا عن الوجه الأول لها ؟

الواقع أن كلمة رئيس نادى الصحفيين بشأن الرجل كانت صادقة الى حد معقول ذلك لأن من الثابت أن صور علاقاته الحسنة ، ومفردات هذه العلاقات ، وتفصيلاتها وكذلك ، أسلوب تعامله معها ، جميعها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنه كان من كبار الأصدقاء الذين يحرصون على اقامة الجسور الدائمة ، ودعمها ، وتقوية الأواصر والروابط وعلاقات

الود ، بينه وبين الجهاز الصحفى الأمريكى ككل .. يستوى فى ذلك اصحاب الشركات والتكتلات الصحفية ، ورؤساء التحرير وكبار الكتاب والمعلقين والمحللين ومندوبى البيت الأبيض ، وكذا المراسلين الأجانب بالعاصمة الأمريكية .. رغم هذا الفتور ، وهذه القطيعة التى وصلت فى بعض الأوقات ــ كما شاهدنا ــ الى حد الصدام الكامل ..

وخذ عندك هذه الصور العديدة ، لتلك العلاقة الحسنة ، بل والحسنة جدا والتى كانت الطابع المسيطر لتعامله مع دولة القلم والحبر والفكر والرأى والصورة والخبر والتحقيق الصحفى .

ــ فمن المعروف أن الرجل ــ فرانكلين روزفلت ــ لم يغلق باب البيت الأبيض أو باب مكتبه فى وجه صحفى .. خلال أغلب فترات حكمه .. ولم يكن ذلك بالطبع لأنه يعلم أنه عندما يغلق مسئول بابه فى وجه صحفى ، فان الصحفى يأتيه من الشباك .. وانما لأنه بعقليته الشعبية التى كان يصدر عنها فى كثير من تصرفاته ، ولايمانه منقطع النظير بالدور الذى كان على الصحافة أن تؤديه .. كان يؤمن تماما بأن الصحافة هى مرآة الرأى العام فى بلده ، وهى التى تقدم له الصورة الحقيقية للمواطن الأمريكى بأفكاره ومشكلاته التى تؤرقه .. وأحلامه أيضا .. ومن ثم فقد كان يقدر رسالة الصحافة حق قدرها .. ويرى فى كل صحفى يطرق بابه وفى كل صحيفة أيضا ، ذلك الجسر الذى يربط البيت الأبيض ، بالشارع الأمريكى ، على عظم طوله واتساعه وتشعبه .

ــ وكان من الطبيعى أن ينتقل هذا الاهتمام من الرئيس الى جميع أعوانه ، وأعضاء وزارته ، وكبار رجال الدولة أيضا ، بعد أن وجدوا منه كل هذا الايمان بالدور الصحفى والاقتناع بالرسالة الصحفية ..

بل يقال أن أوامره الى هؤلاء كانت صريحة جـدا ، بامداد الصحـافة بكل ما تريده من معـلومات وحقائق .. وعـد ذلك من قبيل المصلحة العليا .. مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية نفسها ، ومن ثم فلم يعرف أن وزيرا من الوزراء ، أو رجـلا من رجال البيت الأبيض قد أغلق بابه فى وجه مندوب أو مراسل ، أو أوصده دونه ..

— بل انه فى أكثر الأوقات التى يخشى فيهـا جانب الصحـافة — زمن الحرب — فان الرجل عندما اضطر الى فرض الرقابة .. قال فى البيان الذى وجهه الى الشعب الأمريكى وصحافته :

« ان جميع الأمريكيين يمقتون الحرب ، ولكن التجارب التى مرت بهذا الشعب ومرت بغيره من الشعوب ، قـد بينت أنه لابد من وجـود رقابة ما فى زمن الحـرب .. ونحن فى حالة حرب » ثم أمر بانشاء مكتب الرقابه الأمريكى فى ١٩ ديسمبر ١٩٤١ ..

وحتى فى هذه الحـالة الأخيرة ، فانه قام باختيار « بيرون برايس » رئيس التحـرير بوكالة الأسوشيتدبرس مشرفا على هذا المكتب ، حتى يكون قد اختار واحدا من الأسرة الصحفية ذاتها ، بينما كان فى مقدوره أن يعـين واحـدا من رجاله أو رجال البيت الأبيض أو وزارة الداخلية أو الخارجية ، أو أحد القـادة العسكريين كما حدث ويحـدث فى دول كثيرة .. كمـا أنه أخضع كل ما يتعلق بالبريد والاتصـالات السلكية واللاسلكية والصـور والكتب والمكتبات لدائرة أعمـال هذا الرجـل نفسه .. وأكثر من ذلك فقد طلب هو شخصيا منه أن يضع نظاما خاصا للرقابة الاختيارية بالتعـاون مع أصحاب الصحف ومحرريها .. وسائر وسائل الاعلام ..

ـــ وحتى فى ميادين المعـارك نفســها ، وعلى الرغم من أن بعض أعضاء قيادته العسكرية كايزنهاور وغيره كانوا يعارضون منه ذلك ، فان الرجل سمح باصدار العديد من الصحف والمجلات العسكرية المتخصصة فى جبهـات القتـال نفسها ، كمـا أحرزت الصحف ووكالات الأنبـاء الأمريكية تطورا ملحوظا خـلال الحـرب العالمية الثانية .. يقـول عنه د . ابراهيم عبده :

« لقد حققت الصحف ووكالات الأنبـاء الأمريكية ابان الحـرب الثانية أعظم انتصار فى تاريخها جميعا .. فقد اتسع مجال العمـل حتى شمل الكرة الأرضية كلهـا ، ولقى العاملون فى حقل الصحـافة عوائق الرقابة ومصاعب المواصـلات ، وأخطار الأسلحة المستعملة والأمراض الفتاكة وغـير ذلك من متاعب ، وكان سجل ما تم طوال ثلاث سنوات وتسعة أشـهر من اشتراك الولايات المتحدة فى الحـرب .. كان هذا السجل بارزا فى كمه وكيفه ، ونقلت أخبـار الحـرب فى صورة كاملة منقطعة النظير » (٣) ..

ـــ وقد أصـدر « جراهام ج . وايت » الذى يعمـل محاضرا فى الأدب الأمريكى بجامعـة سيدنى كتابا جـديدا ـ ١٩٧٩ ـ بعنوان « روزفلت والصحافة » يتحدث فيه عن هذه العلاقة التى كانت فى جانب منها عاصفـة ومعقـدة .. وفى أكثر جوانبهـا مشرقة ومتينة ، بين هذا الرئيس الأمريكى وبين صحافة بلاده .. وذلك من واقع اتصـاله الوثيق بالجـانب الصحفى للرئيس ، وحيث حضر المؤلف جميـع مؤتمـراته الصحفية تقريبا .. كما حضر له أكثر من لقـاء ومؤتمر سياسى .. وكان من أبرز ما كتبه الاشـارة الى أن الرئيس كان محل اعجـاب الصحفيين

عامة ومندوبى البيت الأبيض خاصة .. وأن مؤتمراته كانت أكثر انفتاحا وأقل رسمية من المؤتمرات التى كان يعقدها أسلافه كما أنه كان يحضر هذه المؤتمرات أكبر عدد من المندوبين . وكان الرئيس يرد على جميع أسئلتهم ، ويتباسط معهم فى القول ، كما عرف عنه أنه كان يصافحهم جميعا ، يدا بيد .. وأنه عقد خلال سنوات حكمه ٩٩٨ مؤتمرا صحفيا .. وكثيرا ما كان يدعو عددا من الصحفيين لتناول طعام الغذاء معه .. كما يقرر كذلك ، أنه على الرغم من كل ما كان الرئيس يبذله من أجل دعم هذه الصلة وتحسينها باستمرار ، فان أغلب الصحف كانت تعارضه طوال فترة رئاساته بينما هو لم يحاول أن يوقف — على حد رأيه — تيار معارضتها له .

— كما كان هناك اجماع على النشاط الصحفى المتميز لزوجة الرئيس ، تلك التى كانت حريصة على أن تنافس زوجها فى عقد المؤتمرات الصحفية ، حتى أنها عقدت أحيانا أكثر من مؤتمر واحد أسبوعيا ، كما كانت تعقد مؤتمرات عديدة للصحفيات ، تخاطبهن خلالها بدون حواجز أو رسميات ، كما كانت توجه لهن الدعوة لتناول الغذاء على مائدتها .. وبعد الغذاء تصحبهن الى زيارة لجميع حجرات البيت الأبيض ، بما فى ذلك مكتب الرئيس الخاص ، ومكان احتفاظه ببعض أشيائه الخاصة وطوابعه ، وبريده .. ويقال كذلك أنها كانت تجيب على جميع أسئلة الصحفيات ، بما فى ذلك الأسئلة الخاصة جدا عن حياة الرئيس ، وحتى حياته معها وما الذى يحبه ؟ وما الذى يكرهه فيها ؟ ومتى يتفقان ، ومتى يختلفان ؟ وكيف يعالجان مشكلاتهما الخاصة ؟ وما هى صفاته التى لا يعرفها الناس عنه ؟ وما هى أبرز

نواحي ضعفه ؟ وكيف يتخذ قراراته الهامة ؟ وماذا يفعل ليلتها ؟.. الى غير هذه كلها من الأسئلة الأكثر اقترابا من حياتهما الخاصة والتي يقال أنها كانت ممنوعة على الصحفيين ، أو لم يكن هنا من يستطيع توجيهها اليه .. من الرجال ..

وعلى أية حال ، فانه يبقى لهذا الرجل هذه الصور العديدة كلها .. صور الاعجاب الى حد الغزل مع الصحافة والصحفيين .. صور الصديق الذي يقف مع صديقه دائما ، وفي جميع الأحوال ، ولكن لا بأس من قليل مما يعكر صفو العلاقة بينهما .. الى حين ، لتعود بعد ذلك أقوى مما كانت . أن هذه الأزمات الطارئة .. حتى وان كانت قد وصلت في بعض الأحيان ــ كما شهدنا ــ الى حد وقوع الصدام ، فقد كانت تمثل اختبارا لقوة الصحافة ومدى ايمان العاملين بها برسالتها .. وعلى حد تعبير توماس بيري : « وعلى كل فقد خرجت الصحافة من هذا الاختبار ظافرة كما فعلت في اختبارات عديدة سابقة ، بالتمسك بحقها في نشر الحقيقة » (٤) ..

---

(١) توماس بيرى ، ترجمة مروان الجابرى : « الصحافة اليوم » ص : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) دوان برادلى ترجمة محمود سليمان « الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى » ص : ٧٨ .

(٣) ابراهيم عبده : « الصحافة فى الولايات المتحدة الامريكية » ص : ٢٧٥ .

(٤) توماس بيرى ، ترجمة مروان الجابرى : « الصحافة اليوم » ص : ٥٧ .

شارل ديجول :

سلاح خطير جدا ..

تلك هى :

الصحافة السرية :

شـــارل ديجـول :

سلاح خطير جدا
تلك هى :
الصــحافة السرية

على أثر تهاوى المدن الفرنسية أمام الجيوش الألمانية وتوقيع الهدنة فى يونيو ١٩٤٠ .. بدأت الرقابة الألمـانية تعمل عملها فى التضييق على صحف المنطقــة المحتلة ، بل وفى خنق الصحف التى لا تستجيب لمطالب الرقيب « ستافل » ولا تنشر ما يرى نشره من أخبــار يوزعها هو بنفسه على رؤساء أو مدراء تحريرها فى مؤتمراته التى يعقــدها .. أو يوزعها باحدى الطرق الأخرى ، أو توزعها وكالة الأنبــاء الألمانية « د.ن.ب » بمعــرفة المكتب الفرنسى للاعــلام .. كما اتبعت هذه السلطات وسيلة أخــرى للضغط على الصحف الفرنسية حيث كانت تخفض « تموين » الصحيفة المشاغبة من الورق .. أو تمنعه فى بعض الأحيان .. حتى نجحت سلطات الاحتلال فى ازاحة بعض الصحف عن طريقها ، خاصة الصحف السياسية ، بينما بدأت الصحف الأخرى تظهر الخضوع — رغم أنفها — لقواعد الرقابة التي فرضها النظام الألمانى .

.. ولكن تلك الصــورة لم تكن تمثل الا الوجه الأول للعمــلة .. وجه ما يجــري فى المناطق الواقعة تحت القبضــة الفولاذية للجيوش الهتلرية .. وصحيح أنه كان الوجه الأكثر بروزا ، ووضوحا ، وسيطرة .. ولكن الصحيح أيضا أنه كان هنــاك ذلك الوجه الآخر وجه ما يجرى فى المنطقة غير المحتلة .. وحيث نلمح الفارس ديجول وهو يرتفع بقامته المديدة وسط أعضاء حكومة فرنسا الحرة .. هؤلاء الذين انتقلوا الى

« فيشى » مغلنين أن الحرب ما زالت قائمة .. ومن ثم اعلانهم استمرار قيام صحف هذه المنطقة بأدوارها الاعلامية والتوجيهية والتفسيرية خلال هذه الأوقات العصيبة من بداية الأربعينات بل ان هذه الحكومة ، وبتوجيه من ديجول نفسه كانت تحاول قدر ما تستطيع أن تساعد صحف هذه المنطقة على الصدور واستمرار الحياة ..

على أن العمل الديجولى الآخر ، والذى دل على ذكاء وحاسة اعلامية كبيرة ، بل وقيادية وطنية أيضا .. هو ما كان يفعله هذا الصديق للصحافة والصحفيين بأن يشجع اصدار الصحف السرية أو « صحف المقاومة » فى المناطق الفرنسية المحتلة ، خاصة بعد وضع الحلفاء أقدامهم على الشمال الأفريقى ، واحتلال الألمان للمنطقة الجنوبية من فرنسا .. وحيث تبع ذلك — وكما توقع ديجول فى حديث له مع أعضاء الحكومة الحرة — سقوط عدد من الصحف الفرنسية الكبرى .. تلك التى كان الاعتماد عليها كثيرا وأساسيا فى مخاطبة الشعب الفرنسى .. وهى أمثال صحف « الطان » و « الفيجارو » و « البروجرية » وغيرها بينما كانت الصحف الأخرى ، قد رضخت للقوى الأكبر منها .. أو استسلمت للرقابة الصارمة .

وسط هذا الضباب المتكاثر فى السماء الفرنسية .. وبين أشواك غابة الاحتلال كان صدور الصحف السرية ، يمثل فكرة بعيدة المنال ، صعبة التحقيق ، تحتاج الى قدر كبير من الشجاعة .. بل كان صدور صحيفة واحدة منها يعتبر مخاطرة غير مأمونة العواقب ، مع رقابة لا ترحم تستند الى احتلال عسكرى يبث عيونه ، تماما كما تنتشر أسلحته فى كل مكان .. ولكن ، ومن زاوية أخرى ، فقد كانت هذه الفكرة ، تمثل ذلك البصيص القليل من الضوء ، خيطا واحدا من خيوط الأشعة ، وسط ضباب الأحداث وظلام الأفق ، ومشاعر الخوف والقلق والترقب .

وأعتقد ، أن سوابق اصدار مثل هذه الصحف كانت تتجمع فى رأس ديجول وتلح عليه بشدة ، وعلى رؤوس الآخرين ممن كانوا يناقشون فكرة هذا العمل .. فقد صدرت مثلها أثناء نضال « المستعمرات الأمريكية » من أجل الاستقلال فى العقد السابع من القرن الثامن عشر ، كما أصدرها الثوار من اليونانيين أكثر من مرة فى مواجهة سلطات الاحتلال التركى .. كما صدرت أيضا أثناء ثورات عدد من الشعوب على الانجليز والفرنسيين أنفسهم .. وكان من بينها ما أصدره المصريون قبل وأثناء وبعد ثورتهم الكبرى عام ١٩١٩ — على الانجليز — فى القاهرة والأقاليم ..

باختصار .. لم يكن هناك من خاطر يلح على الرجل ، وهو يعيد تنظيم صفوفه ، ويرى فى الاعلام والدعاية سلاحا مؤثرا أبرز من ذلك الذى يدعو الى مد يد العون لمثل هذه الصحف القليلة جدا .. والتى لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .. وأكثر من ذلك تشجيع اصدار صحف جديدة بل واصدارها من مواقع المقاومة السرية المنتشرة فى مختلف أرجاء فرنسا .. ومن ثم فقد تتابع اصدار هذه الصحف « السرية » التى تحمل أسماء عديدة كان من أبرزها :

« ديفانس دى فرانس (١) — فران تيرور (٢) — ليبراسيون (٣) — كومبا (٤) — فرون ناسيونال (٥) » .. وغيرها ..

وقد أعدت لطباعتها مطابع خاصة ، بعضها كان فى الأصل من مطابع الصحف التى توقفت عن الصدور ، وبعضها الآخر من مطابع الصحف الاقليمية ، كما أن بعض هذه الصحف نفسها كان يطبع فى عدد من القرى وبطريقة سرية جدا .. ثم يخرج مع القوافل الصباحية التى تنقل الخضر والفاكهة والألبان الى المدن الكبرى ، على عربات يقودها عدد من أفراد المقاومة حيث يتسلمها آخرون يقومون بتوزيعها سرا .. وأما مشكلات الحبر والورق وغيرهما فقد كان يسهل الحصول عليهما

من بعض المؤسسات الفرنسية وبيوت الأوراق والطباعة ومما يزيد عن حاجة بعض الصحف التى كانت تطبع كمية أقل من تلك التى حددتها للسلطات .. وبكثير .. وكان الورق الباقى يجد طريقه الى الطوابق السفلى من بيوت أحياء المدن الفرنسية ، ليخزن هناك ، أو يطبع فورا فى تلك الأماكن .. وحتى عن طريق سرقة « بوبينات » الورق من مخازن تلك الصحف التى أيدت الاحتلال لتعيش ، ومن مخازن قوات الاحتلال نفسها .. أضف الى ذلك كله بعض « خصائص » الصحافة التى كان عليها أن تصدر فى مثل هذه الظروف فمن الطبيعى أن تكون هذه الصحف السرية ، غير مرتبطة فى صدورها بوقت محدد ، أو بساعة معينة ، فقد كانت تصدر « حسب التساهيل » ، كما لم ترتبط أيضا بشكل معين فى اخراجها ، ولا بعدد محدد من الصفحات ، فقد كان ذلك فوق طاقتها ، وطاقة أصحابها حتى أن بعضها كان يصدر أحيانا فى ورقة واحدة فقط ، بل صدر بعضها أحيانا فى ورق سميك ، من ذلك النوع الذى تصنع منه الأكياس والقراطيس وأكثر من ذلك صدرت أيضا على ورق مقوى ، كان فى الأصل معدا لعمل علب السجائر والأحذية ، حتى اذا جاءت الصحيفة السرية على الكمية التى حصلت عليها من هذا الورق ، بدأت البحث عن كمية أخرى ، أو عن نوع آخر ، حتى صدرت صحف على « مناديل الورق » و « المناشف » .. وهى الطريقة القديمة التى استخدمها صحفى فرنسى أثناء عهد « لويس فيليب » فى الأربعينات من القرن السابق ، وجميع هذه الطرق كان يعلم بها رجال المقاومة ، وقادتها ، بما فى ذلك ديجول نفسه .. حيث حملت من أفكاره وتعليماته ورسائله كثيرا .. حتى وصفها أكثر من مرة بأنها « سلاح خطير جدا فى يد المقاومة » .. تستطيع أن تستخدمه الاستخدام المناسب لاحراز النصر وتحقيق التحرير » ..

على أن من أبرز هذه الصحف السرية التى ساعد الرجل على اصدارها ، ومضى يمدها بعونه منذ صدورها وحتى التحرير تلك

الصحيفة المسماه « ديفانس دى فرانس ـــ الدفاع عن فرنسا » .. والتى أقبل أفـــراد المقـــاومة عليها وساعدوا على توزيعها بين طوائف الشعب الفرنسى بمختلف الطرق ، بل كانوا يهربونها الى خارج فرنسا أيضا .. والى المنـــاطق الأخـــرى التى كانت تعانى سطوة الاحتلال الألمـــانى .. أو تشرب من نفس كأسه ..

وقد استمرت هذه الصحف السرية فى عملهـــا بوازع وطنى يدفـــع المسئولين عنها الى العمل المتواصل ، وبذل كل الجهود التى كانت تعتبر فى مقدمة أسلحة المقاومة ضدها ، ولم يفت فى عضها أن الألمـــان كانوا أحيانا يعثرون على نسخها ويقومون باحراقهـــا ، كما قبض هؤلاء على كثير من محررى وموزعى هذه الصحف ، وتعرضوا للسجن والتشريد ، كما تعرضوا لعقوبة الاعـــدام رميا بالرصاص ، فما فت ذلك فى عضد الآخرين ، ولا أوقف صدور مثل هذه الصحف التى يعترف لها التاريخ الفرنسى بكل ما قدمته .. تمـــاما كما يعـــرف للرجل الذى شجعها على الصدور ، وأيدها ، ودفعها الى الاستمرار ومواصلة الكفاح .. يعرف له دوره الكبير .. ويعترف له به .. للقـــائد الفارس صـــديق الصحـــافة الجنرال دى جول .

---

(١) Defense de la France

(٢) France — Tireur

(٣) Liberution

(٤) Combat

(٥) Front National

ايزنهاور .. :

نصف .. لها
ونصف .. عليها

ايزنهاور :

نصف .. لها
ونصف .. عليها

هذا رجل كانت له مواقفه العديدة من الصحافة ، والمختلفة الى حد بعيد ، والى درجة التناقض .

ولكن قراءة سريعة لتاريخ الرجل نفسه ـ دوايت ايزنهاور ـ تبين أن هذه المواقف العديدة ، رغم تفاوت حدتها للرئيس الأمريكى من صحافة بلاده ، يمكن أن تختصر فى موقفين أساسين تنطلق منهما أو تتفرع جميع المواقف الأخرى ، كما تتصل بهما كذلك اتصالا وثيقا ..

فهو .. منذ بدأ اسمه يظهر على صفحات المجلات المتخصصة ـ مجلات الجيش الأمريكى ـ .. وعندما كان يتسلل على استحياء وفى مرات قليلة جدا ، بل ونادرة ، الى سطور الصحف العامة أو السيارة ، فقد كان هو نفسه يمتعض كثيرا .. ويبدو أن هذا الموقف الجاد الجامد .. قد صحبه وهو يقفز الى الرتب العسكرية المتقدمة .. ثم عاد يصحبه وهو يتقلد مناصب القيادة العسكرية ، فيقابل رجال الاعلام عامة والصحفيين خاصة ، بذلك الوجه المتجهم ، وبملامحه العسكرية الجافة ، تلك التى كان يجيد رسمها تماما ، أو كانت هى بعض طبيعته العسكرية التى كانت تسرى فى دمائه ودماء غيره من العسكريين ، بملامحهم الجادة دائما ، الخشنة أبدا .. حتى وهم فى أوج مجدهم وقمة انتصارهم .. حتى ليخيل اليك أن تلك هى طبائعهم التى ولدوا عليها ..

تماما كما يقولون أن فلانا ولد ليكون عسكريا ، وأن فلانا ولد ليكون صحفيا .. وأن فلانا ولد ليكون فنـانا .. وهكذا كان الرجل من هذه الطبقة من القـادة العظام ، الذين ـ كما يبـدو ـ ولدوا ليكونوا من كبار العسكريين ، والذين كان اقتناعهم يزداد دائما ، وبمرور الوقت ، ومع تأزم المواقف وضجيج المعارك ، ودخان البارود ، ومنظر الدم .. أن الاعلاميين عامة ، والصحفيين خاصـة هم من « المتطفلين » .. وأن تطفلهم هذا قد يؤدى الى عواقب عسكرية وخيمة .. بل ان هذا التدخل منهم ، قـد يزعج القـائد العسكرى أيما ازعاج ، وقـد يتسبب فى تعقيد الأمور .. أيما تعقيد ..

بل يقولون أن عبارات كثيرة كان الرجل يرددها وكأنه يحفظها عن ظهر قلب ، أو كان يفاجىء بها الاعلاميين من صحفيين واذاعيين .. وحتى رجال الاعلام العسكرى نفسه والتابعين لجيوش الحلفـاء ، أو للقوات الأمريكية المسلحة .. انها عبارات من مثل :

ـــ وماذا يريد المستمع من قائد عسكرى ؟

ـــ وما دخل القراء بتطورات المعارك على الجبهات المختلفة ؟

ـــ وما الذى يعنى صحيفتكم بالنسبة لهذه المسألة ؟

ـــ ولماذا تدس المجلة أنفها فى حياة الضباط والجنود ؟

ومن هنا ، فقد كان اللقاء به يمثل صعوبة كبيرة ، ليس أكبر منها سوى انتزاع عدد من الأخبار من بين أنيابه .. ان المحرر فى هذه الحالة يكون قد انتزعها من بين أنياب الأسـد نفسـه ولذلك كله ، فلم يكن ينجح فى هذا اللقاء ، الا المخبر القدير ، والمراسل المتمرس ..

بل يحكى عنه ، أن أحـد المراسلين الحربيين التابعين لوكالة أنبـاء أجنبية ، طلب مقابلته وأخـذ يلح فى هذا الطلب ، والرجل يحول جميع

طلباته الى الضباط الصغار ، أو الى ياوره الخاص أو الى أركان حربه .. أو الى مكتب الأنبــاء الأمريكى التابع لجهاز الحرب .. ولكن المراسل يستمر فى محــاولاته ولا ييأس أبدا .. بل يظل يتمسك بحبـــال الصبر ويتابع القــائد العسكرى ، و « ينام » له قرب مركز قيادته .. وعندما ينولون ذلك لايزنهاور يبعث فى استدعاء المراسل ، ويطلب منه أن يقوم بجولة فى الميدان .. يعود بعدها الى لقائه لمدة نصف ساعة فقط !!

وبعد أن يقوم المراسل بهذه الجولة التى استمرت أكثر من يوم ، وبرفقته بعض رجال الأمن يواصل .. الى مركز القيـــادة ، والى مكتب ايزنهاور نفسه ..

ولكن القــائد العسكرى يفاجىء المراسل بســؤال عمــا شاهده ، ويواصل سؤاله عن انطباعاته الخاصة بخطوط الدفاع وتوزيع الأسلحة والكتائب ، والمعسكرات المختلفة ، كمــا لم ينس أن يســأله عن روح الجنود المعنوية ، ودرجة ارتفاعها ، وعن درجة انتظامهم والطعام الذى يقدم لهم ، ونوعيته ، ورأيه بشأنه ..

سأله ايزنهاور عن ذلك كله ، وجلس هو يستمع ، واجابات المراسل تترى اجابة فى اثر أخرى ، دون أن يترك له فرصة واحدة ، ليقدم سؤالا واحدا .. حتى أخذ ينظر فى ساعته ثم دخل أحــد رجاله من العسكريين ليعلن عن انتهاء المقابلة .. التى قام فيها ايزنهاور بدور الصحفى .. وخرج المراسل من باب مكتبه وهو يضرب كفــا بكف .. فقــد خــرج كمــا دخل تمــاما !!

وصحيح أن الموقف لم يكن كذلك دائما ، فقد قابل الرجل عددا من الصحفيين ، وفازوا منه بأحاديث هامة ، ولكن ليس فى جميع الأحوال .. ومع مزيد من ابراز الطابع العسكرى المتجهم .. كل ذلك رغم أن تقارير المخابرات الحربية نفسها كانت تتحدث بفخــر زائد عن احترام المراسلين

الغربيين عامة ، والأمريكيين خاصة ، لشرف مهنتهم ، وعملهم على صالح بلادهم ، وقيامهم بمسئوليتهم كاملة .. بحيث لم يتسرب الى أعمدة الصحف أو الى أمواج الأثير ، ما يفيد منه الأعداء ، من أخبار عسكرية ، مهما تكن درجة أهميتها .. مما كان يثير غضب المخابرات الألمانية ومحللى أخبار العدو ــ الحلفاء ــ كثيرا .. حتى كان ذلك مثار شكوى هتلر نفسه .

ولكن .. على الرغم من ذلك كله ، فقد كان الرجل يرى أن العسكرية شيء .. وأن الصحافة والاذاعة والدعاية أشياء أخرى .. وأنه اذا دخلت هذه الوسائل من الباب ، خرجت العسكرية بكل خططها ، وتحفظاتها وأسرارها وعالمها .. من الشباك .

كان ذلك هو الموقف الأول للرجل ، وكانت هذه بعض صوره ــ وهى كثيرة ــ ومن هنا فقد أثار قرار الرجل بترشيح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهورى ضجة اعلامية كبيرة .. فقد كان رجال الاعلام عامة ، والصحافة خاصة ، يعرفون أن فرصته للفوز بهذا المنصب كبيرة ، ومن ثم فقد كانوا يخافون من استمرار الطابع العسكرى له ، فى التعامل معهم .. وبنفس الأساليب ، وحيث يعنى ذلك وضع تقاليد جديدة لعلاقة الرئيس بالصحافة لا شك أنها ستحد من نشاطهم كثيرا .. وقد تؤثر حتى على الرؤساء من بعده ، وأول ما كانوا يخشونه منه ، أن يعمد الى الغاء المؤتمر الصحفى الأسبوعى الذى كان الرؤساء يتابعون عقده بالبيت الأبيض ، والذى كان يحضره العديد من المحررين ، ويعتبر هو ترمومتر العلاقة بين الرئيس من جانب ، والصحافة الأمريكية من جانب آخر ..

ونجح الرجل ، وأصبح رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية عن الحزب الجمهورى .

وعلى الرغم من أن بعض الصحفيين قد تحدث عن مخاوفه بصـوت عال ، وأن عـددا من المراسلين راحوا يتحدثون عن ذكرياتهم ، والرجل العابس الوجه ، القاسى الملامح يواجههم ، أو يحاول أن يقوم هو بدور الصحفى ، أو يردد أقـواله عن الصـلة المفقـودة ــ فى رأيه ــ بين العسكرية والاعلام ، أو بين القـادة والصحفيين .. على الرغم من ذلك كله فقد بدأ الرجل بداية طيبة مع هؤلاء من « الفضوليين » اذ جاء الى قاعة المؤتمر الصحفى الأول مبكرا عن موعده ، وأخذ فى مداعبة عـدد من مراسلى البيت الأبيض ، وكان بعضهم من الذين عملوا معه فى ميادين المعـارك ، كما كان يبـدو وجهه مبتسما وكأنه ما يزال يخوض معركته الانتخابية ، بل وأكثر من ذلك ، فانه أعلن أكثر من مرة عن ترحيبه بأى سؤال يقدمه له أى منهم ، خـلال الوقت المخصص للمؤتمر الصحفى ، أو أى وقت آخر .. بل لقد أضاف الرجل الى وقت المؤتمر عدة دقائق أخرى ، وهكذا .

وأسقط فى أيدى المحررين ومراسلى البيت الأبيض ، وبلغت دهشتهم مداها ، من هذا الأسلوب الجديد تماما على الرجـل ، والذى لم يكن أحدهم يعرفه عنه ، أو يتوقعه .

ولكن الرجل الذى كان قد قرر أن يغير من أسلوبه العسكرى ، وأن يحرص على أن يكون صديقا للصحافة والصحفيين ، قدر استطاعته ، كان قد أعد لهم أكثر من مفاجأة أخرى .. وكان من بين هـذه المفاجآت على سبيل المثال لا الحصر :

ــ دعوة عدد كبير من المراسلين الى مصاحبته فى بعض رحلاته .

ــ اضافة عدد آخر من أجهزة وخطوط التليفون فى الحجرة المجاورة لقاعة المؤتمرات والتى تتصل مباشرة بالصحف ووكالات الأنباء .

ــ عدم رفض رغبة أى صحفى فى مقابلته قبل أو بعد انتهاء المؤتمر.

ـ دعوة المراسلين الى بعض المؤتمرات التى يرى الرئيس عقدها في أوقات أخرى غير الوقت الأسبوعى المحـدد لها ـ ما بين العـاشرة والعاشرة والنصف من صباح كل أربعاء ـ ويتم ذلك عن طريق اشعارهم بمواعيد المؤتمرات الجديدة أو الاستثنائية بطرق كريمة ولطيفة .

ـ ارسال صور من البيانات التى يقوم الرئيس بالقائها والمعـدة سابقا ، حتى دور الصحف والمجلات وأبواب وكالات الأنبـاء بالاضافة الى ما يقدم لهؤلاء أثناء عقد المؤتمرات نفسها .

ولكن ، هل كانت هذه الاجراءات الجديدة كلها كافية لتغيير صورة الرجل الأولى فى أذهان هؤلاء ؟ ولرسم هذه الصورة الجديدة التى كان حرصه ـ كما يبدو ـ بالغا على أن تستقر فى مخيلتهم ؟ ..

الواقع أن الصحفيين قد انقسموا فى مـدى استجابتهم لاجراءات ايزنهاور الجديدة ، وأسلوبه الجديد فى التعامل مع الصحافة .. فالبعض منهم كان يرى فى ذلك تغييرا جذريا ، وسوف يستمر الرئيس عليه ، طوال فترة حكمه ، بل وسوف يضيف اليه جديدا مما يساعد على دعم هـذه الصداقة الوليدة بينه وبين مرآة الرأى الأمريكى والعـالمى ، والبعض الآخر كان يرى أنها مجـرد اجراءات خاصـة بأسابيع وشهور الرئاسة الأولى ، وأنها تصرفات وقتية فقط لا يلبث بعدها الرجل أن يعـود الى مواقفه الأولى ، والى عسكريته الجافة ، فقـد ولد الرجل عسـكريا .. وسوف يموت عسكريا .

ولكن ، من الغريب أن يقدم الرئيس بتصرفاته التى تلت الأسـابيع الأولى لحكمه ، ما يؤكد الرأيين معا .. بل ما تسبب بعد ذلك فى مزيد من الحيرة لهؤلاء الذين راحوا يتابعون علاقته بالجهاز الصحفى ..

فبينما نجد أن ايزنهاور يفعل كل ذلك ، ويقدم هـذه التسهيلات الجديدة للصحفيين ، بل وبينما نجده يقدم أكثر منها ، ومما لم يفعله رئيس آخر من قبله ومثال ذلك موافقته على تسجيل هذه المؤتمرات على أشرطة

وتقديمها الى الصحف والاذاعات التى تريدها .. كما وافق كذلك على أن تصورها محطات التليفزيون .. فى أفلام خاصة .. ولكن حتى هذه أيضا وجدت من يقول بأن الرئيس قام بتحويل المؤتمرات الصحفية ذات التقاليد الراسخة ، الى استعراضات تليفزيونية واذاعية ، خاصة عندما وافق على اذاعتها أو بثها على الهواء مباشرة .. بل راح هؤلاء يضيفون الى هذا الموقف من الرئيس عدة مواقف أخرى عدوها عليه لا له ، ومن ذلك مثلا أنه بادر فقضى من الأساس على أسلوب المعاملة الخاصة لصحفيين معينين ، مما أثار جدلا كبيرا ، لأن هؤلاء كانوا يتمتعون بهذه الحقوق منذ عهد الرئيس « ترومان » .. ومن بينها كذلك ما صرح به ذات مرة داخل اجتماع مجلس الوزراء .. حيث قال بالحرف الواحد :

« ان أى شخص يكون لديه وقت للاستماع الى المعلقين أو قراءة مقالات أصحاب الأعمدة لا يكون لديه كما هو واضح عمل يشغله »(١)..

كذلك أخذ عليه هؤلاء ما حدث فى مؤتمر الحزب الجمهورى عندما أنحى باللائمة على الصحافة الأمريكية ، بسبب الطريقة التى كانت تغطى بها شئون الحزب بل وبالنسبة لهذه النقطة بالذات فان أكثر الصحفيين الأمريكيين ، بل وأكثر الأمريكيين أنفسهم ، كانوا يرون عكس ذلك تماما . ومن ثم فان الصحافة الامريكية ــ فى رأى هؤلاء ــ كانت مشايعة له بشدة ، رغم تخوف رجالها منه ، كما أنها ساعدت على نجاح كثير من الرؤساء الجمهوريين .

وربما من أجل هذا الغموض نفسه الذى غلف علاقة الرجل بالصحافة ، فقد حدث خلاف كبير بين عدد من المؤرخين ، البعض ــ كما حدث بالنسبة للصحفيين أنفسهم ــ يتحدث عن الوجه الأول لصورة الرجل ، أو عن نصفه « العسكرى » ، والبعض الآخر يتحدث عن الوجه الثانى أو عن نصفه « الصحفى » مما يجعلنى أكرر ذلك التساؤل الذى سبق أن قدمته فى كتابى « فن الخبر » عند حديثى عن هذه المؤتمرات

نفسها .. فهل كان لهذا الرجل ــ حقا ــ موقف شعبى بسيط من الصحافة يبدو خلال مؤتمراته ولقاءاته ، يخالف تماما موقفه الرسمى منها ؟

لقد قدمت مؤلفة وصحفية أمريكية ــ دوان برادلى ــ تفسيرها لذلك عندما كتبت تقول عن علاقة الرؤساء الأمريكيين بالصحافة ، وهو تفسير معقول ، ومقبول أيضا :

« والخصومة الشخصية والسياسية تكمن وراء الكثير من نقد الصحف للحكومة ، فرئيس التحرير الديمقراطى الذى كان يعارض بشدة أحد المرشحين للرئاسة ، ولكنه نجح رغم ذلك لن يغفل أخطاءه الكثيرة التى يرتكبها وهو فى السلطة ، ورئيس التحرير الجمهورى الذى يؤمن أن الحكومة الديمقراطية تدير دولة رفاهية سيظل يبرز هذا باستمرار لقرائه ..

وفضلا عن ذلك ، يوجد بالفعل خلاف كبير حقيقى فى الرأى بين الحكومة الأمريكية والصحافة الأمريكية ، فالحكومة تعتبر من أهم مصادر الاخبار التى قد تهم أو ينبغى أن تهم كافة المواطنين ومع ذلك فان الحكومة جهاز بالغ التعقيد والصعوبة ، وقد لا يكون من المفيد فى جميع الأحوال أن يذاع كل شىء يقال أو يعمل فى واشنطن عن طريق الصحافة ..

وكثيرا ما يتمركز الصدام حول الرئيس ، لأن الرئيس هو رأس الحكومة ، وقد حاول بعض الرؤساء ترويض القوة الجبارة للصحافة ، وحاول البعض الآخر هزيمتها فى معركة ، ولكن لم يستطع أحد أن يحقق نجاحا كاملا .. كما لم يفشل أحد فشلا كاملا »(٢) ..

.. أقول ربما يفسر ذلك آراء الجانبين ، وحيرة الدارسين والمؤرخين، بين وجهى صورة الرجل ، أو بين نصفه العسكرى ، ونصفه الجماهيرى الصحفى .. بين الماريشال القاسى الملامح ، المتجهم الوجه ، وبين « آيك » اللطيف ، بابتسامته العريضة ، وحبه للمحررين وقلبه الكبير الذى وسع

عشرات منهم ، كما وسع أيضا سائقته الخاصة : ل . كاى سمر باى(٣) التى تحدثت الصحف عن غرامه الكبير بها ... ويالها من قصة مثيرة للرئيس القائد العسكرى .. والعاشق أيضا ..

ولكنها الصحافة .. التى ما تزال تتحدث عن هذه العلاقة الغرامية ، حتى عندما عقدت زوجته (مامى) مؤتمرا صحفيا هو الوحيد فى حياتها من نوعه لتنفى فيه هذه العلاقة ، فان الصحافة أخرجت لها لسانها .. وقالت : ولو .. لقد أحب الرجل سائقته فعلا والى درجة العشق !!

---

(١) روان برادلى ترجمة محمود سليمة : « الجريدة ومكانها فى المجتمع الدمقراطى » ص ٧٨

(٢) المصدر السابق ، ص : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) Lt kay summersby

جون كينادي :

السلم والتقدم
بطريقة صحفية

جون كنيدى :

السلم والتقــدم بطريقة صــحفية

كثيرة هى البدايات التى يمكن أن تكون مقدمة للحديث عن هـــذا الرجل .

بل ان الكاتب نفسه ليقع فى حيرة شديدة ، عند محاولته اختيـــار مقدمة ذات دلالة تعبر فى دقة ووضوح عن حياة هذا الرجل القصــيرة للغاية ، الحافلة جدا ، وأيضا عن قصة اغتياله التى شغلت الرأى العـــام العالمى ، وما تزال تشغله ، حتى الآن .

فهل نبدأ بتلك القصة ، وبخبر الاغتيال الذى نشرته جميع صــحف العالم ، وأعلنته اذاعاته ، ومحطات تليفزيونه ، ومن ثم أصــبح من أهم الدروس الصحفية ، التى يقدمها الأساتذة والمتمرسون ، فى أقسام الاعلام وكلياته ومعاهده ومدارس الصحافة .. فى العالم كله ؟ .. نعم ان قصــة الاغتيال هى قصة صحفية فريدة فى نوعها ، وان السرعة التى انتقل بهــا الخبر الى العالم كله ، وأساليب تغطية وسائل الاعــلام له ، والتقــارير والقصص والتحقيقات والموضوعات الاخبارية والمقالات ، وحتى الصور التى نجح البعض فى التقاطها .. جميعها جديرة بأن تدرس ، كما حظيت بعناية تستحقها عند هؤلاء .. فهل نبدأ بها ؟

أم نبدأ بقصة انتخابه فى ظروف بالغة الصعوبة ، ولا يحسده عليها أحد ؟

أم نبدأ ببرامجه السياسية والاقتصادية والتنموية والانسانية التى ما تزال حديث المجتمعات ، ويحاول عدد من رؤساء الدول تقليدها ، بشكل أو بآخر ، وبانعكاساتها الصحفية وسيطرتها على الصفحات والسطور ؟

أم نقتصر هنا ، فى حديثنا عنه ، على علاقته بالصحافة والصحفيين : وهو أيضا ــ وكما سنرى ــ يعتبر موضوعا خصبا للغاية ؟

ويالها من مقدمات ، أو استهلالات محيرة حقا ، وصعبة أيضـا ، وليس أكثر منها صعوبة سوى محاولة الجمع بين جميع هذه المعالم المتصلة بها .. فى اطار هذه السطور .

ذلك لأن الرجل ــ جون كنيدى ــ ومنــذ وقع اختيار الشــعب الأمريكى عليه فى نوفمبر ١٩٦٠ ، وحتى انطلقت تغتاله رصاصات الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٣ ، بل وبعد هذا التاريخ أيضا ، وهو يسرق الكاميرا ، والأضواء ، والسطور ، والكلمات ، والخطب ، والحروف ، والنقط أيضا .

لقد استقبلت الصحافة العالمية عامة والأمريكية خاصة أخبار اختياره للرئاسة بكلمات تعبر عن الحذر ، والقلق ، والخوف على مستقبل البلاد ، والسلام العالمى ، بل لم يتورع بعض الصحفيين عن اعلان شكوكه التامة فى امكانية نجاح هذا الرجل فى قيادة القارب الأمريكى .. وكان هؤلاء يجدون فى المناخ العام السائد ، بعض أسباب تخوفهم ..

فالرجل ، هو أصغر رئيس يتم انتخابه فى تاريخ الولايات المتحــدة الأمريكية ، وهو لم يتعد بعد مرحلة الشباب ، كما أن فوزه على منافسه الجمهورى ريتشارد نيكسون ــ نائب الرئيس السابق ايزنهاور ــ قــد تم بأغلبية ضئيلة من الأصوات ، وعندما ظهرا معا على شاشة التليفزيون الأمريكى فى سلسلة من المناظرات تحدث لأول مرة على هذه الشاشة ، كان من الواضح أن الرجل محدود الخبرة وأن منافسه يتفوق عليه بما اكتسبه

خلال السنوات الثمانى التى قضاها فى حكومة ايزنهاور .. وحتى عندما عادت الصحف الى مراكز معلوماتها لتحدثها عن تاريخ الرجل وجهوده ، لم تجب أجهزتها بأكثر من أنه كان مواطنا أمريكيا نصف مشهور وعضوا عاديا بمجلس الشيوخ باستثناء بعض الأحاديث الصحفية التى قدمته بينما جاءت اجابة العقل الاليكترونى فى صحيفة « نيويورك تايمز » مخيبة للآمال .. اذ راحت تقدم الأرقام العديدة التى تؤكد حالة الرخاء الذى حصلت عليه البلاد فى عهد الجمهوريين ..

وزاد من مشاعر الخوف والقلق ، تلك التى كانت تتردد على الصفحات ، وتنتقل الى شفاه الأمريكيين وكعادتهم ـ بسرعة البرق ـ أن الرجل قد اختير لقيادة القارب الأمريكى وسط بحر متلاطم الأمواج فالتوتر الدولى على أشده ، والروس قد أسقطوا طائرة الاستطلاع الأمريكية : (يو ٢) وأسروا قائدها ، ووضعوا الولايات المتحدة الأمريكية فى شخصه داخل قفص الاتهام ، وقاموا بمحاكمتها على ذمته ، أو بمعرفته، وفيدل كاسترو ينتصر على باتيستا فى كوبا ، ويتحول الى « شوكة » شيوعية مناوئة للولايات المتحدة ، والوجود السوفييتى يتزايد فى دول أفريقيا المحررة بمعرفة عبد الناصر وسباق الفضاء يتحول الى سباق تسلح رهيب ، وخطر نشوب حرب هيدروجينية يبدو محتملا ، حتى بسبب خطأ فى التقدير أو فى حسابات العقول الاليكترونية أو تشابك بعض أسلاكها ، والروس يرفضون ، ويعقدون محادثات نزع السلاح ، وخروشوف يستثمر ذلك كله لصالحه ، ولصالح بلاده .

فهل يستطيع الشاب الطموح ، بوجهه « التصويرى » أن يواجه ذلك كله ؟ وهل يمكن لمثل هذه الابتسامة العريضة التى يوجهها دائما الى المندوبين والعدسات ، أن تفيد كثيرا فى حل مثل هذه المشكلات ، أم ينتصر الرأى الذى تردده صحافة الجمهوريين ، والقائل بأن توزيع

الابتسامات يصلح فقط للجلوس أمام الكاميرا .. ولكن ليس أمام الدب الروسى، القوى ، الخبير المجرب ، الداهية ، خروشوف ..

ولقد كان من المنتظر ازاء ذلك كله ، أن يبادر الرجل وفى مواجهة هذه الأفكار والآراء كلها الى تعيين عـــدد من الوزراء والمستشارين « المخضرمين » والذين يغطى الشعر الأبيض رؤوسهم أو ــ على الأقل ــ ممن عرفوا بخبراتهم فى مجالات الاحتكاك والتوتر السابقة .. ولكن ، ضاعف من تخوف الاعلام الأمريكى عامة ، والصحفى خاصة أن الرجل قد قرر المضى فى الاتجاه المعاكس تماما ، أو المخالف لهذه الآراء والأفكار نفسها ، فهو يصرح فى خطاب تنصيبه وبحماس الشباب قائلا : « لقد تم تسليم الشعلة الى جيل جديد من الأمريكيين »(١) .. وكان له ذلك حقــا حيث قام باختيار أعضاء مجلس وزرائه ، ومستشاريه ومعاونيه .. جميعهم من الشباب الذى بدأ يهيمن على مقاليد الأمور والمناصب المختلفة فى أكثر أجهزة الدولة ..

لقد بدا وكأن الرجل لا يلقى بالا الى هذه الأقوال والأفكار كلها .. بل وكأنه يريد أن يثبت ، بالقول وبالفعل عدم صحتها .. ولكنه ، من زاوية آخرى بدأ يلوى عنق الصحافة اليه ويجبر الأضواء على أن تتقدم نحوه ، ثم تتركز عليه ، مع كل يوم يمر من أيام حكمه .. وكأنه يقــول لرجال السلطة الرابعة فى بلاده .. لقد تسرعتم فى الحكم ، وما كان لكم أن تفعلوا ذلك قالها الرجل بأسلوبه الخاص ، وطريقته المعينة التى عبرت عنها علاقته بصحافة بلاده ، وكانت هذه بعض صورها ..

لقد بدأ الرجل فترة حكمه والخلاف ناشب بين الصحف الأمريكية على حقيقة موقف سلفه ــ ايزنهاور ــ من الصحافة ، وذلك على الرغم من الاجراءات العديدة التى قام بها على سـبيل الاقتـراب من الصـحافة والصحفيين ، والغاء صورته العسكرية ، وتصرفاته ــ أثناء الحرب ــ من أذهانهم .. كما بدأها أيضا ولسان حال أكثر الصحف ، خاصــة صحف

الجمهوريين تهاجم صغر سنه وقلة خبرته .. ولكنه منذ بدأ وهـو يلفت الأنظار اليه بكثرة قراءته لها ، ومتابعته الدقيقة لموادها ومناقشته لوزرائه ومستشارى البيت الأبيض وأعوانه ، بل وزوجته جاكلين ، تلك المناقشة التى تتناول ما تأتى به الصحف عن هؤلاء ، وما تكتبه من أخبارهم ، أو تنقله على ألسنتهم ، حتى عرف عنه أنه يقرأ الصحف بانتظام أكثر من أى رئيس آخر من أسلافه ، بما فى ذلك هؤلاء الذين كانوا يعملون بها فى بدء حياتهم ، كما كان يستوى عنـده فى مجالى القراءة والمتابعـة صـحف الديموقراطيين وصحف الجمهوريين معا ..

ويبدو أن هذه المتابعة الدقيقة للمادة الصحفية قد أطلعته على أهمية الاقتراب من هؤلاء ، ووضعت يده على أسس هذا الاقتراب ، كما عادت بذاكرته الى أيام عضويته لمجلس الشيوخ ، وصداقته لعدد من مندوبى ومراسلى الصحف الأمريكية ، وحيث كان هؤلاء يبدون تعاونا كبيرا معه ، كما بادلهم هو هذا التعاون نفسه عن طريقه تصريحاته العديدة ، واعلان رأيه فى المسائل الهـامة التى كانت تعرض للبـلاد .. والى حـد الادلاء بالأحاديث الصحفية الكاملة والعـديدة ، والتى كانت هى أول ما لفت الأنظار الى نشاطه .. والى اسمه نصف المعروف فى هذا الوقت ..

واذن فالصحافة تستطيع أن تقدم له الكثير ، ولبرامجه الطموحة ، فى السلام والتقدم فليمد لها يد التعاون ، وليبحث عن أصدقائه القدامى من مندوبى ومراسلى مجلس الشيوخ ، وليتخذ منهم قواعده الى عقل وقلب زملائهم .. والى التأييد فوق الصفحات .. هذا كله من جهة ، ومن جهة أخرى ليدع أعماله تتحدث معلنة عن نفسها ، ولتجبر هى العدسـات والأضواء على أن تتحول اليها .. رضيت بذلك أم كرهت .

وقد رأى الرجل أن تكون خطوته الثالثة ـ بعد القراءة الدقيقـة والمتابعة والاتجاه الى الصحفيين الأصدقاء ـ هى تلك الخطوة التنظيمية بنقل قاعة المؤتمرات الصحفية للرئيس من قاعة الاتفاقية الهندية القديمة

الى قاعة أخرى ضخمة بوزارة الخارجية ، تتسع لأكثر من ضعف عدد الصحفيين الذين كانوا يحضرون فى القاعة القديمة ، وبذلك وسع من قاعدة الحضور ، وأمكن لحوالى خمسمائة صحفى متابعة هذه المؤتمرات الصحفية للرئيس كنيدى ، كما أمكن بذلك أن يحضرها رجال الاذاعة والتليفزيون بأجهزتهم العديدة ، ومصادر الأضواء ، والاشتراك فى تبادل الأسئلة والاجابات ، واذاعة ذلك كله ، وبثه على الهواء مباشرة .

كذلك ، وتدعيما لهذه العلاقة الجديدة التى كان الرجل يوالى اقامة جسورها ، فانه بادر بتعيين عدد كبير من شباب المحررين والاذاعيين ورجال العلاقات العامة .. ليمثل هؤلاء فريق عمل متكامل فى حقل العلاقات الصحفية ، يوالى العمل فى اعداد هذه المؤتمرات ، وتجهيز البيانات ، وتسهيل المهام الصحفية ، والاتصال بأجهزة الاعلام وترتيب وعمل اللقاءات الهامة ، واعداد زيارات الاعلاميين للبيت الأبيض ، حتى أصبح مجموع العاملين بهذا المجال بالبيت الأبيض أكثر منه بالنسبة لأى رئيس آخر . كما تبع ذلك مضاعفة مكاتب الصحفيين ، وأجهزة اتصالهم بصحفهم داخل واشنطن وخارجها وداخل الولايات المتحدة وخارجها ، خدمة لمراسلى الصحف ووكالات الأنباء العالمية بالعاصمة الأمريكية .

وقد لفتت هذه الاتجاهات الكنيدية كلها أنظار الصحف والمجلات حتى أنه فى ٢ أبريل عام ١٩٦٢ نشرت مجلة « يو اس نيوز أندويرلد ريبورت »(٢) تقريرا صحفيا عن صورة الرئيس ــ كينيدى ــ وكيف كان يجرى بناؤها ، تحدث عن الوسائل التى كان يلجأ اليها الرجل فى خطب ود الصحفيين ، ومن بينها بالاضافة الى ذلك كله أنه كان يوافق على اجراء المقابلات الخاصة وتقديم الأحاديث لعدد منهم ، كما كان رؤساء التحرير وأصحاب الصحف يدعون من آن لآخر ، وأحيانا بانتظام فى سلسلة من الولائم بالبيت الأبيض ، كما كان يدعى اليها كذلك من ينوب عن مراسلى الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء والصحف الامريكية من خارج واشنطن

العاصمة .. كما دعى لحضور الولائم أيضا بعض ممثلى الصحافة فى أنحاء البلاد .. كما لم تقتصر تلك الولائم على « مراسلى واشنطن » أو مندوبى الصحف أو وكالات الأنباء من القائمين بالعمل الاخبارى وحده ، وانما كان يدعى لحضورها كتاب الأعمدة والمقالات وبعض المعلقين والمصورين..

ومن العجيب ، أن عملية استطلاع قامت باجرائها بعض معاهد الرأى العام فى الولايات المتحدة الأمريكية أظهرت أن رجال الاعلام كانوا يحتلون دائما ولمدة عام كامل ، مكانا مرموقا فى قائمة الداخلين من أبواب البيت الأبيض الأمريكى ، أو ضيوف الرئيس كنيدى ، أو ضيوف زوجته ، وبعبارة احصائية وجد أن « واحدا فى المتوسط من كل خمسة ضيوف يدعون الى البيت الأبيض ، لابد وأن يكون كاتبا أو صحفيا »(٣) ..

.. ويجمع الخبراء على أن هذه الأساليب لم تكن وحدها التى نجح الرجل عن طريقها فى أن يصبح واحدا من أقوى الرؤساء فى التاريخ الأمريكى ، وأن يكتسب على الفور مكانة كبيرة ، وشعبية هائلة ، بل انه أضاف اليها ما ظهر من مواهبه العديدة فى قوة التأثير والذكاء وسحر الكلمة المختارة بعناية شديدة وحسن الصورة .. أضاف الى ذلك كله أنه كان يطلب من وزرائه ومستشاريه الاهتمام برجال الاعلام ، كما كان السكرتيرون الصحفيون لحكام الولايات يدعون الى البيت الأبيض وأندية الصحافة لعمل المقابلات الشخصية حول أهداف الرئاسة وممارستها .. كما كان هو نفسه يصحب وعلى طائرته الخاصة أكبر عدد ممكن من الصحفيين ، خلال رحلاته السياسية أو السياحية ..

على أن من الأهمية الاشارة هنا الى أن أكبر ما كان يساند الرجل فى اقامة جسور هذه العلاقة ، ودعمها ، وفرض حبه واحترامه ذلك العمل الكبير الذى كان يقدمه ، والذى كان يحس به المواطن الأمريكى العادى.. فكان من بينه انجازاته تطوير مرافق البلاد والبدء فى انشاء صناعات جديدة وتوفير التدريب بأجر للعمال العاطلين ومنح الولايات سلطة جديدة

لتوسيع نطاق التأمين ضد البطالة ، واتساع دائرة التأمين الاجتماعى ، وتخفيض سن منح المعاش للامريكى الى ٦٢ سنة فقط بدلا من ٦٥ وزيادة الحد الأدنى للاجور ، وتكثيف الجهود نحو القضاء على التفرقة العنصرية، وحيث أعلن بالحرف الواحد وفى خطاب أذيع من البيت الأبيض الى الشعب الأمريكى « أنه قد أصبح عليه وعلى الأمة الامريكية التزاما أدبيا بأن تضمن المساواة الكاملة للزنوج الأمريكيين » ثم تقدمه الى الكونجرس بمشروع قانون يهدف الى القضاء على التفرقة فى التصويت ... وذلك بالاضافة الى مواقف التحدى الخارجية العديدة التى واجهها الرجل بشجاعة وحكمة معا ، ومن أبرزها أزمة اقامة الاتحاد السوفييتى لقواعد الصواريخ الهجومية فى الأراضى الكوبية ، والتى يستطيع الروس منها أن يوجهوا تهديدا نوويا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، ودول أمريكا اللاتينية الحليفة .. والتى انتهت بموافقة الروس على فك هذه القواعد ونقلها الى بلادهم تحت رقابة هيئة الأمم المتحدة .. وحيث عد ذلك انتصارا كبيرا للرجل ، فى أقوى مواجهة له مع الدب الروسى .. وذلك كله بالاضافة الى برامج المعونة التى قدمها لعدد من دول العالم،والتى ساهمت بقدر كبير فى تحسين ملامح الصورة الأمريكية فى هذه البلاد ..

لقد نجح الرجل بكل ذلك ، وأصبح صديق الصحفيين الأول فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بل كانت معاملته لهم ، ورعايته ، وحدبه ، مما يحسد عليه هؤلاء ؛ أو يحسدهم عليها الصحفيون فى أنحاء المعمورة .

ولكن يبدو أن رجال الصحافة عامة ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة ، يطالبون دائما بالمزيد من التسهيلات ، والجسور ، فاذا حصلوا على المزيد طالبوا بالجديد ، فاذا نالوا الجديد بحثوا عن غيره كما يبدو كذلك أن هؤلاء لا يرضون بغير العجب العجاب .. أو أن رضاءهم قد أصبح شيئا من المستحيلات أضف الى ذلك كله تأويلاتهم العديدة لمواقف الرجل ومحاولة البحث عن أخطائه وتسقطها ، وانتهاز الفرص لاظهار ذلك .. وبأكثر من أسلوب .

ـــ فالرحلات التى يصحبهم فيها الرئيس ، وعلى طائرته الخاصة الفخمة جدا .. هى رحلات موجهة وتأخذ عندهم صورة من صور تقييد الأنباء وعدم انسيابها الكامل ، فى حرية مطلقة .

ـــ والانتقال بالمؤتمرات الى القاعة الكبرى .. عند البعض يعد مظهرا من مظاهر النجومية ، وارضاء الذات .. وحماس الشباب .. وانبهارهم بالأضواء .

ـــ وتسجيل المؤتمر الصحفى اذاعيا وتليفزيونيا واذاعته وبثه على الهواء تماما كما كان فى عهد سلفه ايزنهاور مجرد استعراض تليفزيونى لا مبرر له ، الا محاولة زيادة شعبية الرئيس ، وحتى تصل ابتساماته .. الى كل بيت أمريكى .

ـــ وحتى هؤلاء الذين فازوا بأحاديث خاصة منه ، وحققوا عن طريقها أكثر من سبق صحفى ، وجد من يقول أنهم من الذين كانوا يخشى جانبهم ، ويعمل على كسب ودهم ، وأما غيرهم فقد كانت الأبواب توصد من دونهم ، وكذا مصادر الأخبار ، كما كانوا يعاقبون أيضا عن طريق نقد أخبارهم ، ورواياتهم الاخبارية ..

ـــ كذلك فان قدامى الصحفيين ـــ خاصة من مراسلى البيت الأبيض ـــ كانت الغيرة تدخل الى قلوبهم وهم يشاهدون الرئيس يحتفى بعشرات من الوجوه الصحفية الجديدة ، بل ويقرب هؤلاء منه الى حد الصداقة ، كما كان هؤلاء يرون فى ذلك خطرا فادحا على حيدة الأنباء وموضوعيتها استنادا الى هذه العلاقة الحسنة ، والصداقة المتينة .

ـــ وبالمثل ، فان متابعة الرئيس لما ينشر فى الصحف ، ومناقشته لهم فى أسلوب النشر ، ومحتوى المادة المنشورة ، والى حد تناوله لتفاصيلها ، عده بعض هؤلاء نوعا من التوجيه لهم ، والرقابة المستترة التى يمارسها هو شخصيا ، وبأسلوب غير مباشر .. والدليل على ذلك أن كيندى كان

يتيح لهم أن يعرفوا ما يفكر فيه بشأن طريقة تناولهم لخبر من الأخبار ، وأسلوب ذلك التناول .. مما يعد من قبيل هذا التوجيه ، أو الرقابة غير المباشرة .

ومن أجل ذلك كله ، فقد كانت تقع أحيانا بين الرئيس وبين أعوانه ومستشاريه من جانب وبين الصحفيين من جانب آخر بعض «المناوشات» والخلافات التى كانت تنجم عن فهم أو سوء فهم .. ولكنها على أية حال لم تصل الى درجة التصادم الكامل ، الا مرة واحدة فقط ، وبشأن أزمة قواعد الصواريخ الكوبية نفسها .

فبعد أن امتدحت الصحف العالمية عامة والأمريكية خاصة ، وبالاجماع بالنسبة للأخيرة ، مسلكه حيال هذه الأزمة التى كادت تفضى الى حرب عالمية ثالثة .. وكذا بعد أن بدأت تغير نظرتها اليه تغييرا كاملا .. اذ خرجت بعض الصحف لتقول أن أهم المعلومات المتصلة بهذه الأزمة نفسها وبتفصيلاتها الدقيقة ، ومواقفها العصيبة قد حجبت عن الصحافة الأمريكية .. وزاد من حدة الأمر اعتراف مساعد وزير الدفاع الأمريكى — آرثر سيلفستر — بأن شيئا من تقييد الأنباء والسيطرة عليها قد حدث فعلا أثناء هذه الأزمة .. وأن النجاح الذى أحرزه الأمريكيون حيالها يبرر هذه الاجراءات ..

وانفجرت الأزمة كاملة ، وجن جنون الصحافة ، وأخذت توجه اللوم ، والنقد ، والهجوم الى الرئيس كيندى وادارته ، وقالت صحيفة « واشنطون ايفننج ستار » فى مقال افتتاحى لها ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر : « لم يسمح لأى مراسل صحفى أن يكون فى الموقع ، وحجبت عن الجميع التسهيلات التقليدية التى كانت تقدم عادة لهذا الغرض لأسباب واضحة الزيف ، وهكذا فان مستر سيلفستر وحاشيته ، ونحن واثقون أنهم كانوا ينفذون الأوامر كانوا يتحكمون فى كل

ما ينشر .. »[4] الى أن قالت الصحيفة : « وربمـا فات مستر سيلفستر نتيجة واحدة محتملة من نتائج الأساليب التى استخدمناها ــ على حـد قوله ــ ألا وهى أنه وأن رؤساءه قـد أصبحوا من الآن فصاعدا محل شك .. فما يقولون قد يكون هو الحقيقة ، ولكن هذه الحقيقة سوف تقبل منهم ممزوجة بحبة من ملح الشك .. » [5]

كما نشر « آرثر روك » مقالا بمجلة « فورتشن » [6] ضمنه نقدا شديدا لهذا التقييد للأخبار ، وسخر فيه من تلك الاجراءات .. ثم رأى فى نهايته أن يوجه اللوم الى الصحـافة نفسها التى سمحت فى تغطيتها لأنباء أزمة الصواريخ .. أن تخضع للتأثير .. كما نشرت مقالات أخرى عديدة تتناول هذا الموضوع نفسه ، بأكثر من أسلوب .

حتى كان يوم الثانى والعشرين من نوفمـبر ١٩٦٣ .. وعلى أرض مدينـة دالاس ، بولاية تكساس الأمريكية .. وبين عشرات من الأعوان والمستشارين ، والوزراء ، ومئات من رجـال الشرطة والشرطة السرية والمخابرات ، وعلى بعد خطوات قليلة من عشرات من رجال أمن الولاية المشهورين بقبعاتهم ذات الطراز القـديم ، والى جانب زوجته ، وجوار جون كوناللى حاكم الولاية القـوى .. وبينما الموكب الكبير يتقدم ، اذ انطلقت ثلاث رصاصات لتصيب الرجـل فى عنقـه وجمجمته ، يميل بعدها الى الأمام .. ثم يسقط فى مشهد تراجيـدى بالغ التأثير .. يصبح بعدها جون كيندى مانشيتا لصحف العالم كله ، وأول خبر فى نشرات الاذاعات .. ودرسا لطلاب الاعلام ، ومدارس الصحافة وهواة التصوير .. ومعاهد الشرطة وخبراء الجريمة أيضا ..

---

(١) فرانسيس واتيني وآخرون : « موجز التاريخ الامريكى » ص ١٨٤ .

(٢) U.S Newsaworld Report

(٣) روان برادلى ، ترجمه محمود سليمة : « الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى » ص : ٨٠

(٤ـ٥) المصـدر السـابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٦) fortuve

أهم المراجع العربية والمعربة

١ ــ ابراهيم امام ــ تطور الصحافة الانجليزية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٥٦ .

٢ ــ ابراهيم عبده ــ تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية ــ القاهرة ــ ١٩٤١ .

٣ ــ ابراهيم عبده ــ الصحافة فى الولايات المتحدة الأمريكية ــ سجل العرب ــ القاهرة ــ ١٩٥١ .

٤ ــ ابراهيم عبده ــ دراسات فى الصحافة الأوربية ــ مطبعة جامعة فؤاد ــ القاهرة ــ ١٩٥١ .

٥ ــ ابراهيم عبده ــ محنة الصحافة وولى النعم ــ سجل العرب ــ القاهرة ــ ١٩٧٨ .

٦ ــ اجلال خليفة ــ الصحافة ــ دار الطباعة الحديثة ــ القاهرة ــ ١٩٧٦ .

٧ ــ احسان عسكر ــ نشأة الصحافة السورية ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ــ

٨ ــ أحمد حسين الصاوى ــ فجر الصحافة فى مصر ــ الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٧٥ .

٩ ــ أحمد عبد الرحيم مصطفى ــ علاقة مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٧ .

١٠ ــ أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ــ تاريخ أوربا فى العصر الحديث ــ مترجم عن هـ.ا.ل فيشر ــ دار المعارف ــ مصر .

١١ ــ اسماعيل مظهر ــ سير ملهمة من الشرق والغرب ــ مترجم عن صمويل نينسون ووليام دى ويت ــ النهضة المصرية ــ القاهرة.

١٢ ــ بهاء فهمى ــ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ــ مترجم عن ا . جرانت وهارولد تمبرلى ــ سجل العرب ــ القاهرة .
١٣ ــ جورجى زيدان ــ تاريخ آداب اللغة العربية ــ دار الهلال ــ القاهرة ــ ١٩٣٧ .
١٤ ــ جورجى زيدان ــ تاريخ مصر الحديث ــ دار الهلال .
١٥ ــ حسنين عبد القادر ــ الصحافة كمصدر للتاريخ ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٦٠ .
١٦ ــ خليل صابات ــ الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٦٨ .
١٧ ــ شمس الدين الرفاعى ــ تاريخ الصحافة السورية ــ دار المعارف ــ مصر ــ جزءان .
١٨ ــ عبد الحميد البطريق ــ تاريخ أوربا الحديث ــ جامعة الرياض ــ السعودية ــ ١٩٧٨ .
١٩ ــ عبد الحميد العبادى ومحمد بدران ــ تاريخ المسألة المصرية ــ مترجم عن تيودور رتشين ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ــ ١٩٥٠ .
٢٠ ــ عبد العاطى جلال ــ الصحافة فى العالم ــ مترجم عن ب . دينوابيه ــ وزارة الثقافة ــ القاهرة .
٢١ ــ عبد الرحمن الرافعى ــ عصر اسماعيل ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٤٨ .
٢٢ ــ عبد العزيز توفيق جاويد ــ موجز تاريخ العالم ــ مترجم عن هـ.ج.ويلز ــ النهضة المصرية ــ القاهرة .
٢٣ ــ عبد اللطيف حمزة ــ أدب المقالة الصحفية فى مصر ــ جـ ١ ــ جـ ٢ ــ دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ ١٩٥٤ .

٢٤ ــ محسن محمد ــ حكايات صحفية ــ أخبار اليوم ــ القاهرة .

٢٥ ــ محمد عبد القادر حاتم ــ الرأى العام وتأثره بالاعلام والدعاية ــ مكتبة لبنان ــ بيروت ــ ١٩٧٣ .

٢٦ ــ محمد عزة دروزة ــ تركيا الحديثة ــ مطبعة الكشاف ــ بيروت ــ ١٩٤٦ .

٢٧ ــ محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل ــ نابليون ــ مترجم عن هربرت فيشر ــ دار المعارف ــ مصر .

٢٨ ــ محمد مصطفى غنيم ــ مخبرو الصحف ــ مترجم عن دافيد بوتر ــ دار الكاتب العربى ــ القاهرة .

٢٩ ــ محمود أدهم ــ فن الخبر ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٧٩ .

٣٠ ــ محمود الغندور ــ الاعلام ــ مترجم عن فرنان ترو ــ المنشورات العربية ــ بيروت .

٣١ ــ محمود سمهان ــ الصحافة ــ مطبعة الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٩ .

٣٢ ــ محمود محمد سليمة ــ الجريدة ومكانها فى المجتمع الديمقراطى ــ مترجم عن دوان برادلى ــ النهضة العربية ــ ١٩٧٧ .

٣٣ ــ محمود نجيب أبو الليل ــ الصحافة الفرنسية فى مصر ــ القاهرة .

٣٤ ــ مروان الجابرى ــ الصحافة اليوم ــ مترجم عن توماس بيرى ــ أ . بدران ــ بيروت ــ ١٩٦٢ .

٣٥ ــ منير بكر التكريتى ــ الصحافة العراقية ــ مطبعة الارشاد ــ بغداد .

صدر للمؤلف

١ ــ أنشودة حب ــ شعر ــ الدار البيضاء ــ القاهرة ــ ١٩٦٣ .

٢ ــ فن الخبر ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٧٩ .

٣ ــ فن تحرير التحقيق الصحفى ــ دار الشعب ــ القاهرة ١٩٧٩ .

٤ ــ هم والصحافة ــ دار الشعب ــ القاهرة ــ ١٩٨٠ .

تحت الطبع

١ ــ تحرير الأخبار الصحفية .

٢ ــ دراسات فى الصحافة المصرية .

٣ ــ فن الحديث الصحفى .

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٠/٤٨٤١

الترقيم الدولى ٣ — ١٥٦ — ٢٩٦ — ٩٧٧ ISBN

مطابع دار الشعب بالقاهرة